

المستشار
عبدالحليم الجندوب

مالك بن أنس

إمام دار الهجرة



دار المعارف



Bibliotheca Alexandrina

0127653

مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ

مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ

المستشار

عبدالحليم الجندى

الطبعة الثالثة



دارالمعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

في هذا الكتاب صورة لإمام دار الهجرة تترأى بين معالم اليسر والسماحة واتباع الأمر الأول ، الذي أظهر قلة من المسلمين الأولين ، على كثرة العالم المعروف ، في بضع سنين .

وهذا الوجه الخلقى للصورة هو الخصيصة الأولى لرجل حي حياته كلها في المدينة . فشغلت حياته بطولها . نصف حياتها - يومئذ - في الإسلام . وأضافت إلى سؤددها مجداً جديداً لها . بالعلم والعمل . وتيسير الوسائل للتطور .

والمسلمون من فاتحة القرن ، وكلما أنشب العالم الحرب . يتحسسون السبيل للنهضة . ولقد قلنا قبل . ما نكرره اليوم في يقين وثقة ، زادتتهما التجارب العالمية إثباتاً وقوة^(١) : إن ماضينا الضخم ، من تراثنا المسلم ، هو مركز الثقل الذي يحفظ توازننا ، في أمانة واطمئنان . إلى جوار كونه ينبع من صميم الواقع . ويستنهض خلايا الجسم ذاته ، ليقوى على علله وعاهاته .

وليس كمثل أئمة الفقه دلائل على أن الإسلام عصري في كل عصر . يقصد قصده في كل حضارة . أن كانت سيرهم قدوة للتقدم العلمي والحضاري . وأسوة للسمو النفسى والفكرى . وكان فقهم ثباتاً وضيقاً لدعاة النهضة من بنى العصر . الباحثين عن القوى العملية والعلمية المحركة لأداة التقدم . وكانت آية العدل المطلق . وآلة اليسر المسعف ، مصدرى القوة في مقاصد الشريعة التي أبلغت المسلمين أوجههم كلما التزموها .

وحياة مالك عالم عريض كعوالم الدول . نتج من عصر النبي عليه السلام . والعصر الذى خلف من بعده . فأى عصر وأى قدوة ! وأى اتصال بالواقع

(١) مقدمة : أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام طبعه سنة ١٩٤٥ ومقدمة الإمام الشافعى طبعه سنة ١٩٦٧ .

الذى ظهر وازدهر وتطور ، بظهور الرجال واختفائهم ، وازدهار الدول وانقضائها !
 والتاريخ لا يعرف إماماً - كهيئة مالك - وسعت حياته ثلاثة أجيال كبيرة .
 وثلاث عشرة خليفة . يجيئون ويذهبون . وهو باقى بالمدينة سادن أمين للسنة .
 كأنه معلّم من معالم الطبيعة . كالجبل أو كالبحر . ولما جلس إليه ستة من الخلفاء ،
 فيهم ثلاثة من أعلم الخلفاء وأعظم العظماء ، فى يدهم مصاير القارات والحضارات .
 كان ذلك تسليماً من الزمان على طوله . بأن فقّهه يُحمّل عناصر العالمية والتقدم .
 فمدوا إليه بالأسباب وواجهوا . فى ظله ، أقطار عالمهم كله .

وما كان أعظمها تجربة للفكر الحى العملى الذى يفعل الواقع وينفعل به .
 فتشهد القرون له فى شتى القارات والحضارات بآسيا . حيث نشأ . وأفريقية
 حيث استحكم . وأوربا حيث تفرد العلم الإسلامى بالفكر العالمى فى جوامع
 الأندلس وجامعاتها . فنقلت أوربا علومها لتنتقل بها من جهالة القرون الأولى
 إلى عصر النهضة .

والتاريخ يعيد نفسه إذا أصلح الناس أنفسهم
 إلى القراء هذا المثل العالى . ليتأملوا . ويأملوا
 والله بالغ أمره .

البَابُ الأوَّل

المدينة – دار الهجرة

« أمرت بقرية تأكل القرى »
« يقولون يثرب وهي المدينة . تنقو »
« الناس كما ينقو الكير خبث »
« الحديد » .

(حديث شريف)

نشأ مالك بالمدينة التي إليها كانت الهجرة . وبها نزل القرآن . وأحل الحلال
وحرم الحرام . ولم يبرحها إلى بلد آخر . ومنها نشأت نظرياته في الفقه والاستدلال .
وإليه انتهت طرائقها . فأصبح في الطليعة من سدنة السنة . وقد سُنّت كثرتها
بالمدينة . وفيها قضى عظماء الصحابة عظم حياتهم . فشاركوا في الحفاظ عليها ،
واستمرار « الأمر الأول » في الأجيال اللاحقة . ومن ثمة كانت المدينة والسنة
كل شيء في الرجل ومذهبه . يستوى في ذلك رجالها أو الحوادث التي نجمت
فيها . مذ وطئت ثراها أقدام النبي عليه السلام والصدّيق أبي بكر . فظهرت في
الحياة والعبادات والمعاملات السنن التي صحبت الفجر عند انفجاره ، في عصر
الرسول ، والإسلام عند انتشاره ، في عهد الخلفاء الراشدين .

ولما استطارت الفتن فخلقت على وجه الأمة ما يشبه جراحات المعارك .
توالدت الملل والنحل والطوائف والانقسامات ، فأجاءت إلى الوجود ، في حياة
مالك وأبيه وجده ، أعظم دولتين في الإسلام . وشارك مالك في عصريهما
بكفل زاخر من الفقه الذي تدين به الأمة .

وإذ كان من تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين « عليكم بسنتي .
وسنة خلفائي الراشدين المهديين من بعدي : تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » ،

- وكان عصر الخلفاء الراشدين والصحابة عميق الأثر في تابعيهم من أساتذة مالك .
وكان العصر الذي منح مالكا بعض خصائص السابقين وذخائرهم استمراراً
واتباعاً للقرن الأول . فالعصران مدخلان لتصوير خصائص مالك .
وفصلا هذا الباب ، كمثل سائر الفصول في الكتاب ، تجري كحياة مالك .
في مدينة واحدة هي المدينة : دار الهجرة — السنة واليسر والسماحة .

الفصل الأول

يثرب - أو المدينة المنورة

بلغ النبي عليه الصلاة والسلام ، وأبو بكر معه ، قرية « قباء » - على مبعدة فرسخين من يثرب - فأقام أياماً ، فبنى مسجد قباء ولحق به هنالك على بن أبي طالب ، بعد أن رد للناس ودائع خلفه النبي ليردها ، ولينام في فراشه ، فيحميه وصاحبه إذ يأويان إلى الغار . اثنين الله ثالثهما . مأمورين بالهجرة إلى يثرب . وقد أصبحت فيما بعد : المدينة المنورة . كراهة لاسم يثرب . لما في اللفظ من تريب .

وفي يثرب ترك عليه السلام ناقته تسعى حتى بركت . فبنى داره واتخذ مسجده ، وأمر ألا تشد الرحال إلا إلى مسجده هذا . والمسجد الحرام . والمسجد الأقصى .

ومن المدينة ولتسجد لها انطلق الإسلام .

ولقد أبقاه أبو بكر على حاله ، « اتباعاً » لما صنع النبي . وزاده عمر « اجتهاداً » لمواجهة الزيادة التي طرأت على العاصمة الأولى للإسلام .

في هذا المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم كمسجد قباء ، سيجلس مالك بن أنس غداً ، متبعاً ، ومجتهداً ، لحراسة السنة التي سنّها سيد المرسلين . بقوله وعمله . في عاصمة الإسلام ، فصارت السنة وسماحتها وعمل المدينة وعلمها . أحرف الهجاء في منهاج مالك . وتطاول به العمر ، فلبث أحقاباً يتلقى علوم الإسلام ويلقيها على عظماء الفقهاء والخلفاء والتلاميذ والأئمة ، ليقدّموها للزمان كله .

* * *

كانت تربطه عليه الصلاة والسلام ، روابط شتى يثرب من قبل . فيها

الخزرج أخوال جده عبد المطلب . وفيها ولد عبد المطلب وترعرع حتى دعاه أخوه المطلب ليشغل مناصب أبيهما هاشم . فغلبه عليها أخوهما نوفل . فاستعدي أخواله فنصروه فردت إليه حقوقه بمكة . ثم تعهد عبد المطلب حفيده فنشأه يتيماً في حجر أمه . . . وفيها دفن أبوه عبد الله إذ مات في زيارة لأهله هنالك . عائداً من تجارة بالشام . ولما خرجت باليتيم أمه في السادسة من عمره ليرى قبر أبيه . ويتعرف على ذويه بالمدينة . رجع إلى مكة من دونها إذ جادت بروحها في طريق العودة ، فدفنها بالأبواء على مبعدة ثلاثة وعشرين ميلاً من المدينة .

وفي العام التاسع من حياته سافر في تجارة مع عمه أبي طالب إلى بصرى بالشام ، فلما قفلا راجعين مرا بقبري أبويه زائرین مترحمين . وكم قص النبي بعد الهجرة أحاديث رحلته وعودته بغير أم . مضاعف اليم ، من يثرب .

كان المسلمون بمكة قلة يلقون العذاب من المشركين بالعشي والإشراق : مستبشرين . ثم هاجر إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة ثلاثة وثمانون ، يتصدرهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي . ثم جاء نصر الله ب ستة من الخزرج من المدينة يلقون الرسول عند منى ، ويواعدونهم العام القادم . وفي العام القادم تضاعف العدد . فكانت بيعة العقبة الأولى عند منى . وفي العام التالي بايعه بيعة العقبة الكبرى أو الثانية ، ثلاثة وسبعون وامرأتان . راجين أن يكون بين ظهرانيهم يثرب . حيث الأمان من مكة . فأمر صحبه بالهجرة إليها متفرقين . واستأذنه أبو بكر فقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً » .

ثم هاجر فآخى بين المهاجرين من مكة والأنصار بالمدينة من كل فريق خمسة وأربعون يتصدرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة وأبو عبيدة بن الجراح . ومن المهاجرين والأنصار تألف المجتمع الجديد في المدينة .

ولم يكد ينصرم عام حتى جيّش المسلمون ببدر ثلاثمائة رجلٍ ونيقاً يهزمون من المشركين نحو ألف . وراية المسلمين مع علي بن أبي طالب ..

وتوالى نصر الله بالمدينة . وقعت وقعة بدر في السنة الثانية . وفي الثالثة أُحد .

وحمرء الأسد . وفى الرابعة والخامسة بدر الأخرى وبنو النضير والأحزاب .
وبنو قريظة . وفى السادسة الحديبية وفى السابعة خيبر والعمرة . وفى الثامنة فتح
مكة وغزوة حنين .

غزا بنفسه خمساً وعشرين غزوة . وقيل سبعمائة وعشرين وسراياه ست وخمسون :
قال على : « ما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه » .

خاطب عليه الصلاة والسلام مكة يوم الفتح بقوله : « والله إنك لأحب
أرض الله إلى » . والله لولا أنى أخرجت منك ما خرجت » فحسب الأنصار
أن رسول الله حنّ إلى وطنه . فقال لهم : « قد سمعت الذى قلت يا معشر الأنصار .
الحيا محياكم . والممات مماتكم . والله لو سلكت الأنصار وادياً لسلكت وادى
الأنصار وشعبهم . ولولا الحجرة لكنت امرأة من الأنصار » .

وفى سنة تسع توجه تلقاء أرض الروم فى الشمال فكان أقصى أمره تنوك .
ورجع إلى المدينة فأقام . وبعث أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع . فكانت
الحجة الأولى فى الإسلام . .

ودخلت سنة عشر فأقامها بالمدينة . وجاءته وودود العرب من كل وجه .
وبعث رسله إلى ملوك الأرض . فلما حضر الموسم خرج إلى مكة فأقام للناس
حجهم . وعرفهم مناسكهم . وخطب ثم نزل فتلا قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم
دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وصدر إلى المدينة فأقام بقية دى الحجة من ستة عشر . والمحرم وصفر
واثنى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة إحدى عشرة .

ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى عن ثلاث وستين سنة . منها عشر
سنين بالمدينة هى السنوات العشر التى أرسى كثرة الأسس الإسلامية . ومات
عن نحو عشرة آلاف صحابى بالمدينة . ومن عداهم ألعان تفرقوا فى سائر
البلدان .

وأُمسّت جزيرة العرب كلها جزيرة إسلامية عاصمتها « المدينة » .

تكونت الدولة الإسلامية — والتشريع عمادها — بالمدينة . فنزل الوحي يتغيا
غايات خاصة بالأمة والدولة وقواعد الحرب والسلام والقضاء والإفتاء والعبادات
والمعاملات دون أن يقتصر على أمور الاعتقاد والأخلاق التي عرفها المسلمون
بمكة .

وكمثل الوحي أخذت السنة في المدينة تظهر في المعاملات لا في مجرد العقائد .
وتجلت النظرات الأخلاقية في التشريع العملي . فترقرقت مظاهر التسامح
واليسر والعفو في صفحاته . قال عمر بن إسحق : « لَمَنْ أدركت من أصحاب رسول
الله أكثر ممن سبقني منهم فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم » .
وضحت السنة بالمدينة تشريع الزكاة في مصدرها ومصرفها ومقدارها وطبيعتها
كصريبة واجبة على الربح والدخل ورأس المال .

وشرع الصيام وتحويل القبلة إلى الكعبة في العام الثاني للهجرة بالمدينة .
وفي المدينة حددت الزوجات بأربع . ونهت السنة عن الجمع بين المرأة
وعمتها ونخالها . وحرمت من الرضاع ما يحرم من النسب . وحرّم الزواج بمشركة
وزواج المسلمة بغير المسلم . وحرّمت الخمر تحريماً كاملاً . وتجلّى عداء
الإسلام للانتهاز والاستغلال في النهي عن الربا أو الكسب دون عمل . وعن
الغرر أو الكسب بالمغامرة . وأرسيّت قواعد الأسرة . ووضحت قواعد الميراث .
وبين القرآن خمس عقوبات دنيوية هي القصاص . بينه في سورة البقرة —
وهي مدنية — بعد إذ كان قد أبقاه بمكة في سورة الإسراء لأنه من مألوف
العرب . ونزل حد الزنا في سورة النور وهي مدنية . وشرع حد القذف . وبين
حد السرقة في سورة المائدة وهي مدنية . وفيها أيضاً حد قطع الطريق وبينت
السنة في المدينة حد شرب الخمر .

وغلبت في مجتمع المدينة آية الرحمة . ودرّث الحدود بالشبهة . . . وتجلت
بالقول والفعل خصائص الحنيفية السمحة : لا تكلف نفس إلا وسعها . ولا تزر
وازرة وزر أخرى . ولا تكليف إلا ببلاغ . ولا عقاب لمن اضطر غير باغ .
ودُعِيَ الناس للتوبة ووعدوا بالمغفرة .

وروعيت المصلحة ودُفعت المشقة . وترك للعرف مكانه فيما يصلح للجماعة
 مما كان في الجاهلية . وأوصى الرسول بأهل الذمة فقال : « من آذى ذمياً فأنا
 خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » .

- ع -

كانت المساواة بعد التوحيد . أساساً للدين الجديد - وبهذا تصدر بين
 الصحابة بلال الحبشي . وقال النبي عن سلمان الفارسي : « سلمان منا أهل
 البيت » .

وحرص الرسول على تعليم المسلمين العدل والمشورة ، بالفعل والقول .
 باعتبارهما جوهر المساواة ومظهرها . اعترضه في الطريق بالمدينة يهودى له عليه
 دين لم يحل فقال اليهودى : إنكم بنى عبد المطلب أهل مطل !! قال عمر :
 إيدن لى يا رسول الله أن أضرب عنقه . قال : « أنا وصاحبي أحوج إلى غير
 هذا منك يا عمر . مره بحسن التقاضى . ومرنى بحسن الأداء » . والتفت إلى
 اليهودى يقول : « أيها الرجل إنما يحل دينك غداً » .

وقال عليه الصلاة والسلام عن نفسه ورأيه : « إذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما
 أنا بشر » أى أنه معرض للصواب والخطأ .

روت أم سلمة : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست وليس عندهما بينة فقال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : « إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر ولعل بعضكم يكون ألحن
 بحجته من بعض . وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من
 حق أخيه شيئاً . فلا يأخذه . فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها إسطاراً في
 عنقه يوم القيامة » فبكى الرجلان فقال كل منهما : حقى لأخى . فقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « أما إذ قلتما فاذهبا فاقتما ثم توخيا الحق بينكما . ثم
 استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه » . وزاد أبو داود « إني إنما أقضى
 بينكما برأى فيما لم ينزل على فيه » .

وفي شريعة الشورى يعلن المساواة كذلك فيقول لأبى بكر وعمر : « قولا .

فإني فيما لم يوح إلى مثلكما » ويعلن مكانة رأيهما عنده فيقول : « لو اجتمعنا في مشورة ما خالفكما » . وكان يكثر الاستشارة . ليعلم الصحابة أن يشاوروا . قال أبو هريرة : « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ودخلت خصائص التواصل والتراحم والقناعة في أسلوب حياة الجماعة : جاء عبد الله بن عمرو رجل سأل : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم . قال : ولك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال الرجل : إن لي خادماً : قال : فأنت من الملوك . وسرى بعد . عائشة يجيئها نصيبها في الفتوح فتقسم في الناس سبعين ألفاً وهي ترقع ثوبها ! !

قسمت في الناس مائة ألف لها ثم أفطرت على خبز شعير ! ! وبعث لها ابن الزبير بغيرتين فيهما مال . ثمانون ألفاً ومائة ألف . فجعلت تقسمه في الناس ، ثم أمست ما عندها درهم . وقالت : يا جارية هلمي أفطري . فجاءتها بخبز وزيت . وقالت الجارية : أما استطعت فيما قسمت أن تشتري بدرهمي طعاماً تفطرين عليه ؟ قالت : لا تعينني . لو كنت ذكرتني لفعلت ! وكان الرسول يقول : « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة » . .

وازدان المجتمع الإسلامي بمبادئه التي صيرت المرأة الموهودة في الجاهلية فخراً للمجتمع بالعلم والفضل . وشريكة مساوية في الحقوق للرجل . وصار من أزواجه عليه السلام المعلمات اللواتي لم يشق غبارهن . واللواتي يرجع إليهن أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية وغيرهم .

وكان عليه السلام يعقد حلقة الدرس في المسجد للرجال والنساء ثم طلب النساء لهن يوماً غير يوم الرجال فكان لهن يومهن .

ولما خالفه من زوجاته من خالفن . قصد عمر إلى بنته حمصة يعلمها . وقصد أبو بكر إلى بنته عائشة يقضي ضدها في احتكامها إليه . وفي الحديث

لم ينحر الناس ولم يهدوا ولم يخلوا . فأفصى عليه الصلاة والسلام إلى أم سلمة بما صنعوا فأشارت بأن يسحر ويهدى ويخل . واتبع مشورتها فهدى الله الناس فصنعوا . وما كان رجوعه إليها إلا سنة المشورة . واحترام المرأة والزوجة .

وفي خطبة وداعه أوصى خيراً بالنساء قال : « واستوصوا بالنساء خيراً » .

وكان السلام طبيعته . وبأليف القلوب في منهاجه : كان في الخامسة والثلاثين من عمره . وقبل مبعثه بأعوام . يوم دخل الكعبة . من باب بني شيبه . أول داخل . وقد اختصم القبائل . أيها يرفع الحجر الأسود في بناء الكعبة . واصطلحوا على أن يحتكموا إلى أول قادم فإذا هو لأول . ليحكم : فيسطرداءه ويضع عليه الحجر — ويجعل لكل قبيلة ممثلاً يأخذ بطرف من الرداء ويرفعون الحجر جميعاً ، ويحكم حكماً إسلامياً قبل أن ينزل الإسلام : فيساوى بين القبائل ويمنع الحرب ويوحد العرب .

ولما أحس عليه الصلاة والسلام بدو أجله خرج فجلس على المنبر فقال : « أيها الناس . من كنت حلدت له طهراً فهذا ظهري فليستقد منه . ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرصي فليستقد منه . أو من أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه . ولا يحش الشحنة من قبلي : فإنها ليست من شأني . ألا وإن أحكم إلى من أخذ مني حقاً إن كان له أو حالني فلقيت ربي وأنا طيب النفس » .

وإذا كان من الأمور ما يشبه العدسات الصغيرة التي تظهر أشياء كثيرة في صلح الحديبية متابه من ذلك . هالك الخلفاء الراشدون الأربعة إلى جوار الرسول . ولكل فضل ، وهناك مقدار ما يسبح اليسر . وخصائص أبي بكر وعمر . بلغ النبي مكة في ألف وأربعمائة . وأخذت قريشاً المفاحاة . فهبت تصده عن الكعبة واختار عثمان للمفاوضة فأنجحته سجاياه . وأملى الرسول العهد على علي بن أبي طالب قال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » قال سهيل بن عمرو ممثل المشركين : أمسك . لا أعرف الرحمن الرحيم . اكتب باسمك اللهم . ثم قال الرسول : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » قال سهيل :

« لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال عدي الصلاة والسلام ، وهو في مركز القوة : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . . . » .

تضمنت العهدة أن من جاء المسلمين بغير إذن وليه ردوه . ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يردوه . قال عمر لأبي بكر : يا أبا بكر . أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا

قال أبو بكر : يا عمر ألزم غرزه (رحله . ركابه - يقصد موقفه) فأني أشهد أنه رسول الله .

قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله
وانقلب عمر إلى الرسول مغيطاً محتناً ، ولكن الرسول أجاز العهدة ووقع صحيفتها .

وتشاء السماء أن يمتحن المشركون وفاء المسلمين ، فلم يكذب النبي بوقع العهد حتى جاءه أبو جندل بن سهيل نفسه موثقاً بالحديد فراراً بدينه . قال سهيل للنبي : قد لجأت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . فهو لي . فقال رسول الله : « يا أبا جندل قد بلت القضية بيننا وبين القوم ، ولا يصلح لنا الغدر ، والله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » .
وأخذ المشركون أبا جندل .

ثم خرج (أبو بصير) من مكة مسلماً إلى المدينة بغير إذن وليه وأرسلت قريش إلى النبي تستعيده فأعيد مع اثنين من قريش فقتل أحدهما في طريق مكة وفر إلى ذي الحليفة يقطع الطريق على تجارات مكة ، وتداعى إليه سبعون فارون مثله . ولحق بهم أبو جندل من مكة . فتوسلت قريش أن يقبلهم النبي عنده لئلا يقطعوا الطريق على تجارتها ! ثم نقصت قريش العهد بمعاونتها لبني بكر - أوليائها - على بني كعب - أولياء النبي - فخرج المسلمون إلى مكة . فكان الفتح دون إهراق دم . وإسلام قريش . وإسلام جزيرة العرب

وأصبح سهيل بن عمرو نفسه أكثر كبراء فريش صياماً وقياماً وصلاة وصدقة . وخطيب أهل مكة ليثبتوا على الإسلام عند الردة . وانتهى به الجهاد إلى الاستشهاد في اليرموك .

في هذا الموقف يتراءى لنا النبي يسراً كله . وأبو بكر اتباعاً كله . أبلغه الاجتهاد فيه ما شاء الله أن يبلغه .

ويتراءى لنا عمر في المنهاج ذاته متبعاً . مجتهداً . مجادلاً .

لكن أبا بكر هو الصديق « وثاني اثنين » عنهما القرآن . أولهما النبي . وهذا المنهاج للرجلين معاً سيكون منهاج المدينة كلها تتوارثه جيلاً بعد جيل ، حتى يؤول إلى مالك بن أنس فيقف منه ومن دين الإسلام مواقف حراس القلاع أو حراس المناثر . وتخلع القلعة أو المنارة اسمها على الحارس ، فيتلازمان على الزمان .

الصديق يجتهد :

خلف الصديق الرسول عليه السلام ، وكان من قوله يوم أنفذ أسامة : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقممت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني » وقال لفاطمة الزهراء : « إني والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . « فالابتداع والاتباع » تعبيران من تعبيرات أبي بكر في الأيام الأولى لخلافته يتخذهما قاعدة لسياسة الدولة والأمة . وسيصيران فيما بعد مشغلة العلماء والفقهاء والأمة .

في غزوة مؤتة أتمر الرسول على الجيش زيد بن حارثة - مولى النبي - فإن مات كانت الإمارة لجعفر بن أبي طالب ، يريد - عليه السلام - ليكون في إمارة المسلمين المولى والقرشي ابن عم النبي .

ولما أتمر النبي في آخر أيامه أسامة بن زيد على الجيش كان فيه أبو بكر وعمر . ولم يفصل الجيش عن المدينة لموته عليه السلام . وسرى الحمس في الأنصار - فقصدوا عمر يقولون : « أبلغه - أبا بكر - عن

واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلاً أقدم سنّاً من أسامة » فحدثه عمر فوثب من مكانه وأخذ بلحية عمر وقال مغضباً : « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتأمرني أن أنزعه » !!
ورجع عمر إلى الأنصار يقول : « امضوا ثكلتكم أمهاتكم . ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله » .

وسار أبو بكر على قدميه يودع جيش أسامة ، ودابة أبي بكر من ورائه يقودها سيد من سادات قریش هو عبد الرحمن بن عوف .
قال أسامة . وهو راكب مركب القائد : يا خليفة رسول الله ! والله لتركن أو لأنزلن . قال أبو بكر : « والله لا تنزل والله لا أركب . وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة » حتى إذا أخذ يودعه قال له أبو بكر : « إذا رأيت أن تعينني بعمر فافعل » وبلغت شجاعة القائد الشاب أن تخلى عن عمر .

* * *

رجع أبو بكر إلى المدينة يواجه ردة العرب في أرجاء شبه الجزيرة ، أردة كاملة أو عن بعض الفروض (الزكاة) . قائلين إنهم بايعوا محمداً ، ومحمد قد مات . أو قائلين إنهم لا يخضعون لسلطان المدينة ، بل يسترجع كل قبيل سلطانه .

ادعى النبوة « مسيلمة الكذاب » في اليمامة شرق الجزيرة العربية وادعته في شمال العراق « سجاح » . وسيزف المتنبان فيتزوجان! وادعى النبوة في الجنوب لقيط بن مالك في عمان . وكان قد ادعاه في اليمن « الأسود العنسي » في أواخر أيام الرسول فواصل أتباعه الارتداد . وفي بني أسد تنبأ طلحة بن خوياد . . . وانتشر الكفر انتشار النار في الهشيم فوق رمال شبه الجزيرة .

ولم يضيع خليفة الرسول لحظة في إعداد العدة ليقاثل المرتدين لكن عمر قال : كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله إلا بحقه » وهم يقولونها ؟ قال أبو بكر لفقهاء المسلمين عمر : والله لأقاتلن من

فرّق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال . وأضاف : « والله لو منعوني عناقاً لقاتلتهم على منعها » ثم قال : « يا ابن الخطاب رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك . أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحي وتم الدين . أو يقتص وأنا حي ؟ »

لا جرم كان أبو بكر أفقه في اجتهاده واتباعه . فالزكاة حق في المال وركن للدين ، وكانت حروب الردة خيراً في شكل شر . وطدت أركان الدين . وأعدت العرب إعداداً عسكرياً لتنقل الجيوش المحاربة ذاتها بالدين إلى كل مكان في بضعة وعشرين شهراً .

وكان عمر جليلاً في اتباعه لما تبين له الحق من أبي بكر . يقول أبو رجاء البصري : دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلاً يقبل رأس رجل ويقول له : أنا فداؤك . ولولا أنت لهلكنا ! قلت من المقبل ومن المقبل ؟ قالوا هو عمر يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة إذ معوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين .

حارب خالد بن الوليد المتنبئين الثلاثة طلحة ومسيلمة ومن باطنه سجاح . وكان لصناديد المسلمين إمرة الألوية الأخرى . وكانوا جميعاً من المهاجرين أما الأنصار فأبقاهم أبو بكر للدفاع عن المدينة .

وحالف النصر ألوية الإسلام في كل مكان . وقتل خالد بن الوليد مالك ابن نؤيرة قائد المرتدين وبنى بامراته في ميدان القتال . على غير مألوف المسلمين . فاختلف في أمره أبو بكر وعمر - عمر يرى محاسبة خالد من فوره . وأبو بكر يراه يحرز النصر تلو النصر فلا يشم سيفاً سله الله . فلا يعزله . ويتبع ما صعبه الرسول معه يوم قتل بعض الأسرى في حرب بني حذيفة فلم يعزله وودى القتلى . وستثبت الأيام سداد أبي بكر فيفتح خالد أعظم الفتوح للإسلام . ويثبت عمر صدق عزمه عندما يلي الخلافة فيعزله . فالنصر من عند الله سبحانه . ولم يكن عزل عمر لخالد راجعاً إلى وجوب أن يخضع السلاح للوشاح أو

السلطة العسكرية للسلطة الشرعية ، كما يقول المثل اللاتيني من عهد الرومان Cedant arma togae وهو مبدأ لم يؤخذ على خالد فيه إثارة من الريب . فلقد كان مثلاً أعلى في طاعة ولي الأمر واتباعه . وإنما أخذه عمر بالشدة للأسباب التي أخذه بها أبو بكر باليسر .

وجملة رأى عمر أن خالداً سيف الله المسلول ، وهو بهذا مطالب بأن يأخذ نفسه بالفضائل الإسلامية أضعاف ما كان يطالب بها غيره . وعمر كان يميز نفسه . وأهله . بأن يأخذهم بأكثر مما يأخذ به سائر الناس . ويضاعف لهم العقاب إن أخطأوا — وخالد ابن عم حنتمة أم عمر . وهو ابن لبابة الصغرى أخت أم المؤمنين ميمونة . وأخت لبابة الكبرى زوج العباس عم النبي . ولقد أعلن عمر بعد عزل خالد أنه خشي أن يفتن به الناس . وخالد مثل يقتدى به . . وعمر يضرب الأمثال كافة للناس .

• • •

استشهد يوم اليمامة — في حروب الردة — مائتان وألف من المسلمين بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة وحفاظ القرآن . فذهب عمر إلى أبي بكر يقول : إن القتل استحر بالقراء في المواطن . فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعه وإني لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير . ولم يزل يراجع حتى شرح الله بذلك صدر أبي بكر . ورأى الذي رآه عمر .

وعهد الخليفة إلى زيد بن ثابت فتبع القرآن من الرقاع والأكتاف والعصب (جريد النخيل) وصدور الرجال فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله . ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر . وأخرج ريد السور كما جمعت آياتها في عهد الرسول . . .

وهكذا كان العمل غير العادي في تاريخ البشر والذي حفظ لهم كلام الله كله كما نزل . عملاً من الأعمال اليومية لأبي بكر وعمر !

وليس اجتهدات أبي بكر التي أسلفناها إلا أمثالا على اجتهداته التي أعزت الإسلام وأظهرت جلالته الفقه عنده وعمقه . ومنها انبثق النبع الدافق فتعلمت الأمة - وفيها عمر - على أبي بكر أن تجتهد وهي تتبع الرسول - كمثل ما تعلمت الأمة على عمر . وسنرى عمر عدداً المجتهد الأكبر .

» . . .

مرض الصديق بعد سنتين وشهور من خلافته فقال الناس : يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا . قال سأجتهد لكم رأي وأختار لكم خيركم . ثم أرسل إلى عمر فقال : يا عمر أحبك محب . وأبغضك مبغض . وقديماً يحب الشر . ويبغض الخير . فقال عمر : لا حاجة لي بها . فقال أبو بكر : لكن بها إليك حاجة والله ما حبتك لها . ولكن حبتها بك .

ولما دنت مسيته دخل عليه عبد الرحمن بن عوف يعوده ونكلم أبو بكر كلاماً للأمة فقال فيما قال : « والذي نفسى بيده لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد . خير له من أن يخوض غمرات الدنيا . . . تم أنتم غداً أول ضال بالناس يميناً وشمالاً . لا تضيعوهم عن الطريق . يا حادى الطريق جرت » .

عمر يجتهد

ولى عمر إمارة المؤمنين . وكما يقول ابن قتيبة : اتبع في عمله سنة صاحبيه وآثارهما كما يتبع الفصيل (ولد الناقة) أثر أمه ثم اختار له الله ما عنده .

كان عمر طوالاً بكأه راكب يمشى في الناس . عظيماً كل العظمة التي يتصورها فكر . لكن أبا بكر كان أكبر : ففي شخصه من النبي أكثر . وكان عصره أقرب إلى عصر النبوة من عصر عمر .

ولما أغدَّ عمر الخطى للحاق بأبي بكر كانت آية النجح في محاولته ثباته في مكانه . بعد النبي وأبي بكر تماماً .

ولما أبين عمر أبا بكر قال : « يا خليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعباً . ووليتهم نصباً . فهيات من شق غبارك . فكيف اللحاق بك » .

أعلن عمر أن التقوى هي العدة الوحيدة للدنيا والآخرة . للحياة وللنصر .
قال لسعد بن أبي وقاص : «أما بعد فإنني آمرك ومن معك بتقوى الله . فإن
تقوى الله أفضل العدة على العدو . وأقوى من المكيدة في الحرب . وآمرك وأصحابك
أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم
من عدوهم » .

وقال لعبد الرحمن بن عوف إذ طلب إليه أن يلين : « يا عبد الرحمن لقد
لنت للناس حتى خشيت الله في اللين ثم اشتدت عليهم حتى خشيت الله في
الشدة فأين المخرج » فخرج عبد الرحمن من عنده وهو يقول : أف لهم من
بعدك !

وقال عمر : « إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت أئمتهم وهداتهم » .
وقال : « الرعية مؤدية للإمام ما أدى الإمام إلى الله ، فإذا رتع رتعوا » .
وأيدت أقواله أعماله . فالأعمال أعلى صوتاً من الأقوال .
رآه الناس عام الرمادة وقد اسود لونه — وكان أبيض مشرباً بحمرة — وحرّم
نفسه السمن واللبن واللحم وجاع مثلهم . ولو لم يرفع الله الجذب لمات هماً على
المسلمين

وقدمت السوق بضاعة من سمن ولبن فاشتراهما غلام له بأربعين درهماً وذهب
إليه — وكان قد حلف لا يأكل سمناً ولا لحماً حتى يحيا الناس — قال الغلام :
قد أبر الله يمينك وقد اشتريت ذلك بأربعين درهماً . قال عمر : أغليت .
فتصدق بهما . فإني أكره أن أكل إسرافاً . وأطرق هنية ثم قال : كيف يعينني
شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسه .

وأضحى زهد الزاهدين بعض زهده . والدنيا ملك يده . فنزل بعيشه إلى
مستوى الفقراء الذين لا يجلدون إلا مائدته . فكان يأكل معهم . ولا يطعم في داره
حتى لا يؤثر نفسه بشيء !

وأكثر ضرب الأمثال للناس من نفسه وزوجه وبنيه . . . خرج ليلة إلى
ظاهر المدينة ومعه مولاة أسلم . فسمعا امرأة جاءها المخاض . فسألها عن حالها

فقلت : ليس عندي شيء . فهرول إلى زوجته أم كلثوم - وعاد يحمل دقيقاً وشحمماً على ظهره وتحمل هي أشياء تصلح للولادة . وجعل يحدث زوجها وأم كلثوم تحدثها حتى وضعت فصاحت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام . فعرف الرجل ساعتئذ أن أمير المؤمنين وزوجه هما اللذان يخدمانه وزوجه !

وجاء أم كلثوم عقد من الجواهر من ملكة الروم في بريد المسلمين . ردّاً على هدية إليها من طرائف بلاد العرب . فوق العُقد في يد عمر . فأمر فنودي : الصلاة جامعة - واستشار - قالوا : هو لها . قال : لكنه حمل إليها في بريد المسلمين . وقوم ما أهدته إلى ملكة الروم - فرد مثله إليها . وأضاف الجواهر إلى بيت المال .

وجلس يوماً يقسم مروطاً . وبقي مرط أعجبه واقترح بعضهم أن يعطيه لابنة رسول الله التي عنده (يقصدون زوجته أم كلثوم) بنت علي من فاطمة الزهراء قال : لا بل (أم سليط) الأنصارية أحقّ لأنها كانت تزفر لنا القرب يوم بدر .

وكانت المساواة عنده قانوناً كقوانين الطبيعة الصارمة . أقام حد الحمر على ابنه عبد الرحمن الأوسط (أبي شحمة) . قال العراقيون مات من السياط - والآخرون يقولون : لقد مات لغير السياط بعد شهر . وعزل خالد بن الوليد . وهو ابن خاله . وسعد بن أبي وقاص وهو من خؤولة الرسول . وخالد سيف الله المسلول . وسعد مرشح عمر فيما بعد للخلافة . وهما كلاهما أعظم قائدين في الإسلام . وحاسب عماله كمثل ما حاسب نفسه وأهله ومنع الغزاة الأرض التي فتحوها وقوادهم مجموعون تقطر أسيافهم من دم العدو . وفي ذات يوم قدم الأمير الغساني جبلة بن الأيهم في كوكبة أفراس تحمل فوارس الشام فرحب به وأدنى مجلسه . وكان لجبلة في بلاط إمبراطور الروم مكان . وخرج الأمير إلى الحج مع الخليفة فوطي إزاره رجل من فزارة . فلطمه فشكا الرجل لعمر . وأقر جبلة باللطمه .

قال عمر : إما أن ترضى الرجل وإما أن أقيدته منك قال : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟

قال عمر : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله إلا بالتقى والعافية .
وقال : إنك إن لم ترض الرجل أقدته منك .
قال : إذن أنتصر .

قال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك لأنك أسلمت فإن ارتددت قتلتك .
قال جبلة إذ رأى الصديق من عمر : أنا ناظر في هذا ليلتي هذه ؛ فأنظره عمر . حتى إذا جن الليل هرب جبلة برجاله إلى الشام ثم إلى الإمبراطور في بيزنطة .

* * *

لكن فتوحات عمر كسرت كسرى وقصرت قيصر : فإذا امبراطوريتان تمسكان نصفي كرة الأرض تساقطان ، في بضع سنين — تحت ضربات المؤمنين . لقد فوجئ التاريخ البشري بعرب الصحراء تحيلهم تعاليم الإسلام في أعوام ، إلى علماء ، وحكماء وساسة نوابغ ، وإلى أبطال مغاوير ، بغير استثناء ، لأنهم كانوا يلتمسون الشهادة وهم يحاربون ، وكانوا يتواعدون على الجنة ، وفوجئ بوجه الدنيا وعقلها يتغير . والإسلام ينتصر .

وتقدمت مبادئ الإسلام قعقة أسلحته . كهيئة الضوء يسبق الصوت في الطبيعة . وأقبلت حضارات مصر والرومان وفارس والشام في أربعة أعوام (١٧ — ٢٠) تلتمس أحكام الإسلام . وحق على عمر أن يضيف إلى فتوحه العسكرية فتوحه الفكرية ليكفل المواءمة بين ما عليه الناس وما سوف يكونون . ولم يعد يكفيه الاقتداء بمن سبقوه . بل أضحي عليه الابتداء بما لم يسبقه إليه أحد . كانت خلافة أبي بكر سنتين وأشهرًا . وهي امتداد أو اختتام لعصر النبوة — أما خلافة عمر فسنوات عشر هي فاتحة العصر الجديد للعالم .

وكانت خلافة أبي بكر حرباً وإعداداً للحرب وانتصارات لا تقوم فيها مشكلات مجتمعات أو معاملات . أما خلافة عمر فكانت فتوحاً للعالم المعروف كله ومعايش وأرزاقاً . وفيها المشكلات .

وساعدته الأمة بالانتصارات في ميادين المعارك . وبالشورى معه ، والطاعة له ، والاعتراض عليه ، فأصبحت الأمة الإسلامية صفًا ، عمر على رأسها . تحسّ بأنها تؤدي مهمة للتاريخ . فأدركتها بتضحياتها وفضائلها . وكان عمر جديراً بأمنته جدارتها به .

* * *

وانطلق الفاروق يجهّد لنفسه وللإسلام - رفع الحظر الذى قرره أبو بكر على المرتدين كيلا يشتركوا في حروب الإسلام . فأبلىوا أحسن البلاء . . . وأجلى النصارى واليهود من جزيرة العرب على أن يختاروا أرضاً أخرى صالحة وألا يفتنوا في دينهم . ووضع الديوان لأرباب الأعطيات . ومصر الأمصار التى يصدر عنها المجاهدون . ووضع التاريخ الهجرى في السنة السابعة عشرة . ونظم الحكم في البلاد المفتوحة ، ورتب الشؤون المالية للدولة . وقرر استقلال القضاء عن الخليفة .

وآثر السابقين إلى الإسلام وأهل الرسول في العطاء . كان أبو بكر يقول : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيههم ذلك في الآخرة . وإنما هذه الدنيا بلاغ » لكن عمر قال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » وقال : « ابدعوا بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم » وقال : « الرجل وبلاؤه في الإسلام . والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام » . ثم عدل في أواخر أيامه فقال : « لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم . ولأجعلهم رجلاً واحداً » .

وراح يفتح الأبواب في حدود القرآن والسنة : في الزواج والطلاق . مثل أن يحرم الدخول بمن تزوجت في العدة ويمضى الطلاق الثلاث مرة واحدة . ثلاثاً ، وفي الحدود فيقدر حد الشارب . وفي الميراث فيورث مع الأخوة لأم الأح الشقيق . وفي القضاء فيقضى ، ويعدل عن فقهاء . ولا يعدل عن قضائه ، ويحترم قوة الأمر المقضى .

واجتهد في الحرية الشخصية فنفى من المدينة تفادياً للخطر وكان سباقاً لسد الذرائع وللعمل بالمصالح . لا ينأى كما يجعل الرعية تنام .

وكانت ومضات فكره مصابيح في الاتباع أو الابتكار .

كان يعس ليلة فسمع امرأة تغنى :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج
فلما أصبح سأل عن نصر هذا فإذا هو من أحسن الناس شعراً وأصباحهم
وجهاً . فأمره أن يطعم شعره . ففعل فظهرت جبهته فازداد حسناً ، فأمره أن يعتم
ففعل فازداد حسناً ، قال عمر والله لا تكون بأرض أنا بها وأمر له بما يصلحه
وسيره إلى البصرة .

وفي ليلة أخرى سمع - وهو يعس - نسوة يقلن : أى أهل المدينة أصبح ؟
قالت إحداهن : أبو ذئب . فلما جرى به إلى عمر رآه من أجمل الناس فقال
له : أنت والله ذئبين . ثم قال : والذي نفسى بيده لا تكون بأرض أنا بها .
قال الرجل فإن كنت لا بدّ مسيرى فسيرنى حيث سيرت ابن عمى . يريد نصر
ابن حجاج - فأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة كذلك .

وانطلق في ليلة ثالثة ؛ فإذا قوم على شراب عرف أحدهم فدعاه إليه في
الصبح . قال له : كنت وأصحابك على شراب . قال : وما أعلمك يا أمير
المؤمنين ؟ قال شئء شهدته . قال : أو لم ينهك الله عن التجسس يا أمير المؤمنين ؟
فتجاوز . . .

وفي عام الرمادة كان يقول : نطعم المسلمين من بيت المال حتى إذا لم نجد
شيئاً أدخلنا على كل أهل بيت من الأغنياء مثلهم من المحتاجين وما نزال نفعل
حتى يطعم المسلمون جميعاً .

* * *

واجتهد عمر . فمنع تدوين الحديث مخافة أن يخلط القرآن بشئء ، وكان العرب
بالقرآن حديثي عهد . ولقد ظهرت فيما بعد مخاطر إقبال الناس على الحديث
فلعله كان على حق . وظهر أن عدم التدوين كان وسيلة للانحراف من أكثر
من وجه . فلعل التدوين كان الحق .

ولقد كان عمر في بعض الأحيان يعتذر عن عدم معرفته بحديث فيقول :

« ألهانى الصفق فى الأسواق » أو ينادى فى الموسم بمن يعلم السنة فى موضوع بذاته ! عن مالك عن ابن شهاب : أن عمر نشد الناس بمنى . من كان عنده علم من الدية فليخبرنى فقام الضحاك بن سفيان الكلابى فقال : كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أوثق امرأة أشيم الضبائى من دية زوجها فقال له عمر : ادخل الحباء بعثى آتيك فلما نزل عمر أخبره الضحاك فقضى عمر بذلك . . .

وذات يوم نادى فى الناس : أذكر الله امرأ سمع من النبي صلى الله عليه وسلم فى الحنين شيئاً . فقام حميل بن مالك قال : كنت بين جاريتين لى فضربت إحداهما الأخرى بمسطح (عود الحباء) فألقت جنيماً ميتاً فقضى فيه رسول الله بغرة . فقال عمر : « لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره » . . .

وكان يعدل عن رأيه إذا تبين له الحق . . .

لقيه قوم من نصارى أذرعات يلعبون أمامه بالسيوف والريحان كما تعودوا فى الحفاوة بالعظماء عندهم فقال : ردوهم وامنعوهم : فهو لا يطيق المظاهر ، قال أبو عبيدة بن الجراح : يا أمير المؤمنين هذه عادتهم وإنك إن تمنعهم يروا فى نفسك نقضاً لعهدهم . فقال : دعوهم . عمر وآل عمر فى طاعة أبى عبيدة .

ولئن كان خالد بن الوليد قد ارتفع فى عالم الحرب إلى سماء لا تطاولها سماء . أو كان يعلو على قيصر ونابليون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت بمثله من جراحات المعارك . فقال وهو يموت : « شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع إلا فيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح . ولقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى حتف أنفى فلا نامت أعين الجبناء » واندق فى يده يوم مؤتة تسعة أسياف . ويوم مؤتة يوم واحد من عشرات . فإن خالداً الضخم لم يكن إلا واحداً من قواد عمر .

وإذا كان فتح مصر على يد عمرو — أخطر تطور فى التاريخ الطويل لمصر — ففتح مصر من أصغر فتوحات عمر بطولات . سبقه تدمير إمبراطوريتين بتمامهما

يحكمان العالم المعروف كله ومنه مصر .
وإذا كانت انتصارات عمر قد فتحت الآفاق في أرض الله كلها
للإسلام .

وإذا كان قد وضع التاريخ الهجري فأسمى حديث البشر صباح مساء .
إذا كان ذلك كله كذلك فالدنيا تذكر عمر أكثر ، بأمر أكبر ، فتقول
« عدل عمر » ، أكثر مما تقول : فتوحات عمر أو إصلاحات عمر ؛ لأن عمر قد
صير العدل ديناً له . والإسلام صميمه العدالة .

والعدالة جماع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبهما وبالإيمان كان
المسلمون خير أمة ، فحقق عمر بعدله قول الله جل ثناؤه : (كنتم خير أمة
أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

ولنما العدل صفة من صفاته وأسمائه . سبحانه . ومن هنا دخل في صميم
العقيدة الإسلامية أصلاً إسلامياً أول وارتفع به اسم عمر .

* * *

وذلل السبل لعمر امتداد الزمان به سنوات عشرًا ، واستقرار الأمور له
دهراً ، وتعاقب الحوادث وتعاضلها . مع اعتماده الأساسي على المشورة . فشاركته
الأمة حكمه . وكثرت اجتهاداته ، وأثرت اتجاهاته ، في مذاهب الفقه . تتلاقى
عندها كالروافد في المجرى العريض الواحد . وما هو إلا بحر الاجتهاد لاستنباط
الأحكام والبحث عن العلل ومقاصد الشارع وتخريج النظائر في شريعة معقولة
المعنى . تحمل في صميمها أسباب خلودها ووسائله .

ويتجلى مقام عمر الأعلى حينما تراه قمة للطريقتين اللتين تنتظمان فقه الفقهاء .
وهما كما يتجلى بعد أكثر من ألف عام وثلاثمائة عام — طريق واحدة قاصدة . هي
طريق السنة .

هنالك يترأى عمر في اتباعه واقتدائه بين النبي عليه الصلاة والسلام
وأبي بكر ، ومن ماثور قوله عنهما : « هما المرعان أقتدى بهما » وبين مدرستي
أبي حنيفة ومالك ، فأبو حنيفة إمام العراق تلميذ في مدرسة عبد الله

ابن مسعود . وأقرب فقهه إلى ابن مسعود فقه عمر . قال الشعبي : كان عمر لا يقنت ولو قنت عمر لقنت عبد الله . وكان عبد الله يقول : لو سلك الناس وادياً وشعباً وسلك عمر وادياً وشعباً لسلكت وادى عمر وشعبه .

وفي الوقت ذاته نرى مالكا إمام الحجاز يمت إلى أبي بكر وعمر بكل أسباب مدرسة المدينة من الفقهاء السبعة تلاميذ مدرسة عمر . وعمر بن عبد العزيز - حفيد عمر - وسلسلة الذهب : الشافعي عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر . ونرى مالكا يصنع صنيع عبد الله بن عمر في اتباعه للأمر الأول ويلقى الدروس في مسجد الرسول ، حيث كان يجلس عمر بن الخطاب نفسه . بل يتخذ لنفسه مسكناً بالكراء في دار عبد الله بن مسعود نفسه .

وكانت تربط مالكا بأبي بكر روابط وثيقة من الفكر في طريق الاتباع . وهو قد تعلم في مدرسة بني تيم قوم أبي بكر . وفيها وفي مدرسة عائشة تعلم المعامون له .

ولقد شهد التاريخ خليفتي الرسول في اتباعهما يتجاربان ، وكأنهما يتباريان ، وإن سلم السبق لأبي بكر - وعمر يسبح سبحاً طويلاً في التيار المقدس .

* * *

وربما أظهرت بعض اللمحات مقدار ما يتكامل الرجلان في الحقيقة والطريقة وإن اختلفا في الطبيعة . وكأنما كان اختلاف الطباع وسياسة للمزاج الموفق الذي ألفت منهما .

فوقفهما في صلح الحديبية واحد في حقيقته أو نتيجته إذ انتهى عمر إلى رأى أبي بكر ، وبعد قليل من الجدل ، وإن كان أبو بكر قد استبان له الحق قبله . بمجرد أن النبي صنعه .

وموقفهما في إنقاذ جيش أسامة الذي أعده النبي هو كهيئة الموقف نفسه . وكهذين الموقفين اجتهد عمر في حروب الردة . اجتهد من بحث عن الحق في مجلس أبي بكر فوجد الحق كله معه ، فتبعه .

وثمة اجتهدان آخران مشتركان يدلان على مقدار ما يشتركان ويتساويان .

أولهما : جمع القرآن . وكان رأياً لعمر . وأبو بكر هو الذى تساءل قبل أن يقبله : « كيف يصنع شيئاً لم يصنعه الرسول » فلما انتهى إليه كان له فضل عمله . ولعمر فيه فضل الابتداء به . والثانى : أن خلافة عمر كانت اختياراً من أبى بكر بابتداء منه . ولم تكن لعمر فيها رغبة . واعتراضه من فوره مثل تساؤل أبى بكر من فوره عند جمع القرآن : كلاهما مرحلة اجتهاد لبلوغ الحق فلما انتهى الرجلان إلى تنصيب الخليفة الذى سيرسى أركان الدولة وينشر الدين ويفتح أبواب الاجتهاد . كان عمر صنو أبى بكر .

وهذان مثلاً آخران لعمر فيهما وجهة نظر . أولهما : تفضيل عمر في العطاء لمن قاتل مع الرسول على من قاتله . مخالفاً أبى بكر . وأنفذ عمر رأيه هو ، لكنه أعلن عزمه على العدول بعد . والثانى : عزل خالد . حيث عمل أولاً برأى أبى بكر ثم أنفذ رأيه عندما أتيحت له السلطة . فهذان موقفان يتلاقيان في أمور ويفترقان في أمور وفي موطن لقاءهما والفراق بينهما أكثر من مصلحة .

كانت بصيرة الصديق ترى الرأى الحق في أكثر المواقف . دون حاجة لجدل . فلقد كان أطول من عمر صحبة ، وأعلى منه سنّاً بسنوات عشر قضائها كلها مع صاحبه صلى الله عليه وسلم . وبهذه الصحبة التى أتيحت لأول المسلمين من الرجال سبق أبو بكر وسمي : فصار التوفيق لما يلزم للدين جوهر طبيعته وإن ناقش وإن استشار . وصار التصديق والاتباع الفاهم الملهم طريقة له . ومن مآثور قوله : « الصبر نصف الإيمان . واليقين الإيمان كله » فاتباعه كان تمحيصاً بلغ من قبل مرتبة اليقين بالحق فيما كان وما قد يكون . فلم تكن اجتهاداته أو ابتكاراته في الأمور إلا دُفْعاً من النور تلقاها من الرسول فألقاها للناس ، في مناسباتها ، آراء مبتكرة .

وكان عمر الفاروق بين الحق والباطل . وللتفرقة يجادل . ليلبغ مبالغه . ولقد طالما نزل القرآن بموافقته في مسائل أحصى بعضهم أنها بضع عشرة وأحصى آخرون أنها عشرون ونيف . منها ما خالف فيه النبي وأبى بكر كراهيه في أسارى بدر . ولا بلغة معاتبه النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخل عليهن فقال : « إن

انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن » فأنزل الله آيته في ذلك . وجادل الرسول في الصلاة على ميت منافق فنزلت : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) .

وكان عمر يذكر فضل الله عليه فيقول — كما في صحيح مسلم — : وافقني ربي في ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فنزلت : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب . فنزلت : (وإذا سألتوهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) وفي أسارى بدر فنزلت : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) .

* * *

ولقد ألفت السماء إلى الأرض معانيها عندما ألهمت عمر أن يكلف من يطلب بعد مماته إلى عائشة الإذن بأن يدفن في قبر صاحبيه — زوجها وأبيها — وعندما ألهمتها أن تؤثره على نفسها برفقتهما . ليجتمع في المكان والزمان ثلاثة أصحاب انتهت حياتهم ، كلهم ، في الثالثة والستين . وانتهت بهم هنالك كذلك ، حقبة واحدة تشتمل على النظرية والتطبيق . . . في مراحل ثلاثة متكاملة . هي عصر الرسالة . وعصر ما بينها والدنيا — عصر أبي بكر . وعصر ما يجب أن تكون عليه الدنيا . كما نزلت لها — عصر عمر .

كانت العصور الثلاثة ، عقداً من أنوار السماء . تنتظم (المدينة المنورة) حباته أو سنواته . التي صيرتها عاصمة الإسلام . واقرن المكان بالأشخاص والأشياء والآراء اقتران محتويات الوعاء بالوعاء . وأمست المدينة كالنص ومضمونه ، فكرة لا مجرد بلدة . ونظاماً لا مجرد مكان . أصبحت علماً على الإسلام يطلق عليه الفقهاء والأئمة : المدينة المنورة التي إليها كانت الهجرة ، أو دار السنة أو دار الهجرة .

الفصل الثاني

من المدينة إلى دمشق

« إنها حرم آمن »
« إنها حرم آمن »
« إنها حرم آمن »

(حديث تريف)

دخل « الاتباع » التاريخ الإسلامي من باب السياسة . وأصبح المؤهل الأول للخلافة . والبيعة . ورضى الجماعة ، ونبراساً للأمة . وأساساً للفقهاء .

فلقد عهد عمر قبل أن يجود بروحه إلى ستة من السبعة الباقيين على قيد الحياة ممن بشرهم النبي بالجنة ومات النبي وهو عنهم راض ، ليختاروا من بينهم خليفة مستبعداً سابعهم - (سعيد بن زيد بن نفيل) لأنه ابن عمه .

كان عمر يقول عن علي : لو وليها الأجلح (الأصلع) لحملهم على الجادة . لكنه تذكر ما قيل لأبي بكر عن شدة عمر إذ رشحه وجواب أبي بكر أنه سيقول لله إذا سأله استخلفت على أهلك خير أهلك . . . فلم تعد الأيام كالأيام . وأبو بكر لقي ربه والمسلمون مشتبكون مع فارس والروم في كل الميادين فلم يكن يملك للإسلام ساعة يضيعها في المشاورات .

تولى عبد الرحمن بن عوف إدارة المداولات بين الحاضرين وخلع نفسه من الخلافة علي أن يختار غيره . فبقى علي وعثمان وسعد بن أبي وقاص ، والزبير ابن العوام - وطلحة .

وكان عبد الرحمن من أكرم المسلمين وأعظمهم تقوى . فراح يسأل الناس سواء الغلمان أم القوم لهم أسنان ، ومن الرجال والنساء وأمهات المسلمين . وأسر إلى علي فيما بينهما : رأيته ، لو لم أولك فن تشير علي أن أختاره؟ قال عثمان . وأسر السؤال إلى عثمان فقال : علي . . . فقربت عليه الشقة .

ومضت أيام الشورى فرفى المنبر . وجلس مجلس النبي . وطال وقوفه ، وهو

يدعو الله دعاء لم يسمعه الناس ثم قال : هلم إلىّ يا علي . فقام فبسط يده فأخذ بيد علي فقال : هل أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال علي : اللهم لا . ولكني أحاول من ذلك جهدي وطاقتي . فأرسل يده وقال : هلم إلىّ يا عثمان فأقبل حتى وقف عند المنبر وبسط يده فأخذ بيد عثمان وقال :

هل أنت مبايعي علي كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال عثمان : اللهم نعم .

قال : اللهم اشهد . اللهم اشهد . . . وبايع عبد الرحمن عثمان . ثم قام الناس فبايعوا عثمان . . . وبايع علي فيمن بايع . والله يعلم أن علياً كان يجتهد اجتهاد أبي بكر وعمر . وقد طالما استشاراه والرسول قد استقضاه .

وأن قوله بمحاولة جهده وطاقته إنما هو احتياط الفقيه . يعد بما يقدر على الوفاء به . والله يقول : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ويقول : (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) أو هو تواضع الذين لا يتعالون باقتدارهم . وإنه لمقتدر ! والشك في « اتباع » على لمجرد قوله بمحاولة جهده شك في اتباعه القرآن والسنة واتباع أبي بكر وعمر . وهو لا يتصور . وليس معنى قول عثمان إنه يبايع على الكتاب والسنة وفعل أبي بكر وعمر أنه لن يجتهد في النازلة إذا نزلت ؛ فالاجتهاد أول واجبات الإمام . ولقد طالما اجتهد عثمان للمسلمين وأحسن الاجتهاد . ولسوف يحاول لهم جهده وطاقته . ولسوف يصيبه المكروه من جراء بعض اجتهاداته . وإنما هي إرادة الله جعلته يجيب عبد الرحمن جواباً يرضاه فيبسط إليه يده يبايعه . والله هو القابض الباسط الفعال لما يريد .

كان عليّ في الأربعين ، أو يزيد شيئاً ، وكان عثمان يحذر نحو التمانين عاماً . أو منها . وحسب البعض أن الخلافة آيلة حتماً إلى عليّ بحكم سنه . ولقد أراد الله سبحانه امتحان المسلمين اثني عشر عاماً في خلافة عثمان . وبمقتل عثمان . ثم مقتل علي بعد نحو خمسة أعوام من الحروب . ليتنقل الناس

من عصر الخلفاء الراشدين إلى عصر الملك العضود - ملك معاوية وأهله - في دنيا البشر العاديين .

والذى حدث يوم البيعة ، يكشف لنا منذ اليوم الأخير للسنة الثالثة والعشرين - أن (محاولة الجهد والطاقة) قد تؤخذ على أنها عدم اتباع للسنة ولعمل أبي بكر وعمر ، أو أنها ديب من الدروب غير المألوفة . مع أن فقه أبي بكر كان فيه من الاجتهاد مايز فقه عمر . وعمر في كل ضروبه هو المحتهد الأكبر .

* * *

كانت الخلافة عبثاً يهظ كاهل الشيخ وهو يعبر الثمانين إلى التسعين على قول ، ومع ذلك ظل في ولايته سنين وهو أحب الناس وأنجحهم . . واستحبت أنفس الناس أن تستريح . واستحب آخرون أن ينعموا بما أفاءت عليهم الفتوح . واشربت رعوس كانت تزدان بالزهادة أيام عمر الذى كان يقول : « إني واقف لقريش بشعاب الحرة فأخذ بحُجُزها فحائل بينها وبين الفتنة » . لكن عثمان أذن للصحابه أن يبرحوا المدينة إلى الأقاليم واتصل بعضهم بالهند . وبالناس . واستبدل بعضهم الأموال واتجروا .

وكان اليسر والسعاء والحياء عظم طباعه . وخلقه هو الذى أنجحه يوم الحديبية . ومن أجله كانت بيعة الرضوان يوم ذاك . وفي هجرته للعجبة ومعه زوجته رقية بنت الرسول يقول عليه السلام : « إنهما لأول من هاجر إلى الله بعد إبراهيم ولوط » وهو قد هاجر إلى المدينة بعد . فله هجرتان . وتزوج من أم كلثوم بنت النبي . زوجته الأخرى - فهو لهذا « ذو النورين » . وفي زواجه من بنت الرسول قال عليه السلام : « لو كنّ عشرًا لزوجتهن عثمان » وهو قد شهد المشاهد كلها مع النبي إلا أن يمنعه سبب قاهر .

وهو أكثر المسلمين عطاء في سبيل الله . اشترى بئر رومة يوم قال الرسول من يشتري بئر رومة^(١) . . . وله بها شرف في الجنة - وكانت لليهودى يبيع ماءها

(١) تقع شمال غربى المدينة عند حرة الوبرة . والمدينة بين حرتين - غربية وهى حرة الوبرة وشرقية وهى حرة واقم . وسيحى ذكرها بعد . والحرة الحجارة السوداء .

للمسلمين - فساوم عثمان اليهودي فأبى أن يبيعها كلها فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم وجعلها للمسلمين . فأصبح له يوم ولليهودي يوم . وراح - المسلمون يستسقون كفايتهم في يوم عثمان . وكسدت سوق اليهودي . فخرج عن نصفه الباقي لعثمان بثمانية آلاف .

وذات يوم قال النبي من يزيد في مسجدنا ؟ فاشترى عثمان موضع خمس سوارى فزاده في المسجد . وقال النبي من جهز جيش العسرة فله الجنة . وجهزه عثمان بتسعمائة وخمسين بعيراً أكملها ألفاً بخمسين فرساً . بل دفع ألف دينار فوق ذلك فقال عليه السلام : ماضر عثمان ما فعل بعد ذلك .

ووسع قواد عثمان رقعة الإسلام . في أفريقية وفي روسيا ففتحت أرمينية . وقتل يزدجرد ملك الفرس في وسط آسيا . ووقعت غارة على الأندلس في أقصى الجنوب الغربي من أوربا . ودخلت سفائن الإسلام أقصى جنوبها الشرق في مضيق القسطنطينية . واحتلت قبرص . ووقعت معركة ذات الصواري لتجعل البحر الأبيض بخيرة إسلامية . . .

ويزيد عثمان فضلاً عند الله والناس ما صنعه بكتاب الله بعد غزوة أرمينية سنة ٣٠ على نحو ما صنع أبو بكر وعمر بعد « اليمامة » .

قدم حذيفة بن اليمان وكان يغازي أهل الشام وأهل العراق في فتح أرمينية وأذربيجان فأفرغه اختلافهم في القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل إلى أم المؤمنين فأرسلت المصحف التي جمع فيها القرآن أيام أبي بكر . فنسخت في مصاحف . وبعث إلى كل أقرع بمصحف وأمر بما سواه أن يحرق . فالمسلمون الذين يحفظون ويقرءون المصحف العثماني منذ ذاك . وفي كل ساعة من ساعات الحياة . يذكرون عثمان .

لكن عثمان له أهل . هم بنو أمية . وقد طالما كادوا للإسلام قبل فتح مكة . وإن كان الإسلام يجب ما قبله . ومن أقرباء عثمان من كاد للبي وكذب عليه أو ارتد عن الإسلام . وكان عثمان شيخاً كبيراً - يستعين بمن يعرفهم . وكان مسباحاً ، وهاباً . فطمع أصحاب المطامع . ومن تمة أطلق القول فيه نافذره .

من حق عثمان أن يواجه التاريخ واللائمين بأنه لم يرشح نفسه وإنما رشحه
الفاروق . وإن أصحاب الشورى اختاروه . وإن المسلمين بايعوه . وإن تخليه
تقصير عن القيام بواجب المسلمين كما قام صاحباه أبو بكر وعمر .
ومن حقه أن يقول إنه اجتهد جهده . وإنه لم يرد إلا الإصلاح ما استطاع .
وإن منفعة شخصية لذاته ليست في احسيان .

ولقد كان يطعم الحل والزيت ويلبس ثوباً بخمسة دراهم . يتجافى جنبه
عن المضاجع . وكان يصلي العشاء فيوتر بركعة يقرأ فيها القرآن .
ولقد بقي الصحابة يطيعونه حتى آخر أيامه فدلوا على إيمانهم به واستحقاقه
طاعتهم . وفي طليعهم علي وعمار وابن مسعود وأبو ذر وإن اعترضوا على
بعض تصرفه .

وهم أثبات على أن عثمان كان وما يزال وجيهاً عند الله والناس كمثل علي
ابن أبي طالب وعمر وأبي بكر .
ويمكن تصوير النقد لعثمان في جملته بأنه محاولة لمؤاخذته عن عدم اتباع
سنة سابقيه في طريقة الحكم . بل إن من النقد ما يوجه إليه في الفقه .

* * *

وأول ما نستبعده من نقد التقدة هو الفقه . ذلك أن من الخطأ العلمي
مؤاخذته لأنه أتم الصلاة بمنى حيث كان النبي يقصرها للسفر . فالإتمام أصل .
ولقد خطب عثمان الناس فأعلن أنه أراد أن يعلم البعض ووافقه الصحابة في
اعتذاره . وضربه بعض فقهاء أهل السنة مثلاً على سد الذريعة . وتعليم الناس
الرخصة بالقصر لا يجعل تعليمهم الكمال خطيئة .

لكن هذا النقد يظهرنا على منحى اللائمين بعدم « الاتباع » لأنه لم يقصر
الصلاة كما قصرها النبي بمنى . وفي شبهة الإقامة بمكة — مخالفة للاتباع كذلك .
إذ الإقامة بمكة هي التي تمنع قصر الصلاة ، في حين أن مقر الخلافة هو
المدينة . . ولا سوى المدينة .

ولقد رفض عثمان أن يتحول إلى مكة في أثناء الفتنة أو إلى الشام نجاة بنفسه .

وآثر الموت بالمدينة على النجاة بعيداً عنها .

أما عن استعمال العمال من أقربائه . فلمعاوية بينهم وضع فريد . أن كان عمر هو الذى استعمله بعد موت أخيه يزيد . ثم ضم إليه عثمان فلسطين وحمص . ومعاوية نابغة حكم وسياسة .

وأما عن استعمال الآخرين فيذهب البعض إلى أنه ليس لازماً عليه أن يقلد السابقين . في حين يذهب ناقدوه إلى أن النبي وأبا بكر وعمر لم يستعملوا أقرباءهم بل استعمل النبي على مكة عتاب بن أسيد . وقد أسلم يوم فتحها . وكان في العشرين . وهو من بنى أمية . أباً وأماً . وهم ألد الخصوم . والرد على ذلك بسيط : هو أن الزمان تغير ومن التغير كان عثمان يقول : أين لنا بمثل عمر ؟ وأعطى عثمان ولاته منحاً ... وقيل إنه لما نوقش في ذلك قال : « إن أبا بكر وعمر كانا يظلمان أنفسهما وقربائهما تقرباً إلى الله . وأنا أصل رحمى تقرباً إلى الله » . والحق أن عثمان كان محبباً إلى قومه بل إن الشعبي ليروى : (وإن كانت المرأة من العرب لترقص صبيتها وهي تقول : أحبك والرحمن حب قريش عثمان) . والذين عرفوا سخاءه وحياءه وأن ماله كان كله لله وللناس يدركون بيقين أنه كان يتقرب بالإتفاق إلى الله .

ولقد كان النبي يلتقى أصحابه متفضلاً غير متكلف فإذا أذن لعثمان احتشم وقال : كيف لا نستحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ ويقول إنه إن لم يفعل استحيا عثمان أن يثبت بين يديه ويبلغه حاجته ويأخذ حظه من التحدث إليه . ادُّعى عليه ذات يوم فبذل المال وقبل الصلح وقال : إن حلفت ربما يصيبني آفة فيقول الناس إنه حلف كاذباً . في حين حلف عمر يوماً لما ادُّعى عليه ولم يدفع المال خشية أن يقال إنه كان كاذباً في إنكاره ودفع المال فراراً من التمين .

هكذا يجتهد عثمان على غير ما يجتهد عمر . أو هكذا كان بذال أموال . فلا يرى المال يستحق الحصومة ! ! وكانت خطة اليسر خطته لاخطة القوة — ولما قيل له لم لا تكون فينا مثل عمر ؟ قال لا أستطيع أن أكون مثل ائتمان الحكيم .

وبقى دائماً الاستشكال من شائيه وهو عدم اتباع عثمان سيرة سابقيه .

* * *

وفي سنة ٣٤ بعث بعض الصحابة إلى بعض يتشاكون . واجتمعوا إلى عليّ ليعظ عثمان فوعظه .

ورد عثمان : « أما والله لو كنت مكاني ما عفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك . وما جئت منكراً أن وصلت رحماً . . . » .
ووسوس الشيطان لبعض الأمويين فأقبلوا يبحثون لأنفسهم في الفتنة عن مكان .

خطب عثمان مرة فتدخل مروان بن الحكم فزجره قائلاً دعني وأصحابي . . .
وتفاقم الأمر . فاستعان بعلي فأعانه فنجحوا في مواجهة القادمين إليه محتجين .
وأخيراً تجمع الثوار من الكوفة ومصر وحاصروا داره . ثم تسوروها وقتلوه
والقرآن بين يديه يتلوه .

ودخل عليّ دار عثمان يضرب أولاده وأولاد الصحابة الذين كانوا يحرسون
عثمان فقال له محمد بن طلحة : يا أبا الحسن لا تشتم ولا تضرب ، لو أن عثمان
سلم الثوار مروان ما قتلوه .

قتل يوم أربعاء ودفن بليل يوم السبت !
وإداراً في التهمة القتلة . وأمسي بنو أمية وأصبحوا . فزعموا أن لهم في القتل
قضية ! !

قال أبو هريرة : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت جئت لأنصرك وقد
طاب الضرب يا أمير المؤمنين فقال : يا أبا هريرة — أيسرك أن تقتل الناس
جميعاً وأنا منهم؟ قلت : لا ؛ قال : فإنك إن قتلت واحداً فكأنما قتلت الناس
جميعاً فانصرف مأذوناً لك . مأجوراً غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل .

هكذا أثر ذو النورين عثمان . أن يموت غير مدافع عن نفسه حتى لا تراق
من أجله دماء المسلمين . وأقبل على لقاء ربه وكأنه يجود بروحه في إحدى
الغزوات .

وكان مقتله بداية انقسام الأمة ونهاية اجتماعها الذى بوأها مكانتها العظمى .
 وكان حقاً أن يعتنق جمهور المسلمين قضية عثمان . فهو لا يقتل في تصرفات
 حسبت على بعض الولاة . وهو قد بذل قصاراه . ولما توقف أهل السنة في الحكم
 في خلافات هذه الفترة كانوا آية في الحكمة . فعثمان مثل أعلى للمسلمين في
 الدين . والحكم لله على نجاحه وإخفاقه في سياسة الناس . وأما الحكم على شخصه
 ودينه فقد أصدره صاحب الشريعة مرتين عندما بشره بالجنة وعندما قال :
 ما ضر عثمان ما فعل بعد ذلك .
 وهكذا يظهر لنا من قبل تولية عثمان — وطيلة حكمه — كيف كان الاتباع
 قطب الرحي في ضمير الأمة .

* * *

بايعت المدينة علياً ثم بايعته الأمصار إلا أهل الشام حيث معاوية . ولم يلبث
 الزبير وطلحة أن خرجا إلى العراق وصحبا عائشة رضى الله عنهم ليتجهزوا لحرب
 على فانهزموا في واقعة الجمل . وأقبل على يسأل : « كيف أنت يا أمّّه ؟ » قالت
 بخير . قال . يغفر الله لك . قالت : ولك .

وسيرها معرزة مكرمة إلى المدينة .

أما معاوية فراح يطالب علياً بدم عثمان كأنما قتله ! وطالبه بأن يسلمه
 القتلة وكأن معاوية هو الخليفة ! !

وفعلت أفاعيلها فكرة الدولة التي حان قطافها . وتلاقى الجيشان في صفين .
 وجاش الموت إلى جند الشام يشير إلى بشريات الهزيمة . فرفع معاوية المصاحف
 محكماً كتاب الله . . .

ومالت إلى التحكيم أفئدة قواد عليّ فقبله . فخرج الخوارج عليه لقبوله
 التحكيم فيما هو حقه يقولون : « لا حكم إلا لله » ويخطب على فيقول : « كلمة
 عادلة يراد بها جور — إنما يقولون لا إمارة ولا بد من إمارة برة أو فاجرة » ونازحهم
 بالنهروان فهزمهم .

وتقطع المسلمون أمرهم بينهم حتى في البيت الواحد . . شهد عدى بن حاتم الطائي الحرب مع علي ففقت عينه . وقتل معه ابنه - أما ابنه الآخر فقتل مع خصوم علي .

وقضى بطل الإسلام بقية عمره يعي جيوشه للوقعة الفيضلة حتى اغتاله خارجي من الخوارج في سنة ٤٠ وكانت تركته سبعمائة درهم .

* * *

قبل الجمهور خلافة معاوية . واعتزل جماعة من الصحابة الفريقين من مبدأ الأمر مثل عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص وفيه يقول النبي : « هذا خالي . فليأت كل رجل بخاله » . وأمسي بطل القادسية يقول : لا أقاتل حتى يأتوني بسيف يعقل ويبصر ويقول : أصاب هذا وأخطأ ذاك .

وأمسي موقف سعد وعبد الله علامة على الطريق . بل إن علياً يقول فيه للمسلمين : « لله منزل نزل سعد بن مالك وعبد الله بن عمر . والله إن كان ذنباً إنه لصغير مغفور ولئن كان حسناً إنه لعظيم مشكور » .

وليس عجباً أن يقف معاوية مروان بن الحكم في جوار ابن عمهما عثمان فإنما هي إرادة الله أجاءتهما إلى معترك الحوادث ليبنى معاوية للإسلام دولة عظيمة حقاً ، يبايعه عليها جمهور المسلمين . ويلى مروان المدينة لمعاوية مدة تندو فيها شجرته . فتحمل التبعة الكبرى لنشر الإسلام حتى حدود الصين في آسيا وحتى شواطئ الأطلسي بأفريقية وأوربا . وتأخذ نصيبها من المدينة فيقدم عبد العزيز بن مروان للإسلام من زوجه « أم عاصم » بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب ، عمر بن عبد العزيز . ويثبت التاريخ به فتحاً من فتوح بني مروان : أن الإصلاح لا يفوت أوانه مهما تراخى زمانه . وأن أشهراً معلودات من تطبيق أحكام الإسلام كفيلة بكبح فساد تخب فيه البشرية وتضع طيلة ستين عاماً .

وهما معنيان مكملان للمبدأين اللذين بدأهما عمر بن الخطاب حين بين بحكمه اقتدار البشر في سنوات عشر أن يعملوا بالرسالة كما نزلت . وأنهم إذا

عملوا بها كما نزلت . كتب لهم النصر . بفتوح الفكر أو بطولات الحرب أو بهما معاً .

وليس غريباً أن يكون عمر بن عبد العزيز أكبر الأساتذة في دولة بني أمية لمالك بن أنس أو أن يكون مالك أموى الهوى . عثمانى النزعة . وأن يكون من طبائع الأشياء أن يبقى اتباع أئمة المدينة المنورة هو المنهج الأساسى فى الشريعة ، ويبقى تراث المدينة مستقلاً عن الأعاصير والزعازع . لأنه تراث الرسول وسنه التى طبقها . ثم تابعه عليها الصحابة والمسلمون .

وهو منهاج سيقوم عليه . ويقويه . ويبعث به إلى مهاب الرياح الأربع . مالك بن أنس .

وليس عجباً أن تكون الفتنة التى أدت إلى مقتل عثمان وما أعقبها معاتيج العالم الحديد كله . وقيام فرقه ودوله . من الخوارج والشيعة والمتكلمين والمرجئة والمعتزلة . والأمويين والعباسيين والعلويين وغيرها . حتى إذا حاء دور أبناء على كانوا أكثر من سواهم دولا .

بنو أمية

ولى معاوية الشام لعمر . وكان أخوف له من خادبه « يرفاً » كما قال على لعثمان وهو يعظه . لكن معاوية بمواهبه وطموحه كان كالشريك لعثمان . وكان له من طول ولايته — عشرين عاماً — وسيلة لتثبيت ملكه عندما صار خليفة — عشرين عاماً أخرى — وتناهد إلى حزب معاوية كل آمال بنى أمية فى أن يكون الشأن لهم . ولما قتل على دون أن تلوث بدمه يد معاوية أو جيوشه آلت الخلافة إليه ، وكأنها مائدة تهبط من السماء وهداً الميخ . وباخت النار . ولم يبق إلا رماد ذكريات بائسة .

كان جمهور المسلمين يشعرون بمقدار ما استغل معاوية الحوادث . وأن الأمور لم تصر إليه لتفرده فى الصلاح الدينى . أو قرباه من النبى . ولكن كثرة الذين

بايعوه بهرتهم مزاياه العظيمة : من السياسة الحكيمة . والسماحة والصفح ، والحلم
والسخاء ، والبيع والشراء . والبطش عند الضرورة . . . بقدر .

ونشأت منذ العصر الأول نظرية الجمهور في عدم الخوض في نزاع على
وأصحاب الحمل في وقتي صفين . قال الحسن البصري : « تلك دماء
طهر الله منها يدي فلا ألتخ بها لساني » بل قال : « إن من المروءة أن يحفظ
رسول الله في زوجته عائشة وفي الزبير . ابن عمته ، وفي طلحة الذي وقاه بيده »
وعلى هذا المنطق جاز لقائل أن يقول إن الرسول صهر معاوية في أم المؤمنين
أم حبيبة بنت أبي سفيان . وإنه كاتب النبي عليه السلام بل كان هو وزيد
أكثر الكتاب كتابة له . فمن المروءة أن يحفظ معاوية - ومعاوية لم يبلغ مكانه
صاعداً إليه . وإنما جاءه واقعاً عليه كالنسور من ولاية الشام ومن ميادين
الحروب ، وجاءه بمنهاج عظيم يقول فيه : « إني لا أضع سيفي حيث يكفيني
سوطي . ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني . واو أن بيني وبين الناس شعرة ما
انقطعت . كنت إذا شدوها أرخيها وإذا أرخوها شددتها » .

كان نصير (أبو موسى) قائد حرسه فلما خرج لحرب على لم يخرج معه .
فسأله : ما يمنعك ، ولي عندك يد لم تكافئني عليها . قال نصير : لم يمكني أن
أشكر نعمتك بكفري بمن هو أولى منك بشكري . وهو الله عز وجل . قال
معاوية : أستغفر الله ؛ وأعفاه من الحرب وأبقاه على رأس الحرس .

ودخل عليه أبو بردة بن أبي موسى يقول له : إن عتبة الأسدى قال فيك ...
فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تضرب عنقه ؟ لكن معاوية لم يكن كافر الغضب
فقال : أفلا خير من ذلك ؟ . قال أبو بردة : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال
معاوية : نجتمع أنا وأنت . ونرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه . . .

. . .

كان خصومه يشتمونه وأمه وأباه . وإن لهم بأمه وأبيه لعهداً بين أئمة الكفر
في خصومة النبي . وآله ، وفي أيام بدر وأحد وسواها . فخرج معاوية عن عقله
وعدله فطلب إلى ولاته شتم على رضى الله عنه . ولى المغيرة بن شعبه الكوفة سنة ٤١

فدعاه فقال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضيني ... ولست تاركاً إيصاءك بنخلة : لا تتحم عن شتم عليّ وذمه والترحم علي عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم وإطراء شيعة عثمان والاستماع منهم : فأقام المغيرة عاملاً على الكوفة سبع سنين وأشهرًا وهو من أحسن الناس سيرة . غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيه . وإطراء عثمان وذم قنلته !

وكتبت أم سلمة إلى معاوية تقول : إنكم تلعنون الله ورسوله على منابرکم لأنکم تلعنون علياً ومن أحبه . وأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبه . وقصد إلى المدينة سنة ٤١ يحدد مركزه ومراكزها في ضوء منهاجه . قال : أما بعد فإنني ما وليتها بمحبة علمها منكم . ولا مسرة لولايتي . ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضيت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة - أي بكر - وأردتها على عمل عمر - وأردتها على سُنَيَات عثمان - (تصغير سنوات) فأبت عليّ . فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة . فإن لم تجدوني خيركم فإني خيركم ولاية . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له . وإن لم يكن إلا ما يشتني به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي . وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه فإن أتاكم مني خير فاقبلوه . فإن السيل إذا جاء يثرى وإذا قل أغنى . وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .

رمى معاوية المدينة بمروان سنة ٤٢ أو رماه بها . وطالت ولايته عليها . وكان مروان محتفظاً بعلاقة طيبة مع آل علي وآل سفيان منذ أعطاه على الأمان . بعد وقعة الجمل . فأفاد لنفسه وأفاد معاوية . وكانت المدينة تسقى من مياه الآبار والمطر فأمر معاوية مروان فحفر العين المسماة بالعين الزرقاء (قيل لزرقه عين مروان) وأجراها في نفق أرضي من قباء إلى المدينة .

وفي سنة ٥٠ أراد معاوية أن يحرم المدينة منبر النبي فينقله إلى دمشق فيزيل أثراً من الآثار الأساسية لمجدها فإذا بالشمس كسفت . وإذا بالنجوم رثيت .

فأعظم الناس ذلك ، وزلزل معاوية فكره مكانه وكساه وقواه .
ثم عزم على أن يستخلف ابنه فولى وجهه شطر المدينة حيث المنافسون من
أبناء الصحابة الأولين . قال له عبد الله بن الزبير — نخيرك بين ثلاث خصال :
تصنع كما صنع رسول الله . . أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر . قال معاوية
وهو يتداهى : ما صنعوا ؟ قال : . . . قال معاوية : هل عندك غير هذا .
وأخذ البيعة بالرشى والسيوف والدهاء والجلد ، أى بالسياسة . وكان يملك
كل مفاتيحها . ثم مات . فتولى يزيد (٦١ — ٦٤) وخرج عليه الحسين بن علي
من المدينة فقتل في كربلاء يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦١ هو وستة إخوة له
من أولاد علي ، وخمسة من أحفاد فاطمة واثنان من أولاد عبد الله بن جعفر .
وبعث والى المدينة إلى يزيد وفداً من أشرافها . فأكرم الوفد وأجازه . فلما
عادوا إلى المدينة ، طعنوا في دينه . ووثبت المدينة بالأمويين فيها . وكانوا قرابة
ألف رجل تجمعوا في دار مروان فحاصروهم الثوار . ثم أخلوا سبيلهم بعد إذ
أعطوهم موثقاً ألا يدلوا على عورتهم فتوجهوا تلقاء الشام . إلا عائشة بنت عثمان
ابن عفان زوج مروان . توجهت إلى الطائف في حماية علي بن الحسين
(زين العابدين) . الابن الذي نجا لمرضه في مجزرة كربلاء . وأنفذ يزيد جيشاً
يؤدب الحجاز .

وتلاقى الأمويون المشرحون والجيش عند وادى القرى سنة ٦٣ فدعا القائد
عمرو بن عثمان بن عفان من بينهم ليشير عليه . فقال : إنه أعطى موثقاً .
فلم يمنع القائد من ضرب عنقه إلا أنه ابن عثمان .
ودخل عليه عبد الملك بن مروان ، فدله على خطط أهل المدينة فعسكر
الجيش في الحرة^(١) . في اثني عشر ألفاً شمال شرق المدينة . وأمهل أهلها أياماً
ثلاثة ليستسلموا ، فرفضوا . وأمروا عليهم عبد الله بن حنظلة (حنظلة الراهب
الذى غسلته الملائكة يوم أحد) وكان عبد الله قد ولد بعد استشهاد أبيه . فكان

(١) سميت وقعة الحرة لأن الجيش عسكر عند حرة واقم الواقعة شرق المدينة وهي إحدى حرتين
تقع بينهما المدينة .

شهيداً ابن شهيد ! بل أباً في هذه المعركة لثمانية من شهدائها !
 وأباح القائد الباطش المدينة ثلاثة أيام لجنوده . فسفكوا وأسفّوا . وأخذوا
 البيعة من أهل المدينة كعبيد . وقتل من الصحابة ثمانون رجلاً فلم يبق بدرى
 بعد ذلك . ومن قريش والأنصار ثمانمائة . ومن الموالى والتابعين وسائر الناس
 عشرة آلاف . وفي رواية ١٣٠٠ من قريش . ١٤٠٠ من الأنصار . ٣٥٠٠
 من الموالى ! . .

وأخذت السماء يزيد بذنوبه . فمات والجيش يحاصر مكة . فانصرف
 الجيش عنها ملوماً مذموماً بعد إذ أحرق الكعبة .

* * *

ورجع بنو أمية الراحلون إلى المدينة ثم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى خرجوا منها
 بعد فتنة ابن الزبير وقد شملت المدينة ومكة والحجاز كله حتى سنة ٧٣ .
 أما مروان بن الحكم فرحل عنها في ربيع سنة ٦٤ إذ مات معاوية بن يزيد
 بعد ثلاثة أشهر من هلاك أبيه ، رافضاً أن يعهد إلى أخيه خالد ، وعقد بنو أمية
 مؤتمراً انتهى إلى بيعة مروان . فتزوج زواج السياسة من أم خالد . وعاش نحو
 عام وطفد الأمر لبنيه . ثم عهد إلى ولديه عبد الملك فعبد العزيز .

وتولى عبد الملك (٦٦ - ٨٦) وولى أخاه عبد العزيز مصر وأفريقية .
 وفي عبد الملك يقول ابن عمر : « إن لمروان ابنأ فقيهاً فأسأله » وأبو الزناد يعده
 بين فقهاء المدينة ، بعد سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن
 ذؤيب (٨٦) .

وفي سنة ٧٢ استرجع المدينة له من ابن الزبير طارق بن عمرو مولى عثمان
 ابن عفان .

ثم قتل الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الله بن الزبير بمكة . وأصبح والياً
 على المدينة ومكة مدة ثلاثة أعوام قبل أن يصير والياً على العراق حتى سنة ٩٥ :
 فلبث بالمدينة ثلاثة أشهر « يتعبث بأهلها ويتعنتهم . . واستخف بأصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونختم على أعناقهم « كما يقول الطبرى ^(١) .
ولم يكن بين الخليفة الفقيه وبين أهل المدينة إلا المشاقة وفي نفسه شعور
بالذنب . مذ دل على عوراتها أيام وقعة الحرة . فولى عليها هشام بن إسماعيل
الخزومي فقسا عليها ، وعلى أهل البيت .
أدخل الأسرى ذات يوم على عبد الملك فأمر بضرب أعناقهم دون سؤالهم :
قال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه . لقد أقست الخلافة قلبك
بعد أن كنت رعوفاً ! قال : كلا ولكن أقساه الضغن بعد الضغن .
ولقد كان يستنكر ضرب جيوش يزيد للكعبة سنة ٦٣ لكن الحجاج ضربها
له في سنة ٧٣ !

وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦) بلغت الدولة الإسلامية أبعد
الحدود — من أسوار الصين شرقاً إلى شواطئ المحيط الهندي جنوباً ، وإلى شواطئ
المحيط الأطلسي في غرب أوربة . فأسس أول مسجد بالأندلس في أوربا يوم
دخل موسى بن نصير الجزيرة الخضراء في رمضان سنة ٩٢ وأسس قتيبة مسجد
قتيبة القائم إلى الآن في بخارى في روسيا الحالية وأرسل القائد العربي إلى
إمبراطور الصين (يوانغ جونغ) يطلب الجزية فبعث إليه جزية رمزية .
وعين الوليد في إمرة المدينة عمر بن عبد العزيز .

وتولى أخوه سليمان سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩ وفي عهده حاصر أخوه مسلمة
القسطنطينية .

وعين على المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وسنرى بعد أثره وأثر
بيته في مالك . وبيته من أعظم بيوت الأنصار ، يقول المستشرق (فلهوزن) : إن

(١) انتصر الحجاج في دير الجماجم على ابن الأشعث — إذ خرج على عبد الملك وكان سعيد بن
جبير الفقيه (٩٥) في الأسرى فقال له الحجاج اختر لنفسك أى قتلة نشت . قال سعيد : اختر أذنت
لنفسك فإن القصاص أمامك .

وجاءه رجل كان قد اعتزل الفتنة قال إنه انتظر انتهاء الفتنة ليبيع فقال له : أمتربص ؟ ثم قال :
أشهد أنك كافر ؟ قال الرجل بثس الرجل أنا إن كنت قد عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي
بالمكفر ! فضرب عنقه ! ! !

بلحده ضلعاً كبيراً في الثورة على عثمان، وربما فهم ذلك فلهورن لقول ابن قتيبة: إن الثوار تسوروا دار عثمان من دار بني حزم الأنصارى . فبنو حزم قد يكونون مجرد جيران تسور الثوار دارهم . وإكرام بني أمية لحفدتهم ثبت براءتهم . وكان سليمان يستمع للفقير الكبير رجاء بن حيوة ، الذي أخذ البيعة لعمر ابن عبد العزيز بوصية من سليمان بعد موته . وصرف عمر مسلمة عن حصار القسطنطينية رفقا بالحاربين وإدراكاً منه أن المسلمين كانوا يومذاك أحوج إلى فتح في داخل أنفسهم وفي ممارستهم لدينهم، منهم إلى فتوح في الدنيا . ويمكن تلخيص خمسة عشر عاماً من عمر الدولة الأموية انتهت بموت عمر بما قاله الطبري في تاريخه : « كان إذا التقى الناس في زمانه - الوليد - يسأل الناس بعضهم عن البناء والمصانع . فولى سليمان بن عبد الملك . فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج ، والجوارى . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن وما تصوم من الشهر » .

* * *

وفي العام الذي عزل فيه عمر عن المدينة . ولد بإقليمها طفل هو مالك ابن أنس تملأ سمعه ذكريات الرواة عن إمارة عمر للمدينة . وإمارته للمؤمنين . فراح يرقى مراقى العلماء في مدرسة عمر ، ليموت بعد تطاول العمر . مخلفاً مذهباً يسود آسيا وأفريقية وأوروبا بالأندلس وكانت قد فتحت في العام السابق على ميلاده لتغلق عليه حدودها ، فلا تأذن لغيره أن يجد مكاناً إلى جواره .

سأل السلطان المتناظرين أمامه : من أين أبو حنيفة ؟

قالوا : من الكوفة . قال ومن أين مالك ؟ قالوا من المدينة . قال : عالم دار الهجرة يكفيننا . وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة قائللاً لا أحب أن يكون في عملي مذهبان !

الباب الثاني

تلميذ المدينة

« ما بين عمرى ومبرى »
« روضة من رياض الجنة »

(حديث تريف)

مالك بن أنس غرس من غراس المدينة . تلمذ فيها لأعظم الأساتذة . وإليه انتهى فقه فقهاء السبعة : الذين بارحوا الحياة في جيل سبق . وهم بدورهم تلاميذ للصحابة الفقهاء . نقلوا علمهم إلى شيوخ مالك الذين أدبوه فأحسنوا تأديبه . فتأتى إليه الأمور كلها ، إذ تسلم منهم مفتاح أدب الدين وعلمه . وهو اتباع الأمر الأول . والاتباع ملاك فقه مالك .

والنشأة أو التلمذة . والمعلمون أو المدرسة ، فصلان تاليان .

الفصل الأول

التلميذ

« ما بين قبري ومنبري »

« روضة من رياض الجنة »

(حديث شريف)

نحن الآن في سنة ٩٣ للهجرة .

ومالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر طفل ولد في « ذى المروة » على مبعدة من المدينة ، لأب فقير ، يعول نفسه وأهله من صناعة النبال . أمه العالية بنت شريك الأزدي ، أما جده مالك بن أبي عامر فتابعي يروي عن عمر ، وطلحة : وعائشة : وأبي هريرة ، وعن عثمان ، ويروي الطبري أنه كان يكتب المصاحف أيام عثمان .

ولم تعرف مثوبة بنى أمية له على ما قيل من اشتراكه في دفن عثمان . وإن كان للرجل فضل في العلم ، إذ كان عمر بن عبد العزيز يستشيريه كما ذكر ذلك . مالك الحفيد .

والتاريخ يحفظ من المعروفين في العصر أسماء آخرين شجعوا فتولوا دفن عثمان . حكيم بن حزام (ابن أخ أم المؤمنين خديجة) وجبير بن مطعم وأبا الجهم بن حذيفة . ونيار بن مكرم . وفي بعض الروايات ابن الزبير وابن أبي بكر والمسور ابن مخرمة .

وكان جد مالك شاباً أيامئذ — في حين كان بعضهم — حكيم — قد تخطى المائة . إذ مات في سنة ٥٤ عن مائة وعشرين عاماً .

وورث الحفيد من موارث الجدود أجلّ ما تورثه الأصول للفروع من استعداد للعقل والبدن . الميل إلى العلم ، وامتداد الأجل . وامتزجت الموارث ،

فقضى الحفيد في العلم حياة طويلة حقاً حاولت أن تناهز التسعين ، كما استطالت حياة جده من بعد دفن عثمان سنة ٣٥ حتى سنة ١١٢ .

وكان أبو سهيل — عم مالك — واحداً من بنين أربعة يروون العلم عن أبيهم . ويروي مالك عن أبي سهيل في الموطأ . فأحياناً يروي أن أباه أخبره عنه وأحياناً يقول أخبرني عمي . وعمه على كل حال شيخ من شيوخ ابن شهاب الزهري أستاذ مالك ، فنحن اليوم بإزاء فتى يتلقى العلم كابراً عن كابر .

يقول عمه عن مقدمهم إلى المدينة : نحن قوم من ذى أصبح . قدم جدنا المدينة فتزوج في التيميّين فكان معهم . ونسب إليهم .

والمشهور أن مالكاً بن أبي عامر جاء من اليمن . وقيل إن أبا عامر هو الذي قدم يشكو الوالى فلقى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فصار بينهما حلف أو ولاء . وعبد الرحمن هو ابن أخى طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وبنو تيم قبيلة الصديق أبي بكر .

ذلك نسبه في الإسلام ، أسرة عربية من اليمن — تنسب إلى أسرة عربية كبيرة في المدينة .

أما نسبه في الجاهلية . فهو « مالك بن . . . الأصبحي » نسبة إلى « ذى أصبح » ويقال إن أصحاب هذه التسمية كانوا من ملوك اليمن .

وانتقل مالك إلى الوادى المبارك في « العقيق » على مشارف المدينة ^(١) يعيش من عمله مع أخيه النضر ، فكان يسمى في صباه « مالكاً أخا النضر » لأن النضر كان يطلب الرزق في تجارة البز . وتعلم مالك من النضر أن يعيش من التجارة . فصار في حدائته بزازاً ، ثم ترك التجارة إلى العلم ، وإن بقي يرتزق من مراحمة يسيرة لا تزيد على أربعمائة دينار ، كان منها قوام عيشه .

* * *

(١) يمتد وادى العقيق شمال غربى المدينة — عن ابن عباس : سمعت عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى العقيق يقول : « أتانى الليلة آت من ربى فقال : صل فى هذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حجة » .

وجهت مالكا أمه إلى العلم إذ وجدته تواقاً إلى الغناء ، وكان مسلاة السروات في المدينة وملهاة البلاط في دمشق ، فبعثت به إلى حلقة ربيعة بن أبي عبد الرحمن . فروخ (١٣٦) الفارسي الأصل . وكان مولى للتميميين ولأسرة مالك ولأولادهم . قالت له أمه : تعلم من أدبه قبل علمه .

وظاهر أن ذلك كان في بواكير الحداثة ، فلقد رآه الناس في حلقة ربيعة وفي أذنه شنف لا يبقيه في أذنه الصبي .

وكان ربيعة إذا رآه مقبلاً يقول جاء العاقل . ولقد سمي فقهاء العصر ربيعة ربيعة الرأي لاجتهاده بالرأي ، فأخذ عنه مالك هذا الاتجاه من بدء حياته . وكانت حلقة ربيعة تضم جماعات من المتفقيين ، ومن ذوي الشأن ، مثل أمير المدينة ، وشيخ بني هاشم ، الحسن بن زيد بن الحسن بن علي (١٦٨) والد السيدة نفيسة .

واشتهر أن ربيعة أكبر أساتذته ، وإن لم يقل تأثيره بغيره من الأساتذة عن تأثيره بربيعة . ولعل السبب في ذلك منحاهما في إبداء الرأي أو أن حلقة ربيعة كانت آخر الخلق . في عهد التلمذة . يوم عقد لنفسه حلقة من قبل أن يبلغ العشرين .

ولم يكف مالك عن إطراء أساتذه شكلاً وموضوعاً فيقول عن ملبسه : « ما أدركت أحداً يلبس هذه الثياب الرقاق وإنما كانوا يلبسون الصفاق . إلا ربيعة فإنه كان يلبس مثل هذا » ويشير إلى قميصه . فهو قد بدأ بأن تلقى عليه أناقة اللباس . وكان مالك جميلاً ، فصار إلى جماله أنيقاً . أما في موضوع فقهه فيقول بعد إذ مات ربيعة « ذهب حلاوة الفقه منذ مات ربيعة » ولا فقه إلا برأى ولا حلاوة إلا باجتهاد .

وكان ربيعة صاحب معضلات أهل المدينة في الفتيا — يكثر الكلام ويقول : الساكت بين النائم والأخرس .

ولما أحاط أبو حمزة الخارجي بالمدينة أوفده الوالي سفيراً بين سفرائه إلى

أبي حمزة ، وكان في السفراء علياً أهل البيت وأهل المدينة لكن الكلمة في الوفد كانت لربيعة ، حيث قدمه ليقولها عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي .

قال سوار بن عبد الله (١٥٧) ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة ، قيل ولا الحسن البصري ؟ قال : ولا الحسن ولا ابن سيرين . وقال فيه القاسم بن محمد بن أبي بكر : « لو تمنيت أحداً تلده أمي لتمنيت ربيعة » .

وما كان بالمدينة رجل أسخى بما في يديه لصديق أو غيره من ربيعة . لقد أنفق على إخوانه أربعين ألف درهم .

تلقى مالك على شيخه الكثير ، وهو في حلقة أو بعد إذ صارت لمالك حلقة ، مثل سوء رأيه في العراقيين ، ومثل الانتصار للعلم في مواجهة الخليفة منذ دعا السفاح ربيعة ليوليه القضاء في العراق . وكانت الدولة الجديدة بحاجة إلى علوم المدينة . فلي ربيعة قائلاً لمالك : « إن سمعت أني خدمتهم شيئاً أو أفيتهم فلا تعدني شيئاً » . وكان من الزهاد . ذهب حقاً وعاد . رافضاً ولاية القضاء وجائزة أجزائها قيمتها خمسة آلاف ! . . . وعاد يقول عن العراقيين : « رأيت قوماً حلالنا حرامهم وحرامنا حلالهم . وتركت بها أكثر من أربعين ألفاً يكيدون هذا الدين » ويروى أنه أضاف : « كأن النبي الذي بعث إلينا غير النبي الذي بعث إليهم » .

كان هناك المعتزلة وغلاة المرجئة والشيعة والخواارج والمتكلمون . فهؤلاء هم الذين عناهم ، وكان ثمة القياسون من فقهاء العراق الذين جارتهم مدرسة أبي حنيفة . وكان أبو حنيفة نفسه هنالك يتوسط حلقة عظيمة تعمل عملها العظيم في الاجتهاد وإبداء الرأي . وربيعة نفسه صاحب رأى منذ الصبا . ناقش أيامذاك سعيد ابن المسيب في مسألة مجادلاً بالقياس . وجادله سعيد بالسنة .

فأم مالك توجه فتاها إلى أدبه والمدينة المنورة توجه الأنظار إلى رأيه . . . ولم لا يكون علماً على الرأي والأدب . وهو مولى بني تيم رهط أبي بكر . وهم ، رجالاً ونساء . قمة قریش في الذوق والأدب . وقریش قمة العرب .

أما أستاذ مالك الثاني من موالى بني تيم فهو نافع بن عبد الرحمن بن

أبي نعيم (١٦٩) قارئ المدينة الكبير . وإمامها في دهره . ونافع قد قرأ على شيبه بن نصاح من موالى أم سلمة أم المؤمنين .
ومن مواليتهم كذلك علقمة بن أبي علقمة بلال . وكان له مكتب بالمدينة يعلم النحو والعروض في المدينة وهو مولى أم المؤمنين عائشة . مات في أول خلافة المنصور .

وأما ذروة معلميه من بنى تيم أنفسهم . فمحمد بن المنكدر (١٣٠) زعيم الفقهاء علماً ونبلاً ومالك يروى عنه في الموطأ . وهو حبة من حبات ذلك العقد النظيم من أهل العلم في بنى تيم ، يتصدر أخوين من فقهاء العصر : هما أبو بكر وعمر . والأسماء الثلاثة للإخوة الثلاثة أسماء الرسول وصاحبيه ، وكأنها تعلن شعار الاتباع كلما جادت السماء برجل على بنى تيم .

وكان لهم أيضاً موال فقهاء متصدرون كيعقوب الماجشون ، وابنه ، وإلى يعقوب بن أبي سلمة ينسب ولده وبنو عمه فيقال بنو الماجشون^(١) . وكان فقيهاً وابنه يوسف وأخوه عبد الله وابنه عبد العزيز بن عبد الله (١٦٤) ويكنى أبا عبد الله كانوا كلهم فقهاء .

وسرى عبد العزيز بن عبد الله من ضرباء مالك . أما ابنه عبد الملك (٢١٢) فسوف نراه تلميذاً في حلقة مالك .

كان محمد بن المنكدر من معادن الصدق التي تزدان بها مشيخة العلم بالمدينة ، وكان سيداً في القراء ، عابداً زاهداً ، يعد في طبقات الزهاد والعباد قال : « كابدت نفسي في ذلك أربعين سنة حتى استقامت » . لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا بكى . يقول مالك : « كنت إذا وجدت من نفسي قسوة آتى ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسي أياماً » . فهو شارك في تعليم مالك العلم وأشياء من خصائص بنى تيم ؛ لعل أبرزها كان تهذيب تلميذه على هدى من سبقه من الأئمة من أهله الذين أفنوا أنفسهم ليحيا الناس وفي طليعتهم أبو بكر الصديق .

(١) كلمة فارسية معناها أبيض الخد .

وكان الناس يسألون ابن المنكدر : أى الأعمال أفضل فيقول إدخال السرور على المؤمن . . ويسألونه : أى الدنيا أحب إليك فيقول : الإفضال على الإخوان .
 وثمة علماء آخرون من بنى تيم - من أنفسهم . كالقاسم بن محمد بن أبى بكر الذى يسميه عمر بن عبد العزيز أعيمش بنى تيم . أو أمهاتهم منهم .
 كعبد الله بن الزبير وعروة . أمهما أسماء أخت محمد بن أبى بكر نقلوا علم المدينة كله إلى ناقله : لمالك .

والصديق أبو بكر يقف كواسطة العقد فى قمة التاريخ العلمى لمصادر مالك العلمية ، باتباعه واجتهاده الرأى . وبأبنائه وبنى تيم أنفسهم أو مواليهم .

* * *

أما القمة الأخرى . قمة عمر بن الخطاب فستنتهى إلى مالك بطريق قاصد .
 وفقهه رفيع المقام فى تاريخ الرواية عن الرسول عليه السلام هو نافع مولى عبد الله ابن عمر . فيسلكه نافع فى سلسلة الذهب . إذ يروى الشافعى (عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر) .

خدم نافع لعبد الله بن عمر ثلاثين عاماً . ومات سنة ١١٧ وكان يروى عنه وعن عائشة ، وأم سلمة وأبى هريرة ، وأرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم المصريين السنن .

وكان يمتنع عن الفتيا فى حياة سالم بن عبد الله بن عمر ، وكان عبد الله ابن عمر أشبه أولاد عمر بعمر . أو كما يروى زيد بن أسلم عن أبيه : ما ناقة أضلت فصيلها فى فلاة من الأرض بأطلب لأثرها من ابن عمر لعمر بن الخطاب .
 لزم مالك نافعاً يستخرج ما عنده . يترصد دخوله وخروجه ليسأله . وأحبه نافع فكان يقعه معه ويحدثه .

ويتحایل مالك لينفرد بنافع . فيقوده إذ كف بصره إلى منزله بالبقيع بعيداً عن المدينة ، ليستفيد من بعد الشقة . والوحدة . ولهذا روى عنه ثمانين حديثاً فى الموطأ .

وكان من وسائله للانفراد بالأساتذة أن يجعل في كفه ثمرات يناولها صبيان ابن هرمز ليقولوا إذا سئلوا عن الشيخ إنه مشغول فيخلو له وجهه .
 ويتراءى ابن هرمز ، عبد الله بن يزيد ، مدة أطول في حياة مالك .
 إذ انقطع إليه سنوات في أول الحياة ثم صار يعاود مجلسه حتى مات الشيخ في سنة ١٤٨ — قال ابن هرمز يوماً لجاريته من الباب ؟ فذكرت له مالكاً قال : ادعيه فإنه عالم الناس ... وكان عالم الناس قد اتخذ تبناً محشواً يتقى به برد حجر يجلس عليه بالباب . يحىء مبكراً فما يخرج من بيته حتى الليل ، ويأمر ابن هرمز الجارية فتغلق الباب وترخي الستر . ويكلمه ابن هرمز في الدين والعلم والسير ويبكى حتى تخضل لحيته — ولسوف يخرج ابن هرمز مع محمد بن عبد الله النفس الزكية زعيم العلويين سنة ١٤٥ على نبي العباس وظلمهم . ولعل أمر الأمة هو الذي أهمه وكان يبكى له .

أما ابن شهاب الزهري (١٢٤) فكان صديقاً لعبد الملك بن مروان وابنه هشام ، واستقضاه يزيد بن عبد الملك حينما ولي بعد عمر بن عبد العزيز . ثم أدب ولد هشام . فأطال المقام بالشام . وإذا عاد إلى المدينة يقول مالك : « كنا نزدحم على درج سلم بابه » . ولا يعود مالك إلى داره من صلاة العيد بل يقصد إلى دار ابن شهاب يرجو ليحدثه فيحدثه ويقول مالك زدني . فيجيب اللوح من يده ويقول : حدث فيحدثه بالأحاديث التي ألقاها عليه . فيقول له : قم فأنت من أوعية العلم . حدث إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف : قلت لأبي جهم فاقكم الزهري؟ قال كان يأتي المجالس من صدورهما ، ولا يأتيها من خافها ، ولا يبق في المجالس شاباً إلا سأله ولا كهلاً إلا سأله وقال : ما أرى أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع ما جمع الزهري .

وللهزري مقام عظيم في عالم الرواية عن الرسول ، وإنه لخليل الأثر في تنشئة مالك وفي تكوين فكره . فهو يروى عنه في الموطأ اثنين وثلاثين ومائة حديث . منها اثنان وتسعون مسندة والباقي منقطع . ولقد طلب عمر بن عبد العزيز إلى الزهري أن يدون الحديث وربما كان ذلك بداية تدوين الزهري . وكان الزهري

في عصره على رأس المدوين للسنن ، حتى ليقول الشافعي : « لولا الزهري لذهبت السنن من المدينة » وكان حافظاً من الدرجة الأولى ، حفظ القرآن في ثمانين ليلة ، وما استودع ذهنه شيئاً إلا حفظه . وكان يملئ مئات الأحاديث في المجلس الواحد !

ولما مات مالك وجدت عنده صناديق لم يحدث بها . منها أحاديث للزهري . روى صالح بن مسكان (١٣٩) مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز « كنت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم فاجتمعنا على أن نكتب السنن فكتبنا كل شيء سمعنا عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : اكتب ما جاء عن الصحابة فقلت ليس بسنة قال : بل هو سنة . فكتب ولم أكتب - فأنجح وضيعت » .

ومالك يقول : قدم ابن شهاب المدينة فأخذ بيد ربيعة ودخلا الديوان . . . وخرج ابن شهاب وهو يقول : ما ظننت بالمدينة مثل ربيعة . وخرج ربيعة يقول : ما ظننت أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب .

وقال ابن شهاب ذات يوم : قال لي القاسم بن محمد : أراك تهحرص على العلم . أفلا أدلك على وعائه ؟ قلت بلى . قال عليك بنت عبد الرحمن غانما كانت في حجر عائشة . فوجدتها بحراً لا ينزف . . . وعمرة بنت عبد الرحمن خالة أبي بكر بن حزم أحد المصادر الرئيسية لتعليم مالك .

ويظهر أثر ابن شهاب كذلك عند ما نجده يلقي مسألة فيجيب ربيعة ويسكت مالك فيسأله ابن شهاب لم لا تجيب ؟ ويقول مالك : لقد أجاب الأستاذ ، أو نحو ذلك فيقول ابن شهاب ؛ ما تفرق حتى تجيب . فيجيب بخلاف جواب ربيعة . ويقول ابن شهاب : ارجعوا بنا إلى قول مالك .

فمالك كان في صدر شبابه صاحب رأى يخالف فيه ربيعة الرأي . ويرده الأدب الكريم عن معارضته في المجلس .

وكان الزهري عنواناً على السماحة والسخاء . وسيعجب به الشافعي لفرط سخائه ولقوة حفظه . ويزيد مالكا إعجاباً أن يقول فيه عمر بن عبد العزيز : إنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه .

هكذا نرى أستاذة مالك كلهم مثل عظيم في الدين والعلم والخلق وبهذا وبالارتباط المباشر - نضج شخصه وعلمه . فإذا انضاف إليهم إمام كان إذا خطر صرقت الأبصار تلقاءه وإذا حضر رنت إليه الحدق . جعفر الصادق . ظهر لنا مبلغ ما سعاد مالك بأستاذته ، وكان جعفر يمت إلى بني تيم بأمه ، وأمها ، فهذا نسب علمي جديد لمالك إلى بني تيم . فالصادق يقول : ولدني أبو بكر مرتين . وبهذا ينتسب إليه من أكثر من وجه . أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبي بكر . (أعيمش بن تيم) وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر . وجعفر يروي عن محمد بن المنكدر ، وعن خاله عبد الرحمن بن القاسم ، وعن عروة بن الزبير ، وعروة يروي عن عائشة . أما أبوه فالإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن علي فجعفر يحوى كل علوم المدينة وعلوم أهل البيت . وكان بحر علوم في الفقه وفي العلوم الطبيعية معاً . وهو أستاذ جابر بن حيان أول كيميائي في التاريخ ، كما تبايعه أوروبا المعاصرة ، وصاحب الطريقة العلمية العربية التي تلقاها أوروبا وادعتها لنفسها طريقة التجربة والاستخلاص .

وعلى الإمام جعفر تلقى أبو حنيفة . وفيه يقول : « ما رأيت أفقه من جعفر ابن محمد » . وتلقى عليه مالك الفقه وأساليب السلوك . فجعفر قد لزم الحياض عندما خرج محمد بن عبد الله سنة ١٤٥ ولزم مالك الحياض كذلك . وجعفر لم يكن يرى الثورة ، ومالك لم يكن يرى الخروج على الأئمة .

وجعفر رجل وثام تجتمع على فضله كل الأمة بما فيها المنخصمون من الأويين والعباسيين وسواهم ، وكان يعلم الناس بطريقته وتقواه . روي أن أبا مسلم الخراساني - القائد الذي أقام دولة بني العباس - أرسل إلى جعفر يراوضه في أن تكون الدعوة له فقرأ الرسالة ثم حرقها . واكتفى في الرد عليها بأن أمر الرسول أن يبلغ أبا مسلم بما رأى . وسرى مالك بن أنس سلماً لكل رجل ، من الأمويين إلى العباسيين إلى من عداهم .

وجعفر هو الذي يحمل الحياة إذ يجعل في كل نعمة فضيلة زكاة . ويجعل

الفقه ضرورة للدنيا قال : « المعروف زكاة النعم ، والشجاعة زكاة الجاه . والعلل زكاة الأبدان والعفو زكاة الظفر وما أدبت زكاته فهو مأمون السلب » وقال : لا يستغنى أهل بلد عن ثلاثة يفرع إليهم في أمر دنياهم وآخرتهم : فقيه عالم ورع ، وأمير مطاع ، وطبيب ثقة فإن عدوا ذلك كانوا همجاً . وهو ينبه الفقهاء ليقبوا على مكانتهم فيقول : « الفقهاء أمناء الرسل ما لم يأنوا أبواب السلاطين » .

يقول مالك : « كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي عايه الصلاة والسلام اخضر واصفر ، ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال — إما مصلياً وإما صائماً وإما بقرأ القرآن . وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على الطهارة . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله . وما أتته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي » . وكم حاول مالك أن يكون مثله . يتغير لونه ويصفر إذ يذكر النبي فيتساءل جلساؤه فيقول لهم لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم على ملأ منكم . وبذكر لهم حال ابن المنكدر ثم يعقب بحال جعفر . . أخرج له مالك في موطنه تسعة أحاديث ، وقيل إنه أضافها بعد قيام دولة العباسيين إذ سأله لماذا لم يرو عن علي وابن عباس وأنه قال : لم يكونا ببلدى . أي كانا بمكة والكوفة .

ولما عقد لنفسه حلقة كان جعفر يشير على المتفقيين بإتيانها . روى عنوان البصري أنه كان يختلف إلى الإمام جعفر يتعلم عليه ، فغاب الإمام عن المدينة فاختلف إلى مالك سنين ، ثم عاد الصادق فعاد إليه عنوان فنصحه أن يجلس إلى مالك .

* * *

كان مالك سريع الحفظ كثير التدوين يقول عن نفسه : « لقد ذهب حفظ الناس . ما استودعت قلبي قط شيئاً فنسيته » ويقول : « كتبت بيدي مائة ألف حديث » حدثه ابن شهاب أربعين حديثاً ونيفاً منها حديث السقيفة — وهو طويل — فحفظها ثم طلب إلى ابن شهاب أن يعيدها لأنه نسي النيف . فأبى ابن شهاب فأعادها مالك عليه من حفظه كما رواها .

قالوا أخذ مالك العلم عن تسعمائة شيخ فأكثر ، منهم ثلثمائة من التابعين وستائة من تابعي التابعين . وما يرفع الشأن أن يكونوا تسعمائة إذا كانت الأسماء التي ذكرناها قبل ، أسماء البعض من أساتذته — وسرى بعد من كان أساتذة هؤلاء .

وليست الدراسة عظيمة بكثرة عدد المدرسين ، وإنما هي تعظم بعظمتهم . أو ملازمتهم ، والفهم منهم ، وربما تعلم الشافعي على مالك في عشر سنين أو تعلم أبو حنيفة على حماد بن إسماعيل ، وحده ، أضعاف ما تعلمه مالك على مئات ممن لقيهم .

على أن هؤلاء الأساتذة كانوا مرتبطين بمن سبقوهم ارتباطاً لا نستطيع له تجزئة فهم حلقة الوصل الوثقى بين مالك وبين من سبقوهم في مدرسة المدينة العظيمة التي تجمع فقه المئتين منها في سبعة أو عشرة أو بضعة عشر ، مثلهم كلهم أصدق تمثيل ، فلما انتقل علم المدرسة كاملاً إلى مالك . أمسى مالك تلميذاً للمدرسة كلها . لا لأشياخه وحدهم — وإذا رأيناه يروى عن بضع مئات فالمئات أعضاء مدرسة تنقل عن مدرسة . وبهذا آل لمالك كل علم المدينة . وكفته المدرسة العظيمة بترائها الأعظم فلم يرحل إلى سواها . ففيها طلبته من السنن أحاديث وآثاراً . ومن الشيوخ عشرات ومئات . وعلى هذا تشكل منهجه بأشكال المدينة وأشخاصها وعلمهم وعملهم ؛ وأخذ نفسه من فاتحة الحياة بما يأخذ به الفقهاء جميعاً فيها من عمل المدينة وعلمها .

• • •

قالوا جلس مالك للتدريس وهو ابن سبعة عشر عاماً . ولا نستطيع بهذا أن نختم عهده في التلمذة . فالواقع أنه كان يعلم ويتعلم ، وآية اختلافه إلى بعض أساتذته بعد أن عقد لنفسه حلقة . ولا يزيده التبكير بالجلوس مكانة وإنما يزيده الإقبال والإخلاص اللذان كانا ديدنه .

قالوا إن مسألة عرضت في حلقة ربيعة فتكلم فيها فراجعته مالك بقوله ما تقول يا أبا عثمان فقال ربيعة : « أقول . فلا تقول . وأقول إذ لا تقول وأقول فلا تفقه

ما أقول » فانصرف مالك . حتى إذا كان الظهر جلس وحده فلما كان المغرب اجتمع إليه خمسون وأكثر .

وقالوا جلس وهو ابن أكثر من سبع عشرة سنة . لكن مسلماً أنه قد عرفت له الإمامة وبالفقهاء الكبار حياة .

وسرى بعد ، من كتاب الليث بن سعد سبباً فقهياً من أسباب خلاف مالك وربيعة أدى إلى تركه مجلس ربيعة .

على أنه لم يغلق وراء نفسه أبواب ربيعة ، فربيعة كان شيخ مدرسة يبارك خطو تلاميذها ؛ دعا الوالي مالكا إلى مجلسه ، فتأخر حتى سأل ربيعة ، فقال له احضر . قيل له : لو لم يقل لك احضر ، أكنت تحضر؟ قال : كلا . . . ويعاؤ نجم مالك لدى الحكام . فيقال لربيعة : كيف حظى بك مالك وأنت لم تحظ به ؟ ويقول : أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حمل علم ؟

ولا يتوقف النجم عن الصعود ، فليس حظاً ، وإنما هو العلم ، الذي سيجمعه يقول فيما بعد : قل رجل كنت أعلم منه ما مات حتى يجيئني يستفتيني . استفتاه زيد بن أسلم - وقد روى مالك عنه - ورجع إليه . بل اجتمع الناس يسألونه أن يحدسهم عن ربيعة وربيعة حاضر في المسجد . فكان يشير إليهم أن يتوجهوا إلى الشيخ الوقور ربيعة .

وتمضي الأيام فيقول ابن لهيعة في مصر : قدم علينا محمد بن عبد الرحمن فقلت له من للرأى بعد ربيعة في الحجاز فقال الغلام الأصبحي . . . وهي مقولة معبرة عن آمال الفقهاء إذا قيلت في حياة ربيعة أو هي عبارة مباهاة إذا قيلت بعد وفاته فلم يك مالك غلاماً بل كان في الثالثة والأربعين يوم مات ربيعة .

الفصل الثاني

مدرسة المدينة

« والمدينة خير لهم »

« لو كانوا يعلمون »

(حديث شريف)

اكتفينا قبلُ بالحديث عن سبعة من شيوخ مالك ، لقوة تأثيره بهم ، ولأنه لا معدى عن الوقوف عند حد . ولقد تلقى هؤلاء ، وسائر من تلقى عنهم مالك ، عن أشياخ المدينة العظماء وفي طليعتهم الأئمة المعروفون بالفقهاء السبعة أو العشرة أو نحوها إذا انضاف إليهم أبوسلمة بن عبد الرحمن بن عوف أو سالم بن عبد الله وقبيصة بن ذؤيب وإبان بن عثمان .

يضاف إلى هذه الأنجم اللامعة تلميذهم أو زميلهم أبو بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصارى . وقد مات سنة ١٢٠ عن أربعة وثمانين عاماً . ولولديه تأثير ملحوظ في مالك . وكان عندهم الكثير من تراث المدينة ، علماً وعملاً . ومنه كتاب الرسول في الديات إلى جده عمرو بن حزم وقد كان رسول الرسول إلى اليمن . ومالك يرويه في الموطأ . ولهذا نستفتح به الكلام في فقهاء العصر ومحمد والد أبي بكر واحد من شهداء المدينة يوم فجة الحرة . وأما أبو بكر فصار قاضياً لسليمان بن عبد الملك ووالياً لعمر بن عبد العزيز على المدينة .

يروى ابن وهب عن مالك : كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنة والفقه . ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عما مضى ، وأن يعلموه بما عندهم . وكتب إلى أبي بكر بن حزم أن يجمع السنن ويكتب إليه ، وتوفى عمر وقد كتب ابن حزم كتباً ولم يبع بها إليه بعد . وكان على قضاء المدينة ووليها أعياناً . فقال له يوماً قائل : ما أدري كيف أصنع بهذا الاختلاف . قال : إذا

وجدت أهل المدينة مجتمعين على أمر فلا تشك أنه الحق . وسنرى هذه الكلمة التي نقلها مالك منهاجاً يتبعه ويدافع عن اتباعه .

فأما فقهاء المدينة السبعة فسيصبح علمهم بذاته دعامة علوم الإسلام . منهم اثنان من الطبقة الأولى من التابعين . وأولهم سعيد بن المسيب (٩٣) تلميذ زيد بن ثابت وصهر أبي هريرة . وكان يقال (سعيد راوية عمر) ويقال (سعيد بن المسيب الجريء) وهو يلقب بسيد التابعين . ضربه جابر بن الأسود وإلى ابن الزبير على المدينة ستين سوطاً لأنه لم يبايع له . وضربه هشام بن إسماعيل المخزومي وإلى عبد الملك ستين سوطاً لأنه لم يبايع للوليد^(١) .

وسليمان بن يسار (١٠٧) مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث — خالة عبد الله بن عباس . روى عن أم سلمة وابن عباس وأبي هريرة . أما الخمسة الآخرون فيتصدرهم أستاذ عمر بن عبد العزيز عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الذي مات في سنة الفقهاء (٩٤) وكان شاعراً . فهو من هذيل . أبوه عبد الله بن عتبة ، وعتبة أخو عبد الله بن مسعود . لقي عبيد الله كثيرين من الصحابة ، وروى عن ابن عباس وأبي هريرة وعائشة . وأما أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي القرشي (٩٤) فيدعى

(١) لم يبايع للوليد ولا أخيه سليمان بعد موت عبد العزيز بن مروان إذ قال لا أبايع للوليد وعد الملك

حتى .

قال عنه عبد الله بن عمر : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسه . وكان سعيد يقول : لم أنظر إلى قفا رجل في الصلاة من خمسين سنة . للمحافظة على الصف الأول . وقيل إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة . وكان يرى الدنيا نكفي مؤنتها أربعائة دينار — فاتجر في الزيت يعيش من ربحه ولا يمد يده لعتاء الخليفة . وقد اقتنى مالك أتره في المراجعة بأربعائة دينار . وهو مخزومي . من قبيلة أم سلمة أم المؤمنين ، وخالد بن الوليد — أخوال عمر بن الخطاب وهو الذي رفض أن يزوج بنته من الوليد بن عبد الملك حينما خطبها الخليفة لولي عهده وزوجها تلميذاً فقيراً من تلاميذه .

دعى إلى نيف وبلاتين ألفاً يأخذها فقال : لا حاجة لي فيها أو لبني مروان حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم .

وقيل لم يكن أعلم بقضاء رسول الله وصاحبيه من سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار .

راهب قريش أبوه صحابي جليل وأخ لأبي جهل زعيم المشركين . تلقى العلم عن أبي مسعود الأنصاري وأبي هريرة وعائشة وأم سامة .

وخارجة بن زيد بن ثابت (١٠٠) وارت علم أبيه .
والقاسم بن محمد بن أبي بكر (١٠٦) وما كان أعلم بالسنة منه . بلغ بتقواه وصلاحه أن قال عمر بن عبد العزيز فيه : « لو كان لي من الأثر شيء لاستخلفت أعيمش بنى تيم » .

ضمته أم المؤمنين عائشة إليها بعد مقتل أبيه ، بأيدي جند معاوية وعلمته — وكان أبوه ربيب علي ، وكان في معسكره يوم وقعة الجمل ، فلما أعاد علي عائشة إلى المدينة سيرها مخفوفة بكوكبة من النساء في ملابس الرجال ، وسير معها أخاها محمداً احتفالاً بها . وكان من نساك قريش .

وسالم بن عبد الله بن عمر ، (١٠٦) ابن عم أم عاصم أم عمر بن عبد العزيز لكنه كذلك ابن خالة القاسم ، فأماهما وأم زين العابدين بن الحسين من بنات يزدجرد كسرى الفرس . وقد آل إلى سالم علم أبيه .

وعروة بن الزبير (٩٤) ابن أخت عائشة روى عنه ابنه هشام بن عروة أنه أحرق يوم الحرة كتبه فكان يقول : لأن تكون عندي أحب إليّ من أن يكون عندي مثل أولادي ومالي . كان أعلم الناس بحديث عائشة .

وأكثر الناس على أن سالمًا ليس بين الفقهاء السبعة ، وقليل على أن فيهم أبا سلمة بن عبد الرحمن . ولقد نظمهم الشاعر في بيت واحد :

فخذهم : عبيد الله . عروة قاسم سعيد . أبوبكر . سليمان . خارجه

* * *

تعلم علماء المدينة ، مباشرة أو بالواسطة على أمهات المؤمنين وأبي هريرة وابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر . وسائر أركان المدرسة العليا للمدينة . فصيروا النصف الثاني من القرن الأول في المدينة صورة تريد لتقارب الأصل الذي كأنه النصف الأول . باتباع السنة في العلم والعمل . ولم يكتف

الفقيه الأمير « عمر بن عبد العزيز » بالسبعة فأضاف إليهم آخرين واتخذ منهم مجلس الشورى له .

ومن الصحابة جماعة أكثروا الرواية عن الرسول (ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم) كما يقول أبو بكر بن حزم .

وحسبنا من المدرسة العليا في هذا المقام بعض الأسماء :

زيد بن ثابت : كان في الحادية عشرة حينما قدم النبي إلى المدينة . علمه الكتابة أسرى بدر الذين شرطت عليهم الفدية بالمال أو أن يعلم الواحد منهم عشرة من المسلمين . سلمه النبي لواء بني مالك بن النجار يوم تبوك لأنه أكثر أخذاً للقرآن من حاملها عمارة بن حزم . والقرآن مقدم . وكان يكتب الوحي للرسول ، وأمره النبي بتعلم السريانية إذ كانت ترد إليه الكتب بها . وكتب لأبي بكر وعمر واستخلفه عمر مرات على المدينة . وعثمان كذلك . كان أعلم الناس بالفرائض ومن أفكه الناس إذا خلا مع أهله ، وأزمتهم إذا كان في القوم . وكان عثمانياً ينكر الطعن في عثمان ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه . مع أنه يظهر فضل علي ويعظمه . وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر . وجمع المصحف في عهد عثمان . قال قبيصة بن ذؤيب : كان زيد بن ثابت مترسلاً بالمدينة في القضاء والفتوى والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلي في مقامه بالمدينة وبعد ذلك خمس سنين حتى ولي معاوية سنة ٤٠ فكان كذلك أيضاً حتى توفي سنة ٤٥ . وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء .

وكان إذا سأله رجل عن شيء قال : آله كان هذا ؟ فإن قال نعم أفتى - وإلا سكت . وستؤول هذه الطريقة إلى مدرسة المدينة بعد .

عبد الله بن عمر : (٧٣) أسلم مع أبيه وهو لم يبلغ الحلم - وشهد مؤتة مع جعفر بن أبي طالب وشهد اليرموك وفتح مصر وأفريقية . كان كثير التعهد لأثار الرسول ينزل منازل . يصلي في كل مكان صلى فيه . نزل عليه الصلاة والسلام تحت شجرة فصار ابن عمر يتعهدا حتى لا تيبس . وفيه تقول أم المؤمنين عائشة : ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من عبد الله بن عمر .

وقال مولاه نافع : « لو رأيت ابن عمر يتبع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم لقلت إن هذا لمجنون » .

وكان كثير الاحتياط لدينه ، حتى ترك المنازعة في الخلافة ولم يقاتل في شيء من الفتن . ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه إذ أشكلت عليه .

قال جابر بن عبد الله : ما منا إلا من مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمر وابنه . والزهرى يقول : لا يعدل برأى ابن عمر فإنه قام بعد رسول الله ستين سنة تقدم عليه وفود الناس .

وكان ربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً وإذا اشتد عجبه بشيء من ماله تقرب به إلى الله تعالى . فكان رقيقه يلزمون المسجد يصلون فإذا رأهم على هذه الحال الحسنة أعتقهم . فقال له قائل : يخذعونك . قال : من خدعنا بالله انخدعنا له .

وكان يقول : « البر شيء هين . وجه طلق وكلام لين » . وروى عنه كبار الصحابة وكبار التابعين وأكثرهم رواية عنه ابنه سالم ومولاه نافع أستاذ مالك بن أنس .

وقال عروة : « سئل ابن عمر عن شيء فقال لا أعلم لي به . فلما أدبر السائل قال عبد الله بن عمر : سئل ابن عمر عما لا أعلم له به فقال لا أعلم لي به . وسيكون ذلك منهاج مالك .

قال له عثمان : اذهب فاقض بين الناس قال : أو تعافيني يا أمير المؤمنين ؟ قال وما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقضى ؟ قال إن أبي كان يقضى فإن أشكل عليه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل وأنا لا أجد من أسأله .

أبو هريرة : قدم على النبي مهاجراً سنة سبع للهجرة . ولازمه حتى لحق بربه ، روى فأكثر الرواية عن النبي . وأكثر التابعون الرواية عنه . ومنهم سعيد ابن المسيب صهره — توفي سنة ٥٨ .

عبد الله بن مسعود : كان من أحفظ الصحابة للقرآن وأشدّهم إظهاراً له يقول فيه أبو موسى الأشعري : « كنا حيناً ما نرى ابن مسعود وأنه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثرة دخولهما ولزومهما له » . وكان في السفر صاحب فراش النبي ووضوئه . هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد المشاهد كلها مع النبي . وهو الذي احتز رأس أبي جهل يوم بدر . خرج غازياً إلى الشام ونقله عمر إلى الكوفة .

وكان صاحب بيت المال في الكوفة لما وليها الوليد بن عقبة بن معيط لعمان . وكان عقبة صاحب غنم يرعاها له عبد الله في الجاهلية . فاستقرض الوليد بن عقبة من بيت المال فأقرضه عبد الله — وكان هذا جائزاً — فلما حل الأجل ، التوى الوليد . فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال وأقام في داره يعظ الناس ويفقههم .

وازدادت معارضته لعمان عندما كلف عثمان زيد بن ثابت فجمع المصحف وأمر عثمان بحرق المصاحف الأخرى فرفض ابن مسعود حرق مصحفه . والرسول يقول : « خذوا القرآن من أربعة : عبد الله ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ ، وأبي بن كعب » ورجع إلى المدينة وأقام عامين أو ثلاثة معارضاً حتى مات سنة ٣٢ وقيل اعتذر له عثمان قبل أن يموت .

وفي الكوفة أهل ابن مسعود ومنها انتشر علمه عن طريق مدرسة الاجتهاد التي تألفت في يدى أبي حنيفة .

عائشة أم المؤمنين : فارقت بيت أبيها إلى بيت النبي في نحو العاشرة فبلغت الذروة في كل شيء . وحدثت عن النبي الكثير . وكانت ذات رأى في الفقه والتاريخ وكل ما يطلب إليها . وكأنما كانت رقيب العصر في الدفاع عن الاتباع . وكانت تجتهد . حاربت علياً ، وغاضبت عثمان . ولامت معاوية ، وماتت في خلافته (٥٨) .

لم يكن عمر يعرف حديث : « ما أعطيتموهن من شيء فهو لكم صدقة » فذهب يسألها : أنشدك الله . أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما أعطيتهم من شيء فهو صدقة ؟ » قالت : اللهم نعم . اللهم نعم . قال عمر : « أين كنت عن هذا . ألهاني الصفاق في الأسواق » !! فقد كان يعمل ليعيش . وكان مشيخة أصحاب النبي يسألونها في الفرائض كما قال مسروق . أو كما قال أبو موسى الأشعري : ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها علماً .

وهي أدبية بليغة - يفيض علمها الواسع على لسانها الفصيح .

قال الأحنف بن قيس : « سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء وهم جراً إلى يومى هذا . فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه في فم عائشة » .

وكان من زعماء العرب دعاه عمر إلى المدينة وأبقاه بها عاماً ليرى هل يصلح لولاية العراق . فدخل المدينة في كامل أبهته . وعمر يطلى بغيراً من إبل الصدقة بالقطران . قال عمر هلم يا أحنف ساعدنى في طلاء هذا البعير . قال أحد الحضور : يا أمير المؤمنين هلاكفت عبداً من عبيد الصدقة ليكيفيك ما أنت فيه ؟ قال عمر : ومن أعبد منى ومن الأحنف ؟ فخلع ثيابه وراح يطلى مع أمير المؤمنين .

إليك مثلاً من بلاغة أم المؤمنين وعمقها الفقهى معاً : سئلت عن خلق الرسول عليه السلام فقالت : « كان خلقه القرآن » وليس أوجز ولا أدل على وحدة جوهر الرسول والرسالة التي نزل بها القرآن من أن يكون « خلقه القرآن » . ومثلاً في الأدب : كان عليه الصلاة والسلام يصلح نعله في يوم قائظ فتندى جبينه . وانحدر العرق على خده . وهي تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه - فسألها مالكُ بهتٍ ؟ قالت : لو رآك أبو كبير الهلالى لعلم أنك أحق بقوله :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت بروق العارض المتهلل

فقبل النبي ما بين عينيه وقال : « سررتنى يا عائشة شرك الله » .

ملأت عائشة المدينة فضلاً وعلماً . وتعلم عليها كل من اتصل بها مثل القاسم ابن أخيها محمد وحفصة بنت أخيها عبد الرحمن . وعروة ابن أخيها أسماء ، وعمرة بنت عبد الرحمن . وقد ربيت في حجر عائشة . وعائشة بنت طلحة بنت أخيها ، وخيرة أم الحسن البصري ، وزينب بنت أبي سلمة ، ومرجانة والدة علقمة ابن أبي علقمة .

ولقد مر بنا حديث القاسم وعمرة . وسنسمع غداً عمر بن عبد العزيز يطلب إلى قاضيه ابن حزم تدوين ما عند القاسم وعمرة ليؤول كل ذلك إلى مالك . . فالتريق قاصدة بين أم المؤمنين وبين مالك .

أم سلمة أم المؤمنين : تزوجها الرسول بعد موت أبي سلمة بن عبد الأسد ولها ابن من أبي سلمة هو عمر ، رباه النبي ، وأحله عمر محلاً علياً – وولاه على البحرين . روى عنها الكثير وإن كان أقل من الرواية عن عائشة .

وكان شيبه بن نصاح إمام القراءة في دهره مولى لها . وهو أستاذ نافع صاحب القراءة الشهيرة . وخيرة أم الحسن البصري مولاتها . . ومن هذا النبع العظيم صار الحسن البصري إماماً في الفكر ، والفقه ، والدين ، للمسلمين . وقد لحقت أم سلمة بعائشة بعد عام سنة ٥٩ . فكانت آخر من بقي على الأرض من زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

جمع الإسلام العرب على أرفع المبادئ فصيرهم أعظم الأمم في سنوات – وجرى التيار الطهور من جيل الذين صنعوا الصنيع مع الرسول ، أو بصرت به أعينهم . إلى جيل التابعين الذين شاركوهم وجروا على آثارهم . فجيل تابعي التابعين في خاتمة القرن الأول وأوائل القرن الثاني .

وكان الصحابة مصدراً للآثار التي يتبعها المسلمون منقولة عن الرسول ، أو عن فهمهم لحقائق فكره وعمله . وانبثقت من أشخاصهم وأعمالهم الحقائق الدينية وعلمية معاً . بل كانوا بمثلهم العليا وشجاعة النفس والفكر ، والتواعد إلى الجنة ، عدة النصر العسكري .

أمر أبو بكر خالد بن الوليد في العراق أن يخفّ لنجدة جيوش الشام بنصف جيش العراق ، على أن يقود النصف الباقي المثنى بن حارثة . وأصر خالد على أن يصطحب كل الصحابة الذين كانوا في الجيش . وأبى المثنى إلا تنفيذ أمر أبي بكر بقسمة قوى الجيش مناصفةً وباستصحاب نصف الصحابة قائلًا : « وكيف تعريني منهم والله ما أرجو النصر إلا بهم » فأرضاه خالد . وأعاضه من الصحابة أبطالاً مجريين . وبالصحابة انعقد لواء النصر في اليرموك . وكان يوم اليرموك في فاتحة القرن إيداناً بفتح الأندلس غرباً . في خاتمته . وبهم كان يوم القادسية في فاتحة القرن إيداناً بباوغ المسلمين حدود الصين شرقاً . قبل منتهاه . فكل ماثرة تبعها الناس من أيام الحقبة العظيمة ورجالها أدت ، وسوف تؤدي ، إلى التقدم الحضاري الذي صنعه الإسلام . فالاتباع في ذاته فضيلة والدفاع عنه حرص على فضيلة .

ويزداد الاتباع والتزامه وجوباً في مدينة الرسول . لأنه اتباع لأمر وقعت فيها . ولها بها قصب السبق . وعليها واجب إذاعتها . وفي التزام منهج الرسول وصحبه منجاة من المجازفة ، بالتزام العلامات المميزة . وأمان من الفرقة والاختلاف . فذلك هو الأمر الأول . من جانبه خرج عن الجادة وتعرض للضلال . وكما يقول مالك : السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق .

والطاعة والاتباع صنوان وهما الدرس الأول في بيعة المسلمين لرسولهم ولأخلفاء الراشدين وفي إنفاذ أمره وأوامرهم^(١) .

(١) كانت إمرة الجيش لعمر بن العاص في غزوة ذات السلاسل إذ كانت أمه من أهل تلك البقاع ومن السهل عليه أن يتألفهم فلما بعث يستمد النبي أمده بأبي عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين وفيهم أبو بكر وعمر وقال عليه السلام لأبي عبيدة : لا تختلفا . فلما وصل المدد قال له عمرو إنما جئت مدداً لي - فأنا على قيادة الجيش . وكان أبو عبيدة أمين الأمة ، كما سماه الرسول ، وكان من السابقين إلى الإسلام وإلى الهجرة فله الصدارة ، لكنه كان ليناً ، هيناً عليه أمر الدنيا . فأجاب عمرًا : لقد قال رسول الله لا تختلفا - وإنك إن عصيتني أطعتك . فصلى عمرو بالناس وهو الحديث العهد بالإسلام وفي الناس أبو عبيدة ، وأبو بكر وعمر . . . وعلى هذا الأساس وبمثل هذه الدروس أطاع الصحابة الخلفاء وإن جادلهم .

والعرب من ناحية أخرى -- أمة من الحفظة ، لا تكتب إلا ما ندر ، استودعت صدورها الكتاب والسنة والآثار ، في دقة مقطوعة القرين . ومن ثم عظم شأن الاتباع ووجبت صيانتها حتى لا تتناوش آثار أخرى لحضارات شتى ، متباينة العقائد والشرائع . دخل بها أصحابها في دين جديد ، مقوم لا عوجاجهم . وحق الخوف عليهم من أنفسهم إذا صلحت نواياهم . ولزم الحذر منهم إذا فسدت حتى لا يفسدوا الناس بابتداع غير مأمون العواقب . وكذلك أقبل أصحاب الرأي على الاجتهاد إقبال الحذر . معتمدين على روح المدينة أى الخلاصة الفكرية والروحية التى يتداولها فقهاؤها . صاعدين جيلاً بعد جيل إلى الرسول في عباداتهم ومعاملاتهم . وأحق العلماء بالحرص والحذر من وعت صدورهم كنوز السنة من أوعيتها الأصيلة في صدور الصحابة وتابعيهم وقد كانوا كثرة بالمدينة . فتلك كانت وظيفة حلقة مالك بن أنس « عالم المدينة » يعلن مسئوليته ومسئولية حلقة فيقول :

« انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة كذا في كذا ألفاً من الصحابة مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وباقيهم تفرق بالبلدان . فأبهم أخرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم ؟ من مات عندهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين ذكرت أو من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ » أو يقول : « إن الرسول صلى الله عليه وسلم قفل من غزوة حنين في اثني عشر ألفاً مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وتفرق ألفان في سائر البلدان . وإذا كان هذا بيان مالك لعلماء البلدان الأخرى فهو أول الملتزمين بما في حجته من تبعات نحو الله والناس ، يفرضها عليه وجوده في المكان الأفضل : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

ولقد أنجح مالكاً في الدفاع عن السنة ظرف الزمان وظرف المكان وأمر ثالث ، كأنه بعد ثالث : نغنى به أنفس الناس . فأما ظرف الزمان فأتاح له أمرين لم يتاحا لمثله حتى لمحمد بن إدريس

الشافعي رضي الله عنه ، وكان أنجب تلاميذه ، وذروة المنهج العلمي في مدرسته . أو لأحمد بن حنبل . وكان تلميذاً للشافعي ومالك ، وإماماً في الفقه وفي العمل . مثلهما .

وأول الأمرين ما رزق الله مالكا من تطاول عمره على امتداد القرن الثاني للهجرة : قرن العباقة . مالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل والحوارزمي والكندي وجابر بن حيان . منه ثلاثون عاماً ، بتمامها ، تفرد فيها مالك بإمامة الأمة . ومنه سبعون عاماً ، أو تقل شيئاً ، تفرد فيها بزعامة الفقه بالمدينة والأصقاع كلها تتبعها . إلا قلة في بقعة أو أخرى ، فللمدينة زعامة السنن في كل بلاد الإسلام .

يقول أبو الحسن الدارقطني: « لا أعلم رجلاً تقدم أو تأخر اجتمع له ما اجتمع لمالك وذلك أنه روى عنه رجلان حديثاً واحداً بين وفاتيهما نحو مائة وثلاثين سنة . محمد بن شهاب الزهري مات سنة ١٢٤ وأبو حذافة السهمي توفي سنة ٢٥٠ روى عنه حديث الفريضة بنت مالك في سكنى المعتدة» ويقول جعفر الغرياني: « لا أعلم أحداً روى عنه الأئمة الجللة ممن مات قبله بدهر طويل إلا مالكا . فيحيى بن سعيد مات قبله بخمس وثلاثين سنة وابن جريح بثلاثين والأوزاعي بعشرين والثوري بثمان عشرة ، وشعبة بسبع عشرة » وأضاف غيره : وأبو حنيفة بثلاثين وهشام بأكثر من ذلك .

أما جمهور الأمة فيقول مقال بقية بن الوليد (١٩٧) : « ما بقي على ظهرها — يعني الأرض — أعلم بسنة ماضية ولا باقية منك يا مالك » .

والأمر الثاني : أن السنين التي راحت تتزاحف نحو التسعين من عمر مالك كانت امتداداً لقرن سابق . كله السنة أو تطبيقها الدقيق . فمالك لم ينجئ على فترة أو انقطاع من العلماء . وإنما ركب الموجة وكأنه يحرس أمواها . فتسلم النجاح العظيم ممن سبقوه ليسلمه إلى من بعده . ولم يكن قد مضى عشر سنوات على توقف ينبوع زكي من ينابيع التيار المقدس ، عمر بن عبد العزيز ،

وقد تَوَجَّح عمله وعلمه علم الفقهاء السبعة ، وعملهم . إذ أثبت نجاح جهودهم وتأثيرهم في القرن الأول الذي نقلوا آثاره إلى الوجود كله .

وأما ظرف المكان فموافق تماماً لظرف الزمان . أن كان هو المكان الذي صُنِعَ فيه الصنيع العظيم نفسه ، دون أن تطرأ عليه من طوارئ الحداث إلا نواذر في العدد والقيمة والأثر . فكان خليقاً أن ينقل الشيء نفسه من الرجال أنفسهم ومن أبنائهم ومواليهم : من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وزيد بن ثابت ، وأبي هريرة وآل مسعود من أبنائهم الفعليين ، أو الفكريين كمدرسة عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما ، أو من الأصهار والآل ممن ذكرنا ومن لم نذكر . وحسبنا القليل الذي سلف دلالة على أن المدينة وأبناءها العظماء كانت كل سنده ، وما أعظمه من سند . وأن عرفها وفقهها كان كل فقهه ، محققاً للمصالح الشرعية للأمة . منقولاً فيها بطريق التواتر العلمي والعمل . فلم تذهب سدى الأصوات التي انطلقت في آفاق الوجود من فم الرسول الكريم ، وأفواه أصحابه في العهد العظيم ، بل بقيت موجاتها في الهواء ، تشحن الأجواء ، وتملأ الدنيا طينياً في انتظار من يتلقاها من العلماء . وكان التقاط هذه القيوض الفكرية فرصة تدخرها السماء لمالك ، فتتناهى إليه كل موجات المدينة . ليحدث بسلسلة الذهب (مالك عن نافع عن ابن عمر) أو بغيرها مثل : مالك عن الزهري عن سالم عن ابن عمر ، أو عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة . أو عن هشام بن عروة عن أبيه - الزبير - أو عن عائشة . وعلى هذا الطراز الرفيع من المصادر تداولت المدينة السنة متواترة عن أجيالها المتتابعة ، وإنما هي تتداول تاريخها المجيد - وتقلب صفحاته البيض ، على وجه الاستمرار .

لقد شهد مالك في حياته مؤذناً ظل يؤذن ثمانين عاماً بتمامها في مسجد الرسول ذاته .

وهكذا صاحب الزمان والمكان - ما يسمى بالبعد الثالث في أنفس الناس وهو الصلوات الخاصة . أن كان أهل المدينة أهل الرسول وأصحابه المهاجرين معه

وأنصاره ومواليهم والمجاورين لمسجده عليه السلام وقبره . والعائدين بدار الهجرة ،
الذين دفعوا ، ودفع آبائهم ، الثمن الغالى من أجل المدينة من عهد على والحسين ،
إلى يوم الحرّة ، وأيام الحجاج وأيام هشام بن إسماعيل إلى أيام زيد بن علي
وأبي حمزة الخارجي ، فى دولة بنى أمية ، إلى أيام محمد بن الحسن وأخيه إبراهيم
وغيرهم ، فى دولة بنى العباس على مدار قرن كامل على الأقل . لا تكاد تمضى
سنوات حتى تذكرهم مذبحة عام بمذبحة عام . وهم لا يستسلمون ولا يتزحزون
عن مراكزهم التى تبوؤوها بعملهم الصالح وعمل آبائهم . وأول مراكزهم أنهم . .
أهل المدينة . التى كانت إليها الهجرة . وبها اعتز الإسلام بعد اضطهاده ، ومنها
تنتشر سنن الرسول . . . على أيديهم .

وفى مدينتهم هذه يقول النبى الكريم : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »
« والصلاة فى مسجدنا خير من ألف صلاة إلا صلاة المسجد الحرام . دعا النبى
لما بمثل ما دعا إبراهيم لمكة . وقال إنها تنفى خبثها وينصع طيبها . وقال : « اللهم
حبب إلينا المدينة كحببنا مكة أو أشد وصححها . وبارك لنا فى صاعها ومدنها » .
وقال : « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى شفيع لمن مات بها » .

الباب الثالث

عالم المدينة

« يوتئك أن يصرب الناس أكباد »
، الإبل فلا يحدون عالماً »
، أعلم من عالم المدينة ،

(حديث شريف)

حمل مالك وصف « عالم المدينة » عن جدارة ، بحلقته وطريقته ، واتساع
مدى عمره ، وأثره . وبمناهجه الذي تبلورت فيه طرائق سابقه ، ووقوفه كالجبل
العالى الذى يزحم الأفق فى وجه المشككين أو المتشككين . مدافعاً عن تراثها
الفكرى من اليسر والسماحة والاعتدال على التقدم الحضارى . مع الحرص على
السنن ، وبالاجتهد ، مع الابتعاد عن الأغاليط والمستحدثات الخطرة . وبانتقال
فكره على أيدي تلاميذه إلى القارات الثلاث المعروفة فى عصره
وفى الفصليين التاليين محاولة لتصوير حلقة مالك . بألوان مركزة وإشارات
مختصرة من تراث المدينة .

الفصل الأول

الأستاذ

« يوشك أن يضرب الناس أكباد »
« الإبل فلا يجدون عالماً »
« أعلم من عالم المدينة »
(حديث شريف)

كان مالك بن أنس طويلاً جسيماً ، عظيم الهامة ، جيد البدن ، وعندما يصير أبيض الرأس ، واللحية ، سيكون أصلع عظيم اللحية وتكون ذات سعة وطول ، أبيض شديد البياض إلى الشقرة . وصفه أبو حنيفة بأنه أشقر أزرق . وكان أعين حسن الصورة ، يأخذ أطراف شاربه ولا يحلقه ولا يحفيه بل يرى حلقه من المثلة . ويترك له سبيلتين طويلتين ويحتج بقتل عمر شاربه إذا أهمه أمر . حتى شاربه يتمثل فيه بعمر . دخل عليه رجل حلق رأسه وشاربه فقال له : يا هذا ؟ لو أخذك الشيطان ونكل بك ما بلغ في عقوبتك أكثر مما فعلت بنفسك ! وراه يحيى بن سعيد القطان إذ وفد عليه من العراق سنة ١٤٤ ، أسود الرأس واللحية ، وهو في الخمسين . وكان في بعض عهده يفرق شعر رأسه . ولما شاب ولم يستعمل الخضاب ، بعث إليه بعض أمراء المدينة يقول : لم لا تصبغ يا أبا عبد الله . فكبت الأمير بقوله لرسوله : قل لصاحبك : ما بقى عليك من العدل إلا أن أصبغ ؟ ويحتج في ذلك بعلى .

وكان مالك يكره الاكتحال إلا لعة ، ويتطيب بطيب جيد . ويلبس قميصاً عدنياً رقيقاً - وثياباً مدنية جياداً أو خراسانية أو مصرية مرفعة بيضاء ، وكان نقي الثوب لم ير في ثوبه حبر قط . يقول : أحب للقارىء أن يكون أبيض الثياب . ويكره اختلاف اللبوس . وأحياناً يلبس قلنسوة متركة وطيلساناً وثياباً مروية جياداً . والثياب من آسيا وأفريقية . دخل عليه الراوى فقال : رأيت عليه طيلساناً يساوى خمسمائة . . . أشبه

بالمملوك . وفي البيت وسائد أصحابه عليها قعود . قيل له : أشيء أحدثته أم وجدت الناس عليه ؟ قال : « رأيت الناس عليه » . وذلك من أثر النعمة والرغبة في راحة جلّسه ، يستوى فيها أضيافه وتلامذته .

يقول : « ما أحد أنعم الله عليه إلا أحب أن يرى أثر نعمته عليه وخصوصاً أهل العلم . ينبغي لهم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم إجلالاً للعلم » ويقول : « التواضع في التقى لا في اللباس . إنا كنا نتواضع في التقى والدين لا في اللباس » . أما خاتمه فننفضة — مات وهو في يده ، فصبه حجر أسود ، نقشه سطران : « حسبي الله ونعم الوكيل » بكتابة جميلة . يحبسه في يساره ، فإذا توضأ حوّله إلى يمينه . وإذا سئل عن اختياره لهذا النقش قال سمعت رسول الله يقول : « حسبي الله ونعم الوكيل » .

ولم يكن يملك داراً . فكان يسكن بكراء داراً كتب على بابها (ما شاء الله) قال تعالى : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله) . والجنة هي الدار . وسكن دار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سادس ستة أسلموا . وواحد ممن ينهى إليهم علم الصحابة .

كان لا يضحك . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وهو مع ذلك من أحسن الناس خلقاً مع أهله . ففي ذلك — كما قال — مرضاة لربك ، ومثارة في مالك ، ومنسأة في أجلك . وقال : وقد بلغني ذلك عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان يقول : « إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير لم يكن للناس فيه خير » . ولا يرى أحد الشيخ في مباله . فإذا أصبح لبس ثيابه وتعمم — فلا يراه أحد من أهله ولا أصدقائه إلا كذلك . وما أكل ولا شرب حيث يراه الناس . ولا يشترى بنفسه حوائجه من السوق بل يوصي العالم بقوله « ينبغي للعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه وإن كان يقع عليه في ذلك نقص في ماله فإن العامة لا يعرفون قدره » ويضيف إلى ما مضى من خلائق السادة : أن رفع الصوت ليس محمداً وبخاصة عندما يذكر حديث النبي فهو كهيفة رفع الصوت فوق صوت النبي . والله سبحانه يقول : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) .

وكان ضيق الأمر في بداية العمر حتى باع سقف داره ليتعلم — ولما صلح حاله بعض الصلاح صار له في اليوم درهمان من اللحم . لو لم يجد ثمنهما باع من متاعه ليشتريهما . ثم جعل الله له بعد العسر يسراً فأمسى بأمر خبازه (سلمة) أن يعمل له في كل يوم جمعة طعاماً كثيراً له ولعِياله . يبر تلاميذه ويبر نفسه . شربه في الصيف السكر وفي الشتاء العسل . ويؤثر الموز لأنه فاكهة دائمة كفاكهة الجنة .

* * *

وجلس يوم أذن له الشيوخ بالجلوس ، فليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس — كما يؤثر قوله — حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل وأهل الجهة من المسجد . فإذا رأوه أهلاً لذلك جلس . قال : « ما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك » .

سأل رجل مالكا في مسألة فبادره عبد الرحمن بن القاسم فأفتاه . وابن القاسم يحيى في المقام الثاني من تلامذة مالك ، حيث المقام الأول للشافعي وحده — فأقبل مالك عليه كالمغضب وقال : جسرت على أن تفتي يا أبا عبد الرحمن !!! وكررها وقال : ما أفتيت حتى سألت هل أنا للفتوى موضع قيل له من سألت ؟ قال : الزهري وربيعه .

وكان يقول إن كثرة الكلام لا توجد إلا في النساء والضعفاء ويقول : كثرة الكلام تمج العالم وتنقصه وتذله . . ويقول : من علم أن قوله من عمله قل كلامه . وإذا كان مجلس الفقيه قد لا يسلم من أن يعتوره سفيه — بنوبة فاذا أو كلمة شاذة فقد سلم مجلس مالك . قال ما جالست سفيهاً قط . وقيل له يوماً من حدثك بهذا ؟ قال إنما لم نجالس السفهاء .

وعلى هذا الأساس يقول : لا ينبغي أن تتكلم بشيء تستحي منه ، ولا تمش في حاجة تستحي منها . ولقد سمعت ربيعة يقول : سأل رجل أبا بكر الصديق أن يمشي في حاجة فلما سار قال للصديق : خذ بنا في غير هذه الطريق . فإن

على طريقنا مجلس قوم أستحي منهم . فقال أبو بكر : تصحبني في أمر وتستحي منه ! لا مشيت معك أبداً .

ومالك من أكثر الناس إنصافاً للناس يقول عن الإنصاف : « لم أجد في الناس أقل منه فأردت المداومة عليه » .

ولما سئل النبي عليه السلام أي المسلمين خير قال : « من سلم الناس من يده ولسانه » .

ومالك يقول : « ينبغي للمرء ألا يتكلم إلا فيما أحاط به خبراً » . ويقول : « لا يصلح أمر الرجل حتى يترك ما لا يعنيه ويشتغل بما يعنيه فإذا كان كذلك أوشك أن يفتح الله تعالى قلبه له » . وهو من أشد الناس مداراة للناس يعمل بقوله عليه السلام : « رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس » وقوله : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

وسنرى مع الزمن ، أن ما نجمع للشيخ من كمال خلقي ، زادته السنون ثباتاً وتدريس السنة سمواً ، وأمسي طبيعة عنده ، وغدت ذاته وصفاته موضوعاً يدرسه الطلاب بالمدينة . فيقيم التلميذ عاماً — بعد الفراغ من دراسة سنن الرسول — ليدرّس سجايا أستاذه .

أما رزق مالك فسيجري يسيراً من مراوحة الأربعمائة دينار وهدايا الأصدقاء ، كئيل أن يجيئه من الليث بن سعد مائة دينار في العام .

وتبارى الناس في مرضاته . تمنى يوماً كساء قرمزيًا فجيء في الغداة بسبعة أرسلت إليه ! وكتب إلى الليث يطالب عصفراً يصبغ به ثيابه فجاءه ما صبغ به ثيابه وثياب صبيانه ، وصبيان حيرانه ، وباع الفضل بألف دينار . وترك له ابن القاسم صرة مائة مثقال فوزعها على الناس . وجاءته هدية من خيل خراسان فأهداها إلى تلميذه محمد بن إدريس الشافعي .

وفي خواتيم الحياة أقبلت جوائز الحلفاء آلافاً من الدنانير .

* * *

ويقصد مالك راجلاً إلى المسجد فهو لا يركب ويقول : إني لأستحي من

الله أن أظأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة .

فإذا سئل في الطريق عن الفقه قال : للفقه كرامة تمنع الجواب . متى
معه عبد الرحمن بن مهدي يوماً إلى « العقيق » فسأله عن حديث فهره . وقال .
كنت في عيني أجلّ من أن نسأل عن حديث رسول الله ونحن نمشي .

فإذا جلس بالمسجد ، جلس بين القبر والمنبر في الروضة الشريفة . قال
عليه السلام : « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » .

كانت مساحة المسجد عندما أنشأه الرسول مربعة الشكل يحيط بها جدران
من الآجر والحجر ، وعلى جزء منها سقف من جريد النخيل . تغطيه طبقة من
الطين ويستند إلى عدد من جذوع النخيل . فراد فيه عمر بن الخطاب . وجدده
عثمان بن عفان . وكما يقول البلاذري : ثم لم يحدث فيه شيء إلى أن ولي الوليد
ابن عبد الملك بن مروان بعد أبيه . فكتب إلى عمر بن عبد العزيز وهو عامله
على المدينة -- يأمره بهدم المسجد وبنائه . وبعث إليه بمال وفسيفساء وشام
وثمانين صانعاً من أهل الشام ومصر فبناه وزاد فيه . وصار مثلاً يحتذى في
مساجد الإسلام .

هنالك يجلس الشيخ وكأن التاريخ رجع القهقري قرناً وبعض قرن ليسبق
الزمان كله -- فهذا هو المكان الذي كان يوضع فيه فراش الرسول إذا اعتكف ...
وهو مجلس عمر بن الخطاب -- مجلساً كله وقار وحلم وهيبة . ليس فيه لفظ
ولا وراء ولا رفع صوت . والتلاميذ حافقون به ، سكرت أبصارهم ، يسأله السائل
فيجيبه فلا يقول أحد من أين رأيت هذا . فهني حقيقة علمية ما دام نطق بها
مالاك . ولقد كان من زينة الدنيا أن يقول الرجل : حدثنا مالك . كما يقول بشر
الحافي الذي لم ينشغل بالدنيا .

ولقد يأتي مالك الجواب فلا يراجع أحد -- هيبة له ، والسائلون نواكس
الأذقان .

وكان الغرباء يسألونه عن الحديث والحديثين فيجيبهم الفئة بعد الفئة . وربما

أذن بعضهم فقرأ عليه . وكان لا يوسع لأحد في حلقة ولا يرفعه . يدعه يجلس حيث ينتهي به المجلس .

فإذا كان المجلس بداره . فربما خرجت الجارية تقول للناس : يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم . وإن قالوا : الحديث ، دخل مغتسله فاغتسل وتطيب وسرح لحيته ولبس ثياباً جدداً وتعمم ووضع على رأسه لباس رأس طويلاً . وصلى ركعتين . ثم خرج إليهم وعليه الخشوع . وتلقى له المنصة ويشيع في أجواء المجلس طيب عرف العود . فلا يزال يتبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله تعظيماً لحديثه صلى الله عليه وسلم . والتلاميذ سكوت . لا يكلم هذا هذا - ولا يلتفت ذا إلى ذا ، والطلاب بالباب يقتتلون من الزحام ومعهم بن عيسى جالس على العتبة ، لا ينطق مالاك بشيء إلا كتبه .

وهو يضع الكلمة الصالحة موضع الدواء -- وبمقداره ، كثير الصمت قليل الكلام يقول : من أكثر الكلام ومراجعة الناس ذهب بهاؤه . وهي سنة أبي بكر ، إذ يقول لقائده : إذا وعظهم فأوجز . ويقول : إن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . والنبي عليه السلام كلامه فصل - لا نذر ولا هذر .. أثني رجل على آخر ومالك ساكت ، فقليل له لماذا لا تتكلم ؟ قال : متعت بك كان يقال : نعم الرجل فلان لولا أنه يتكلم كلام سنة في يوم .

وهو كالسلطان له آذن . وله حجاب سود . يقيمون من يأمر بإقامتهم . والتلاميذ يضغط بعضهم بعضاً على الباب فينادى مناديه ليدخل أهل الحجاز فما يدخل إلا هم . ثم ينادى في أهل الشام ثم في أهل العراق . فإذا فرغ من يحضر أذن للعامة فانقصفوا عليه .

وهو إذ يجلس للحديث لا يحدث الواقفين : سأله قاض وهو واقف عن حديث فأمر به فحبس . قيل له إنه قاض . قال : القاضي أحق من أدب . وسأله هشام بن القماري وهو واقف . فأمر به فضرب عشرين سوطاً . ثم أشفق عليه فحدثه عشرين حديثاً . قال هشام : وددت لو زادني سياطاً ويزيدني

حديثاً ... وصارت طريقة الشيخ نظاماً للرواد يلتزمون به فيؤثرون الشكل الذي يريده على الموضوع ، الذي يريدونه . أتاه أبو حازم وهو يحدث فجاءه قائلاً :
إني لم أجد مجلساً أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله وأنا قائم .

* * *

وليس من مصلحة التلاميذ كثرة القراءة في المجلس الواحد . ولذلك يقرأ لهم كاتبه « حبيب » كل عشيّة من ورقتين إلى ورقتين ونصف لا تبلغ ثلاثاً ، وليس من منهج الأستاذ كثرة الجدل في المجلس . وإنما يخبر بالسنة لتقبل منه دون جدل قيل له : الرجل عالم بالسنة أيجادل عنها ؟ قال لا . ولكن ليخبر بالسنة فإن قبلت منه وإلا سكت .

وليس من المنهج كذلك كثرة المسائل . ولما سئل مالك عن حديث قيل وقال وكثرة السؤال قال : أما كثرة السؤال فلا أدري أهو ما أنتم فيه مما أنهاكم عنه من كثرة المسائل ؛ فقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وقال تعالى : (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) ، فلا أدري أهو هذا أم السؤال في الاستعطاء .

قال أنس : « نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء . فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية . العاقل . فيسأله ونحن نسمع » . يقول أسد بن القرات وقد قدم على مالك من بعيد : وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلونني أسأله عن المسألة فلو أجاب يقولون : قل له فلو كان كذا فأقول له . فضاق عليّ يوماً فقال لي : هذه سلسلة بنت سليسة إن أردت هذا فعليك بالعراق . ولقد يقول له حسبك يا مغربي . في حين يرضى مالكاً يسرّ يحيى ابن يحيى وتأتي الكلام له . قال قائل في الحلقة إن فيلاً يمشي في الخارج فتعالوا ننظره فانفض التلاميذ إلا يحيى فسأله مالك . لم لم تخرج لتنظر الفيل وهو ليس في بلادك ؟ قال لم أرحل لأبصر الفيل وإنما رحلت لمشاهدتك وأتعلّم من علمك وهديك ؟ فأعجبه ذلك .

ولمّا كره الشيخ طريقة العراقيين لإيغالهم في المسائل وكثرة تفريغهم في الرأي .

ولربما كانت المغالاة في الفروض مغالاة في الخيال ، أو في الخيال ، فلقاها مالك بالأدب الذي يليق بأهل السنة .

سأل عراقي مالكا عن رجل وطئ دجاجة ! فخرجت منها بيضة ! فأفقت البيضة عنده عن فرخ ! أيا كله ؟

فقال مالك : سل عما يكون ودع ما لا يكون .

وسأله آخر عن أغاليط كهذه فلم يجبه . قال : لم لا تجيب يا أبا عبد الله ؟ قال : لو كنت تسأل عما ينفع أجبتك .

ومن قبل ذلك ناقش ربيعة أستاذ مالك سعيد بن المسيب أستاذ المدينة محتججا بالقياس فقال له : أعراق أنت ؟ وسألت عائشة امرأة عن قضاء الحائض الصوم دون الصلاة فقالت لها « أحرورية أنت » ؟ نسبة إلى حروراء بالعراق ، حيث تجمع الخوارج .

وإذا لم يكن يجيب إلا فيما ينفع فهو لا يجيب إلا من ينتفع . وإذا تحداه السائل فالويل له ؛ سأل سائل فلم يجبه . فسأل سؤالا آخر فلم يجبه . فتساءل ولم ؟ فأمر مالك به إلى السجن . قال : إني قاضي أمير المؤمنين . قال مالك : ذلك أهون لك . قال القاضي : إني لا أعود . . . فأمر مالك غلامه بإخلاء سبيل قاضي أمير المؤمنين .

وكان شرار الناس في المدينة يتكاثرون بالمسائل تكاثر أهل الدراهم بالدراهم . ولقد توقع عمر هذا السرف الفكري فخرج على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن . فإن الله بين ما هو كائن . وابن عمر يقول : « لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن » .

ولقد سئل خمار بن ياسر عن مسألة فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا . قال : فدعونا حتى يكون ؛ فإذا كان تعجشنا لكم .

وفي الحديث أن الرسول عليه السلام نهى عن الأغلوطات وهي التي عناها معاوية ، حين قال : « أما تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن عضل المسائل » ؟

ويدخل على مالك عبد الله بن المبارك (١٨١) وصحبه فيقولون : حدثنا
ولا تحدثنا إلا بحديث الزهري . فلا يحدث ولا يناقش . وإنما يأمر بهم كلهم
أن يؤخذ بأيديهم ويقاموا عنه . فيقومون ! وفي الغداة يعودون معتذرين فيعتبهم -
ويحدثهم بحديث الزهري .

وسيمسى عبد الله ، بعد إذ أحسن التلوي على الشيخ ، أقرب الناس إلى
قلبه . يتزحزح له في مجلسه ثم يقعده بلصقه . قال يحيى بن يحيى : ولم أره
يتزحزح لأحد في مجلسه غيره . وابن المبارك تلميذ سابق لأبي حنيفة . فيه قول
عبد الرحمن بن مهدي زعيم المحدثين بالعراق . وهو الخصم الألد لأبي حنيفة :
الأئمة أربعة : الثوري ، وحساد بن زيد ، وابن المبارك ، ومالك . وفيه قول
سفيان بن عيينة زعيم المحدثين بمكة : نظرت في أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلاً
على ابن المبارك إلا بصحبتهم وغزوهم مع النبي صلى الله عليه وسلم .

والذي يصنعه مالك مع إمام المشرق يصنعه مع إمام الشام بقية بن الوليد
يسأله عن ست مسائل فيجيبه . فيسأله السابعة فيرد مالك : أكثر . ثم ينادى
فيأخذ رجلاً بضميه ويخرجانه .

روى الطبري : سمعت إسماعيل الفزاري يقول : دخلت على مالك بن أنس
وسأله أن يحدثني فحدثني اثني عشر حديثاً ثم أمسك . فقلت له زدني أكرمك
الله . وكان له سودان قيام على رأسه فأمرهم . فأخرجوني من داره .

ولو لم يصنع ذلك . والمتفقهون مثات ، ولهم إصرار ، لما وجد الشيخ نفسه .
كانت حلقة الأتباع . والأئمة أولى بالاستجابة لأوامر إمامهم ، ليتبعهم
الناس . فذلك درس للأئمة والناس .

فإذا صنع أحد في المسجد ما لم يصنع السلف الصالح . كان مالك ضده ،
بالفقه وبالقوة . نبه الناس على رجل يضع رداءه بين يديه في الصف . فأمر
اثنين من الحراس بحبسه فحبس . وإذا الحبوس عبد الرحمن بن مهدي قدم
المدينة ، ودخل المسجد فصنع ما لا يصنعونه . فقال له مالك : أما خفت الله
واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك في الصف وشغلت المصلين بالنظر إليه .

وأحدثت في مسجدنا شيئاً ما كنا نعرفه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « من أحدث في مسجدنا شيئاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ؟
 فبكى ابن مهدي جزعاً .

وهذه الحادثة الصغيرة . تجمع خصائص الصورة ، من الاتباع الكامل .
 حتى للماديات ومن اقتناع مالك بأن المحافظة على عمل أهل المدينة فيها
 المحافظة على السنة . وإن في هذا الميدان عمله وإنه خلق له .

* * *

والشيخ هيبة تظهر في لقاءات سلاطين الأرض وعلمائها . يقول الشافعي — الذي
 لا يهاب -- : « ما هبت أحداً قط هيتي من مالك بن أنس . . » فحفظ الموطن
 قبل أن يرحل إلى المدينة ليجلس إليه ، وختم القرآن ست عشرة مرة في طريقه
 بين مكة والمدينة . مستعيناً بالله . واستوصى وإلى مكة إلى وإلى المدينة ليقدمه
 الواليان إلى مالك ! وسعى الوالي إلى باب مالك ، قالت الجارية له إن للدرس
 يوماً . فتوصل بأن معه خطاباً من وإلى مكة في أمر مهم ! ومالك يلقاه فيلقى
 الخطاب ويقول : صار العلم يطلب بالوسائل ! . . . فلما جلس إليه الشافعي
 ارتاح الشيخ لتلاوته وقربه ، وعلمه ، عشر سنين ، قدمت لنا العقل العلمي
 الذي لا نظير له : أنجب التلاميذ في مدرسة مالك .

ولما سأل أبو يوسف (٩٥ — ١٨٣) إمام المدينة في حضرة الرشيد فلم يجبه .
 قال الرشيد أجبه . وكان أمراً من أمير المؤمنين تجب له الطاعة . قال مالك —
 لعدل الرشيد — الذي كان يحج معه عدلاً له على بعير — : « إذا رأيتنا جلسنا
 لأهل الباطل فتعال حتى أجيبك » . أو قال : « ها هنا من تلاميذنا من يبلغ
 حاجة أمير المؤمنين » . وتختلف الأقوال في سؤال أبي يوسف لمالك . وأبو يوسف
 أستاذ مدرسة في العراق برعت في المناقشات والافتراضات ، وهو قاضي القضاة .
 فكان طبيعياً أن يحاول ليظفر في ظلال الرشيد بمظهر الغلبة . في فرصة أتاحت له .
 إذ رضى أن يجادله .

سأل أبو يوسف عن مُحَرَّم كَسَرَ ثنيةَ ظبي . ما حكمها ؟
قال مالك : عليه الفدية .

وضحك أبو يوسف وقال : وهل للظبي ثنية !
ولعل السؤال قديم توارثه أبو يوسف من حلقة أستاذه أبي حنيفة عن سؤال
وجهه إليه جعفر الصادق أستاذ مالك ! قالوا سأل جعفر أبا حنيفة ما تقول في
محرم كسر ثنية ظبي ؟ قال إمام أهل الرأي : يا ابن رسول الله ما أعلم ما فيه .
أنت تتداهى ! أولاً تعلم أن الظبي ثنيّ أبداً^(١) ؟

وعظم أدب الإمام الأعظم في حضرة إمام أهل البيت !
ولم يك مالك مزاحاً ، ولا كان يقبل المزاح أمامه . بل كان قليل الضحك .
ويتغالى الرواة فيقولون إن مالكا في خمسين سنة لم يضحك إلا مرة أو مرتين
أو نحو ذلك . وكان ضد القهقهة ، فهي ليست من جلال السلوك يقول : من
أدب العالم ألا يضحك إلا تبسماً .

ويقول : ينبغي لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح وخصوصاً إذا ذكر
العلم . فما بالك بالشيخ إذا جعله أبو يوسف موضع المزحة ! لقد خرج مالك
عن حلمه إلى الحدة — فتوجه إلى الرشيد يسأله : يا أمير المؤمنين . سفيه يسأل
عن مسائل السفهاء . كيف توليه أمور المسلمين ! وفي رواية أخرى ، إن
أبا يوسف سأل مالكا ، فامتنع عن جواب سؤاله فاستعدى عليه الرشيد قائلاً :
يا أمير المؤمنين ؛ قل له يجيبني . قال مالك : ساء ما أدبك به أهلك ؟ !

يقول ذلك صاحب الموطأ وهو الذي يروى هنالك :

« مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن رجلاً سأل
رسول الله : يا رسول الله علمني كلمات أعيش بهن . ولا تكثر عليّ فأنسى ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تغضب » . ويروى هنالك أيضاً عن
أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد
الذي يملك نفسه عند الغضب » .

(١) الثني الذي يلتق ثنيته . وهي أسنان مقدم الفم . ثنيتان من فوق وثنيتان من أسفل .

كان قد تخطى الثمانين ، مستقراً في أوجه من عشرات السنين . فأين كان منه القضاة وقضاة القضاة . ولو كانوا في مجلس الرشيد .

ولقد كان المجلس عندما يجلس فيه مالك ، هو مجلس مالك . مع هذا فأبو يوسف قد درس الموطأ لمالك . من بعيد . عن طريق واحد من حفاظه ليقرب مع محمد بن الحسن طريقة مدرسة العراق إلى طريقة مدرسة المدينة .

فأبو يوسف الذي لا يهاب الرشيد . يصطنع الدهاء لجدال مالك ، أويستعين عليه بالخليفة . ومالك لا يهاب الخليفة . بل كان الخلفاء له أهيب . والناس أهيب له . منهم للخلفاء . قال سعيد بن هند الأندلسي ما هبت أحداً هيبتي عبد الرحمن بن معاوية^(١) . فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة صغرت معها هيبة عبد الرحمن .

لقد تقدمت بالشيخ السنون . وكأن الناس من طول عمره وجلال قدره لم يروه إلا شيخناً . فلقد صار جدياً لأكثر من جيل من الفقهاء الفحول . وهو في عنفوان عافيته .

* * *

ولقد يجيئه الرجل بعد ستة أشهر مشاها . فيسأله عن مسألة فيقول له مالك : « أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها » فيقول الرجل من أهل المغرب : ومن يعلمها؟ ويقول مالك : « من علمه الله » أو يقول : « ما سمعنا بهذه المسائل في بلدنا . ولا سمعنا أحداً من أشياخنا تكلم فيها . . . » فيقول الرجل يا أبا عبد الله ، تركت خلقى من يقول ليس على وجه الأرض أعلم منك . فيقول مالك غير مستوحش : « إذا رجعت فأخبرهم أني لا أحسن » .

وربما وردت عليه المسألة فيفكر فيها ليالي . وربما وردت عليه خمسون

(١) (ابن هشام بن عبد الملك بن مروان) وهو عبد الرحمن الداخل الذي فر من مذابح السفاح فتي غص الإهاب لينثى * أعظم دولة للإسلام في أوروبا . وأعظم دولة أوربية في القرون الوسطى . نقلت عنها أوروبا علوم الإسلام التي بدأ بها عهد النهضة طريقه إلى العصور الحديثة .

مسألة فلا يجيب منها في واحدة .

ويحكي الشيخ عن حاله : ربما وردت على المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم . قيل له : يا أبا عبد الله . والله ما كلامك عند الناس إلا نقر في حجر . ما تقول شيئاً إلا تلقوه منك . فيقول فمن أحق أن يكون هكذا إلا من كان هكذا . . .

ويتردد مالك ويفكر في الفقه أو يبكي وهو يذكر اليوم الآخر فيقول : «إني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأى يوم» . وذات يوم ألح عليه السائل في الجواب فقال : ويحك تريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله . فأحتاج أنا أولاً أن أنظر كيف خلاصى ثم أخلصك .

وإلى جوار خوف الله كان الخوف على الفقه ذاته . سأل رجل سالم بن عبد الله بن عمر في شيء فقال : لم أسمع فيه شيئاً . ولما ألح قال سالم : «لعلني إن أخبرتك برأى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأياً غيره فلا أجذك» وسيتعلم هذا الدرس مالك . ففي يوم قال للسائل : يرجع أهل الشام إلى شامهم وأهل العراق إلى عراقهم . وأهل مصر إلى مصرهم . ثم لعلني أرجع عما أفتيهم به . ولما روى السائل هذه الواقعة لإمام مصر الليث بن سعد بكى وقال : «مالك والله أقوى من الليث» .

ولما أراد إمام مصر أن يشيد بتمجيد إمام المدينة ، وثبته ، وإيثاره الريث على العجلة .

سأل بشر بن عمر مالكا عن رجل . فقال : «هل رأيته في كتيبي ؟ قال لا . قال لو كان ثقة لرأيته في كتيبي» .

وذاعت لمالك مقولات عظيمة في التثبت مثل : «إذا عرض لك أمر فأتد وعابر على نظرك بنظر غيرك ، فإن العيار يذهب عيب الرأي كما تذهب النار عيب الذهب» ومثل «العلم نور لا يأنس إلا بقلب خاشع» ومثل : «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم» . وما أراد إلا إلزام العلماء أن يكونوا قدوة بما يقولونه وما ينقلونه . لهذا وكثير غيره سئل ابن حنبل : الرجل يحب أن يحفظ

حديث رجل بعينه فحديث من يحفظ ؟ قال : يحفظ حديث مالك . قيل فالرأى ؟ قال : رأى مالك . والشافعي هو القائل : « ما في الأرض كتاب من العلم أكثر صواباً من موطأ مالك » .

وتناقل المتفقهة ، للقدوة والأسوة ، ورع مالك في الفتيا . فهو يسأل عن ثمان وأربعين مسألة فيقول في اثنتين وثلاثين منها « لا أدري » ويسأل من العراق عن أربعين مسألة فلا يجيب منها إلا في خمس . ويروى مالك عن أستاذه ابن هرمز قوله : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول « لا أدري » حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه . وكان ابن هرمز يقول في أكثر ما يسأل عنه لا أدري ويقول مالك لمن راجعوه في « لا أدري » - « وإيش منزلي حتى أدري ما لا تدرون . . . هذا ابن عمر يقول لا أدري فمن أنا . وإنما أهلك الناس العجب وطلب الرياسة » .

ولقد طالما قال مالك : « إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه » . ورووا عن ابن عباس ما يرويه مالك عن ابن عجلان : إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مفاصله . وظاهر ذلك أن أستاذي الحجاز معاً ابن عباس وابن عمر كانا صاحبي هذه الطريقة ، تبعهما فيها القاسم بن محمد بن أبي بكر في منى والمسلمون يسألون فيقول : لا أدري ، لا أعلم - فلما أكثروا عليه قال : والله لا نعلم ما تسألوننا عنه ، لو علمنا ما كتمناكم . قال أبو الزناد : ما كان يجيب إلا في الشيء الظاهر . وابن عباس وابن عمر والقاسم يمثلون فقه بني هاشم . وبني عمر وأبي بكر وعائشة رضي الله عنهم^(١) .

(١) ترك الأمور لذويها والتوقف فيها عند الزوم ، درس قديم ألقاه أستاذ الاجتهاد عمر ابن الخطاب حين لم يدر وجه الصواب . فاتخذ الحياء موقفاً له . قدم الشام على حمار فتلقيه معاوية في مكعب ضخم . فأعرض عنه فجعل معاوية يمشي إلى جنبه راجلاً قال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ! فأقبل عليه عمر وقال : يا معاوية ؛ أنت صاحب المكعب مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين قال : ولم ذلك ؟ قال لأنني في بلاد لا تمنع من الجواسيس . ولا بد لهم ما يردعهم من هيبة السلطان . فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن نهيتني عنه انتهيت . قال عمر : إن كان الذي قلت حقاً فإنه رأى أديب . وإن كان باطلاً فإنها خدعة أريب . لا أمرك ولا أنهارك .

سمع ابن القاسم مالكاً يقول : إني لأفكر في مسألة من بضع عشرة سنة ما اتفق لي فيها رأى إلى الآن . وكان يقول ربما وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلتي . ويروى عنه ابن وهب أنه عندما يكثر عليه السؤال يكف عن الجواب ويقول : حسبكم . من أكثر أخطأ .

وكلما ازداد الشيخ علواً زاده الله تواضعاً وورعاً .

يقول : « من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على اللجنة والنار فليظرك كيف يكون خلاص الآخرة ثم يجيب » . فإذا جلس نكس رأسه وحرك شفتيه بذكر الله . ولم يلتفت يمينا ولا شمالا . وقد يسأل عن مسألة فيتغير لونه . وكان أحمر فيصفر . وينكس رأسه ويحرك شفتيه ويقول : ما شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال إسماعيل بن أويس : كان خالي لا يفتي حتى يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

قالوا لم يفت فتوى إلا تلا هذه الآية : (إن نظن إلا ظنًا وما نحن بمستيقنين) . ويقول : ما شيء أشد على من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام . لأن هذا هو القطع في حكم الله . ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا إذا سئل أحدهم عن مسألة كأن الموت أشرف عليه . ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا . ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غداً لقللوا من هذا . وإن عمر ابن الخطاب وعلياً وعامة خيار الصحابة كانت ترد عليهم المسائل ويسألون ثم حينئذ يفتون فيها . وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم الفتيا . . . ولم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا الذين نقتدى بهم ، ويعول الإسلام عليهم ، أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام . ولكن يقول أنا أكره كذا وأرى كذا . وأما حلال وحرام فهذا الافتراء على الله .

ولا يكتفى الإمام باختيار الصيغة الوردية ، بل قد يطلب أجلا يراوض فيه نفسه . لا يدلي بالرأى إلا فيما تمكن منه ، ولهذا كثر امتناع مالك عن الإفتاء في المسائل أو تريثه باصطناع صيغ رفيعة ، فربما قال : « لأحسن » أو « ليس

نبتلى بهذا الأمر» ، أو : « ليس هذا ببلدنا » ، أو يقول للرجل : « اذهب حتى أنظر فى أمرك » .

ولا فقه إلا بورع . سأل شداد بن حكيم ، تلميذ محمد ، أسد بن عمرو البجلي تلميذ أبى حنيفة عن صاحبيه الآخرين : زفر وأبى يوسف : أيهما أفقه ؟ قال أسد : زفر أورع . قال شداد : عن الفقه سألتك . قال أسد : بالورع يرتفع الرجل .

* * *

ولم تكن المدرسة فى المسجد وحده . بل كانت فى الدار أيضاً : ولم تكن بمناقشات الحلقة وحدها ، فنها ما كان يأخذ شكل أسئلة وإجابات مدونة . قال المغيرة : تعالوا نجتمع كل ما بتى علينا أن نسأل عنه مالكا . فمكثوا يجمعون ذلك وكتبوا فى سجل ووجه به المغيرة إليه فأجابه فى بعضه وكتب فى الكثير منه لا أدرى . فقال المغيرة : يا قوم والله ما رفع الله هذا الرجل إلا بالتقوى . من كان يسأل فى هذا فيقول : لا أدرى !

وتعلم ابن حنبل على مالك تقواه — فكان يقول : « سلوا غيرى » فإن قيل من نسأل ؟ قال سلوا العلماء .

وتأتى المسائل من بعيد ومن قريب . ومن الجمهور ومن الأمير . والشيخ على نهجه . . . يقول لا أدرى . فيما لا بدرى . قال السائل إنها مسألة خفيفة سهلة . أردت أن أعلم بها الأمير . قال مالك : ليس فى العلم شىء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) .

والحلقة ملأى بدراسات الزهد فى عرض الحياة الدنيا . مثل ما يروى معن عن مالك : أن سلمان كان يستظل بالنوىء حيثما دار ، ولم يكن له بيت . فقيل له : ألا تبنى لك بيتاً تسكن به ؟ قال نعم : فلما أدبر القائل سأل سلمان كيف تبنيه ؟ قال : إن قمت فيه أصاب رأسك وإن نمت أصاب رجلبك .

ويكثر الحديث فى الحلقة عن خلافة خامس الراشدين (عمر بن عبد العزيز) كدرس من دروس الدين .

التلاميذ في الحلقة الزملاء والخلفاء

والناس يفقدون من كل فج عميق . خفافاً وعلى كل ضامر ، حجيجاً ومتفقهين ، وكلا الحج وتعلم العلم فريضة . ومالك يمثل عند جمهور المتفقهين « عظمائهم » صحة الحديث ، ويمثل عند الجمهور رواته ، من المدينة المنورة . فهو أمل الخاصة والعامة . وهم في حجهم يشهدون منافع لهم ومنها أن يروا مالك ابن أنس : في مسجد النبي . ومجلس عمر — أو دار ابن مسعود .

وليس من الميسور إحصاء من غشى الحلقة من طلاب الفقه أو من عداهم على مدار أعوام سبعين . وفي أجيال ثلاثة متعاقبة . والحلقة عاملة ناصبة . وكأنما هي منسك لا بد من إتيانه لأهل الفقه . فإذا كانت في المسجد فهي جامعة أو كصلاة جامعة . وإذا كانت في الدار فهي زحام يحتاج لآذن ، وسودان يقيمون من يقام .

والناس أجناس . فيهم الفرس والمصريون ، والترك والعرب ، والأفارقة ، والآسيويون ، وأهل أوربا من الأندلس . ومنهم الخلفاء من نسل المنصور : المهدي الهادي ، والرشيد الأمين والمأمون ، ومنهم الولاة الكبار وأمراء المدينة الذين كانوا له تبعاً . ومنهم أئمة الإسلام يتوافدون إماماً بعد إمام . ليستوثقوا من علمهم . بعبارة على علمه . يتصدرهم أبو حنيفة ، والأوزاعي والحمادان : ابن زيد (١٩٨) وابن سلمة (١٦٥) والصاحبان : محمد وأبو يوسف . والسفيانان : (الثوري وابن عيينة) والليث بن سعد إمام مصر ، وابن مهدي إمام العراق ، وعشرات من تلاميذ هؤلاء ، ومئات من الآخرين أو آلاف .

ومع أن مالكاً لم يكن يجادل أحداً . بل يقول فيتبع الناس ما يقول ، فلم يستطع إلا أن يجادل الإمام الأعظم أبا حنيفة . ويقول مالك — لليث — وهو يمسح العرق عن جبينه : عرقت مع أبي حنيفة . إنه لفقيه يا مصري !! أما أبو حنيفة فيقول عنه لليث : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق . ونقد تام .

وأما أشهب بن عبد العزيز تلميذ مالك فيقول: « رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه » ويرى المؤرخون ذلك أدباً من أبي حنيفة لأنه أسن من مالك بثلاث عشرة سنة . والحق كذلك أن الأدب العظيم كان بعض وسائل أبي حنيفة للظفر بمجادليه .

وكان أبو حنيفة يقدم عليه بأفكار تحدثها عنده مراجعة كتبه قال : إبراهيم ابن طهمان (١٦٣) أتيت المدينة ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة فقال : هل كتبت عن مالك بن أنس شيئاً ؟ قلت نعم : قال : حدثني بما كتبت عنه . فأتيته به ، فدعا بقرطاس ودواة وجعلت أملئ عليه وهو يكتب .

ويتلقى على مالك شيوخه أنفسهم قبل أن يتلقى عليه تلاميذه . فلما بلغ الخمسين من العمر لم يكن في المدينة مثله . ولما فارق أبو حنيفة الحياة الدنيا في منتصف القرن لم يبق على ظهر الأرض لده له — مدة ثلاثين عاماً — وكثر تلاميذه من أهل العراق يتزودون من الآثار والسنن . وبهذا كانت نهضة الفقه في العراق سبباً في ازدهار الفقه عموماً . وفقه المدينة معه . وأحدث مالك أعظم الأثر في الدولة الجديدة لقيامها على أساس ديني . وفي الكوفة حيث مدرسة أبي حنيفة وهي مدرسة اتباع كمدرسة المدينة ، تجتهد فيما لا نص فيه .

وترتب على هذين الاعتبارين أن مدت مدرسة أبي حنيفة إلى المدينة بالأسباب كمثل ما صنع الخلفاء متعاقبين ، وتجمعت الأسباب العلمية ودينية وسياسية عند مالك بن أنس . يتلمذ عليه كاتب المذهب الحنفي محمد بن الحسن سنوات يتلقى فيها موطأه ويتلقاه أبو يوسف قاضي قضاة المذهب بطريق غير مباشر .

ويجري تلاميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة والصاحبين أبي يوسف ومحمد في تيار أئمتهم وتيار الدولة الدينية فيتبارون في دراسة السنن والإكثار منها . وزادتهم ولاية القضاء إقبالا وإكثاراً . ولا قضاء في أمور الدين والدنيا إلا على أساس السنة .

ويقدم الخلفاء حجيجاً أو زائرين ، أو أصحاب طلبات ، يعلنون إكبارهم .

فراح يعبر السنين مبايعاً له من خلفاء بني العباس وهم أبناء عم الرسول المنحدرين من أعظم فقهاء مكة على الإطلاق عبد الله بن عباس . وهم في الوقت ذاته أوعية من أوعية العلم الديني والأدبي . وهم — بعد أن تستقيم أمور الدولة لهم — أئمة عدل ونصفة يعملون لسيادة الشريعة . ولهذا طلبوا إلى مالك أن يجعل السنن المجموعة في كتابه قانوناً يحمل الناس عليه وتضرب رقابهم لطاعته وأبي مالك ما طلبوه . فليس من دين الله أن يفرض مالك على البشر كتابه . والناس في فجاج الأرض يختلفون أعمالاً وحضارة واجتهاداً وإن اتفقوا إسلاماً .

وليس غريباً أن يكون في الحلقة كل هذا النشاط ويكون فيها من التلاميذ مثل الشافعي ، ومع ذلك لا نسمع فيها مثابه للمساجلات التي حفلت بها حلقات الشافعي في مكة أو بغداد أو القسطنطينية أو حلق المتفقيين من تلاميذه وتلاميذ مدرسة أبي حنيفة أو حلقات أبي حنيفة نفسه . أو مناظرات كهيئة من مناظرة ابن سريج إمام الشافعية لداود الظاهري (٢٧٠) إمام أهل الظاهر . قال له داود . أبلغني ربي ! قال ابن سريج : أبلغتك دجلة ! ولما تناظر داود والطبري (٣١٠) — والطبري شافعي صار صاحب مذهب — كآثم واحد من أتباع داود الطبري بكلمة مضرة فترك داود كلام هذا الرجل سنة !

وينهى الناس تلاميذ أبي حنيفة إذ يخطئون أستاذهم ذاته . فيقول هو للناس : دعوهم فهم لا يفقهون إلا بهذا .

أما مالك فيلقى الدرس ليتبع ما يقول دون جدل ، وليس ذلك هو التقليد ، فالتقليد هو المجازاة دون فهم ، أو مع تعطيل العقل . والاتباع أخذ بالسنة مع الفهم لها . ومالك إمام رأى كالشافعي وأبي حنيفة اللذين عاصراه ، يستلزم الاجتهاد .

* * *

ولأنك تستطيع أن تتصور في يقين أن جميع أئمة العصر وعظمائه الذين حجوا حضروا حلقة مالك .

قال نجاد الترمذي : كنت عند مالك وعنده محمد والمأمون يسمعان . فلما

فرغا قال أحدهما (إما المأمون وإما محمد الأمين) : يا أبا عبد الله ؛ أتأمرني أن أكتبه بماء الذهب ؟ قال لا تكتبه بماء الذهب ولكن اعمل بما فيه .

وقال « القاضي الفاضل » وزير صلاح الدين : « ما أعلم رحلة إلى مالك في طلب العلم — يقصد رحلة خليفة — إلا للرشيد — فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماح الموطأ . وكان أصل الموطأ — سماح الرشيد — في خزنة المصريين ” يقصد تلاميذ مالك المصريين “ . ثم رحل صلاح الدين بولديه لسماحه على أبي طاهر السلفي . . لا أعلم لهما ثالثاً » .

ولعل القاضي الفاضل لا يسلم أن المهدي بعث إليه ولديه موسى وهرون (الهادي والرشيد) .

فهذا سمع الموطأ في حلقة الدرس خلفاء الدولة العباسية الأربعة أو الثلاثة على الأقل وفيهم اثنان من أعظم رجال التاريخ العالمي الرشيد والمأمون ، على كل قول ، وسمعه صلاح الدين وولده عثمان وعلي — العزيز والأفضل — بعد قرون . قالوا : لما قدم المهدي المدينة بعث إلى مالك فأتاه وطلب إلى ولديه (موسى الهادي وهرون الرشيد) أن يستمعا إلى مالك في مجلس المهدي . فأبى مالك إلا أن يستمعا إليه في مجلسه هو (مجلس مالك) فسيرهما المهدي إليه : وفي الحلقة طلب إليه مؤدبهما أن يقرأ عليهما فقال له : إن أهل هذه المدينة يقرءون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم . فإذا أخطأوا أفتاهم . فذهب المؤدب للمهدي يقول : إن الشيخ منعهم من السماع . فبعث إلى مالك يسأله قال مالك : سمعت ابن شهاب يقول : جمعت هذا العلم من رجال في الروضة وهم سعيد بن المسيب ، وأبو سلامة ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وخارجة بن زيد ، وسليمان بن يسار ، ونافع ، وابن حزم ومن بعدهم أبو الزناد وربيعه ويحيى بن سعيد . كل هؤلاء يقرأ عليهم . ولا يقرءون . قال المهدي هؤلاء قدوة . سيروا إليه . .

وهكذا فرض مالك قانون الحلقة على خليفة يضع القوانين .

وتلقى البخاري ذلك الدرس وألقاه على وال صغير . لتيسابور . طلب حضوره إليه ليحدثه فقال : إن شاء الأمير أن يحضر إلى الجامع فيسمع مع

الناس فإن العلم يسعى إليه ولا يسعى . فنفاه فذهب إلى خرتنك حيث مات
سنة ٢٥٦

التلاميذ في الحلقة

جيران الرسول

والتلاميذ كثيرون في حلقة مالك . منهم الدائمون وغير الدائمين ؛ ولقد
كانت الأعمار تقصر دون عمره . وكانت المدينة العظيمة أضيق من أن تسع
تلاميذه ، وهم ينصبّون عليه من كل الأقطار ، وفي كل الأعمار ، من وسط
آسيا في خراسان أو غرب أوربا في الأندلس . ومن أفريقية ومن مصر .
وانطبعت الحلقة بطابع الشيخ الذي طبع به الفقه الإسلامي كله . فتناقلت البلدان
الأخرى طابع المدينة المنورة .

وتلاميذ مالك وجه امتياز يمتاز به ممن عداه . فالذين تلقوا عليه مباشرة .
يمثلون بلدان الإسلام كلها في قاراتها الثلاث . . ذلك من ناحية المكان أما من
ناحية المكانة فهم ليسوا تلاميذ فحسب . بل هم أئمة مذاهب . يتصدرهم
الشافعي وهو أستاذ ابن حنبل . وكذلك محمد بن الحسن . وهو صاحب أبي حنيفة .
وابن القاسم وأسد بن الفرات . وهو أمرجد طبيعي لأن مالكاً يمثل السنة . وهي
جماع لمذاهب . . ينسب إلى بعضها اتباع النصوص فيكون آية في الاجتهاد .
وينسب لبعضها الاجتهاد وهي دقيقة الاتباع وينسب إلى بعضها التشدد فراه
فياضاً بالسماحة لأنها كلها وسائل لتحقيق مقاصد الشرع ورحمته واسعة .

وليس غريباً أن يتصدر الشافعي تلاميذ مالك وهو من أواخر الذين تلقوا
عليه . فالسماة قد جادت بالشافعي ليكون تحديداً علمياً لطريقتي الإمامين
الذين سبقاه في الحياة . ولم تشأ السماة أن تحرم الإسلام أبا حنيفة في سنة ١٥٠
إلا أن تهبه الشافعي في العام ذاته ليتلمذ في الغد على محمد صاحب أبي حنيفة .
ولم تشأ أن تحرم مكة من إمام مثلما جادت على كل من المدينة والكوفة بإمام .
ولم تفصل بين مالك وابن حنبل بل وصلتهما بالشافعي . وفي الشافعي تلتقي
المذاهب الأربعة .

وإذا كان الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤) قد ذهب مذهباً جديداً إلى جوار مذهب الإمامين اللذين سبقاه فإنه كان دائماً يذكر مالكا على أنه أستاذه . وكلما تجلى الشافعي للمسلمين إماماً على الجرس ، عظيم الأثر ، كان ثمة ما يستوجب الشكر ، لسنوات عشر ، في حلقة شيوخه مالك .

وعندما افترقا وصاه مالك : « لا تسكن الريف فيضيع علمك ، واكتسب الدرهم . ولا تكن عالة على الناس ، واتخذ لك ذا جاه ظهراً لئلا تستخف بك العامة . ولا تدخل على ذي السلطنة إلا وعنده من يعرفك وإذا جاست عند كبير فليكن بينك وبينه فسحة لئلا يأتي إليه من هو أقرب منك فيدنيه ويبعدك فيحصل في نفسك شيء » اكن الشافعي حيي حياته على طريقته في اقتحام وقوة - وكانت عين السماء ترعاه .

وكان طبيعياً أن يتلمذ على مالك المشهورون من تلاميذه في النصف الثاني من القرن . ولقد كان عندئذ فرد الدهر . يعبر الحمسين إلى الستين في قمة الفقه العالية .

ومن التلاميذ الحجازيين كذلك المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي (١٨٦) وكان يقعد إلى جوار مالك . في مجلس لا يشركه فيه سواه وإن غاب المغيرة بقي خالياً في انتظاره ، وهو الذي أذنه مالك في أن يناظر أبا يوسف إذ طلب الرشيد أن يناظره مالك . وهو الذي رأس الحلقة بعد مالك . ولم يقبل أن يلي القضاء للرشيد .

ومنهم عثمان بن عيسى (١٨٥) وعبد العزيز بن أبي حازم (١٨٥) ومعن ابن عيسى القزاز (١٩٨) كان الشيخ يتكىء عليه عند خروجه من المسجد حتى سموه عصية مالك . وهو الذي قرأ عليه الموطأ للرشيد والأمين والمأمون . ولقد جلس لنفسه مجلساً بعد موت مالك . .

ومنهم عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة التيمي الماجشون وكان ينادى في موسم الحج سنة ١٦٨ : لا يفتي الناس إلا مالك وعبد العزيز الماجشون (أبو عبد الملك) .

وعبد الله بن نافع الزبيري (٢٢٠) وإسماعيل بن أويس وهو أصبحى وابن أخت لمالك (٢٢٦) .

ومن البصرة كان عبد الله بن مسلمة القعنبي (٢٢١) .

ومن بغداد محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩) .

ومن نيسابور يحيى بن يحيى التيمي النيسابوري (٢٢٦) .

ومن القسطنطينية بمصر عبد الرحمن بن القاسم (١٩١) وعبد الله بن وهب

(١٩٧) وأشهب بن عبد العزيز (٢٠٤) وعبد الله بن عبد الحكم (٢١٤) .

ومن أفريقية - تونس - علي بن زياد التونسي (١٨٣) وأسد بن الفرات (٢١٣) .

ومن الأندلس . عبد الله بن غانم الأفريقي (١٩٠) ويحيى بن يحيى الأندلسي . تمييزاً له من النيسابوري (٢٣٣) .

وكان مالك يقدم تلاميذه في مجاسه على سواهم ، فهم أطناب الحلقة ، وهم المهاجرون لحديث الرسول . ولما عوتب في ذلك قال : أصحابي جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم .

التلاميذ في الأسرة :

كان للنساء مجلس مع النبي ، وكان حلقة مالك من تحضر من وراء حجاب ، فتفيد وتستفيد . وكان ثمة من يحضرون ولا يستفيدون ، وتشاء إرادة السماء أن يكون هؤلاء أعضاء بيت مالك ذاته ! والعبقريّة لا تورث .

فربما شارك التلاميذ من وراء الباب بنت لمالك تكنى أم البنين ، أو أم أبيها واسمها فاطمة ، تقف أحياناً خلف الباب فتسمع . وإذا أخطأ الكاتب الذي يقرأ ، نقرت الباب نقرأ خفياً ليفطن الشيخ لخطأ القارئ . فيصوبه .

ولقد يغشى الحلقة ابنه محمد وعلى يده باشق ، وفي يده نعل كيسانى . وقد أرخى سراويله عليه . فيجعله مالك درساً لأصحابه . فيقول : « إنما الأدب أدب الله . هذا ابني وهذه ابنتي » ويقول : « إن مما يهون الأمر على أن هذا الشأن

لا يورث « ثم يغشى الحلقة ابن محمد اسمه أحمد ، سيعد فيها بعد من ضعفاء المحدثين ، مات سنة ٢٥٦ .

وكان للإمام ابن ثان اسمه يحيى ، وقيل كان له ابن آخر هو حمادة . على أن أعظم دروس الإمام من أسرته — يتبدى في احترامه لزوجته . وكانت أم ولد تزوجها بطريق التسرى . فاستبقاها زوجة وحيدة له . وحاطها وأسرته بكل حبه واعتزازه . ولم يصنع صنيع عصره من الاستكثار من الزوجات ، حيث الزوجة مرضية كافية أغراض الزوجية ، أو حيث يخاف الأزواج ألا يعدلوا . ولا مراء في أن تأثير أمه فيه ، قد علمه إكبار أم ولده طوال حياتها وحياته .

الفصل الثاني من تراث المدينة

« إن الله تبارك »
« وتعالى لا يمل »
« حتى تملوا »
« اكلفوا من العمل »
« ما لكم به طاقة »

(حديث شريف)

والمدينة ذاتها درس أول من دروس الحلقة . يروى مالك عن ابن المنكدر . . .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المدينة كالكير ” ما تنفخ به النار “ تنفي خبثها . وينصع طيبها » وهي عاصمة الإسلام ، وهو يسر كله .
وإمام المسلمين يبدئ ويعيد في حلقاته في سيرة عمر بن عبد العزيز وفقهه
وعن قواعد اليسر والعدل والورع . ويفيض في شرح مقاصد الشرع :
عن مالك أنه عليه الصلاة والسلام . قال : « إذا صلى أحدكم بالناس
فليخفف فإن فيهم الضعيف . والسقيم ، والكبير . وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول
ما شاء » . . قال عليه الصلاة والسلام : « صل بهم صلاة أضعفهم » .
وسمع امرأة من الليل تصلي . فقيل له هذه الحولاء بنت تويت لا تنام
الليل . فكره ذلك حتى عرفت الكراهة في وجهه ثم قال « إن الله تبارك وتعالى
لا يمل حتى تملوا . اكلفوا من العمل ما لكم به طاقة » .
والتيسير تيسير في كل الأمور . عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام يقول :
« سيروا بسير أضعفكم » وهو عليه السلام يقول : « الضعيف أمير الركب » قالت
رضي الله عنها « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قط إلا اختار
أيسرهما ما لم يكن إثماً . فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله
صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها » .
وكما علّم الرسول اليسر والتسامح علم الناس السلام قال : « لا يحل لمسلم

أن يهاجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما هو الذي يبدأ بالسلام .

وتتنوع دروس الحلقة فتعلم مكارم الأخلاق : مالك عن أبي الزناد . . . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . وفي الحلقة كذلك يتعلم الناس العطاء والحياء . مالك عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن رسول الله قال : « أعطوا السائل وإن جاء على فرس » وهو عليه السلام يقول : « لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء » .

* * *

وإمام المسلمين يقول : الاستحسان تسعة أعشار العلم ، ويتخذ مقاصد الشرع ، وهي أصول كلية للشريعة ، أساساً ونبراساً ، يبنى على مقتضاها ، فيجيز ما فيه مصلحة للناس تؤيدها أصول الشريعة ومقاصدها . وفي هذا جلي مالك وصلى بعده الباقر .

وهو يعطى أهل المدينة ، وعملهم وعلمهم . قيمة فوق القيم ؛ ومن الحجج لذلك أن بيعتهم للخلفاء الثلاثة الأولين كانت كافية لانعقاد البيعة فلم ينتظر الثلاثة أن ترد عليهم بيعة الأمصار .

والشيخ لا ينحاز إلى أعداء على ، لكنه أموى الهوى . وعماني المنزع . وهو لا يخرج على السلطان . وإن كان ضد الظلم . . . والشيخ دائماً في خدمة (المدينة) كمثل ما كانت (المدينة) في خدمة حلقة .

ويكثر الحديث في الحلقة عن تحريم المضارة ودفع الحرج . وأخذ الدين بالرفق والناس بالسماحة . وتغليب المصلحة العامة على الخاصة . وتقييد الحقوق دفعاً للمضارة . واستعمال الحقوق أداة للتراحيم بين الناس . ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا ضرر ولا ضرار » يحدث به مالك ويخرج عليه تخريجاته الرائعة .

وتستطرد الحلقة : مالك عن ابن شهاب . . . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمنع أحدكم جاره خشبة يغرزها في جداره » .

ومالك عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أنه قال : « كان في حائط

« بستان » جده ربيع « جدول صغير » لعبد الرحمن بن عوف فأراد عبد الرحمن أن يحوله إلى ناحية أقرب إلى أرضه فمنعه صاحب الحائط فكلم عبد الرحمن بن عوف عمر بن الخطاب في ذلك فقضى لعبد الرحمن بتحويله .

وتستطرد الحلقة في الباب ذاته فهذا أصل إسلامي أول . وهذا فارس من فوارس الإسلام الأول يحاسب به عمر الصناديد من قواده . ويأخذه بقواعده — أول من يأخذ — مالك عن عمرو بن يحيى المازني أن الضحاك بن خليفة ساق خليجاً له من العريض (واد بالمدينة) فأراد به أن يمر في أرض محمد بن مسلمة فأبى محمد فقال له الضحاك لم تمنعه وهو لك منفعة ؟ تشرب به أولاً وآخرأ . وهو لا يضرك ؟ فأبى محمد . فكلم فيه الضحاك عمر بن الخطاب فدعى محمد ابن مسلمة فأمره بأن يخلي سبيله . فقال لا ؛ فقال عمر : لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع وتسقى به أولاً وآخرأ . وهو لا يضرك ؟ فقال محمد لا والله . فقال عمر : والله ليمرن ولو على بطنك . فأمره عمر أن يمر . ففعل الضحاك^(١) .

وتستطرد في فقه رعاية الجار . وفي التراحم . والنصفة . فيروى مالك : « أخبرنا... أخبرني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن عمرة حدثته أنها سمعت عائشة رضوان الله عليها تقول « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت ليورثته » .

وتنتقل من رعاية الجار إلى رعاية الشريك : مالك.. أخبرنا أبو الرجال عن عمرة بنت عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمنع نفع بئر »^(٢) .

* * *

(١) أقر القانون الألماني هذا المبدأ جملة بعد الإسلام بثلاثة عشر قرناً أي في نهاية القرن الماضي بنص يحظر على المالك أن يمنع غيره من التدخل في انتفاعه بملكه متى كان التدخل ضرورياً لتوقي خطر داهم .

(٢) قيل هذا في البئر بين شريكين — يسنى هذا يوماً وهذا يوماً ويستعنى أحدهما عن يومه فيريد صاحبه السقى به فليس لصاحبه منعه مما لا ينفعه حبسه ولا يضره تركه بخلاف الأنهار والبحار والأودية التي لا ملك فيها لأحد فإن الناس فيها شركاء لحديث : « الناس شركاء في ثلاثة : الماء ، والكلاء ، والنار » .

والشيخ يكره الاختراع الذي لم يأت عن النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا عن أحد من السلف والصحابة المرضيين ما يؤيده فهذا من محدثات الأمور . مثل القيام للدعاء ، والدعاء عند ختم القرآن ، والاجتماع للدعاء عند الانصراف من الصلاة ، والزيادة في الذبح على التسمية المعلومة ، والقراءة في الطواف دائماً ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند التعجب . سئل مالك عن الجلوس في المسجد للدعاء يوم عرفة . فكرهه فقليل له : فالرجل يكون في مجاسه فيجتمع الناس إليه ويكبرون . قال : ينصرف ولو كان في منزله لكان خيراً له . . . ومثل هذا مما يكون الأمر وارداً فيه على الإطلاق فيقيد بتقييدات تلتزم من غير دليل على ذلك . وعليه أكثر البدع المحدثه .

والذي يعترض عليه مالك في جوهره إلزام بما لا يازم ، أو تعمل . ومالك إمام السنة . والسنة هي السباحة . والرسول يسركله . وروح المدينة وروحها هما اتباع للسنة ويسر في كل أمر .

ولما أراد الخلفاء أن يحملوا الناس على ما في موطنه أبي حتى لا يقهر الناس على فقهه وحده . وحتى لا يحسب الناس أنه لا يصح العمل إلا بآرائه .

ولما هم الخليفة أن يبنى البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد إبراهيم شاور مالكا فقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك . لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره . فصرفه عن رأيه فيه حتى لا يصير هدم البيت وبنائه غرضاً للملوك . وبهذا سد ذريعة .

ويأتسى مالك بعمل عمر كل الاثشاء . ويقول أميتوا سنة العجم . وأحيوا سنة العرب . أما سمعت قول عمر : تمعددوا واخشوشنوا وامشوا حفاة وإياكم وزى العجم .

وهو أنيق في الطهارة ، لا يستكثر إلا للاحتياط : سئل عن المرة الواحدة في الوضوء . قال لا : الوضوء مرتان أو ثلاث . مع أنه لا يحد في الوضوء إلا ما أسبغ . فإذا أسبغ المتوضئ الماء كفاه مرة سابغة . لكنه يرى الاحتياط لأن العامي إذا رأى من يقتدى به يفعل ذلك يتوضأ مرة واحدة . وقد لا يحسن إسباغ

الماء بواحدة فيقع ما لا تجزئ الصلاة به . ولذلك لا يبيح الوضوء مرة واحدة إلا للعالم بالوضوء. بل إنه لا يبيح له أن يستمر على ذلك أمام الناس . فإذا كان لابد له من إظهاره أمام الناس فينبغي ألا يستمر عليه فيظهره حيناً وحيناً يتخلف عنه .

وهو يؤصل ويقعد. فقد يكون في الانحراف معصية مثل « إن رجلاً نذر أن يصوم قائماً ولا يستظل فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس ويستظل ويتم صومه » فيقول مالك : أمره عليه السلام أن يتم ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية .

ولم يكن اتباع مالك هو التقليد فابن عمر وزيد وابن المسيب وربيع لم يكونوا مقلدين . بل كانوا متبعين . وعمر بن عبد العزيز كان قمة في اجتهاده بين المتبعين . وسار مالك على الأمر الأول ، أمر النبي وصحبه وسننه وعمله . وكان مالك يلتقى على كل ما يتبعه أضواء فقهه .

إنما نشأت بدعة التقايد بعد موت مالك فارتاح البعض إلى تعطيل أذهانهم ولم يفتن المعطلون إلى أن الاجتهاد واجب إسلامي أول .

* * *

ومالك يغربل الأحاديث غربلة ، وإن كان يقبل الأحاديث المرسلة ما دامت مؤيدة . ويقدم القياس بأصل قطعي على خبر الواحد . ما دام لم يعضد بأصل قطعي .

يقول له القائل : إن عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك . فيقول : « أنا أحدث الناس بكل ما سمعت ؟ إني إذن لأحمق . أو : إني أريد أن أضلهم إذن . ولقد خرجت مني أحاديث وددت أني ضربت بكل حديث منها سوطاً ولم أحدث بها . وإن كنت أجزع الناس من السياط » ومن أجل هذا وجدت في تركته أحاديث كثيرة لم يحدث بها في حياته .

وإذا قيل له إن هذا الحديث ليس عند غيرك تركه . وإذا قيل له عن الحديث إن أهل البدع يحتجون به تركه . قيل له إن فلاناً يحدثنا بغرائب فقال :

من الغريب نقر . فإذا شك في الحديث تركه كله . . . وكان يقول : « ليس كل ما روى الرجل - وإن كان فاضلاً - يتبع ، ويجعل سنة . ويذهب به إلى الأمصار » وكان ضد الإكثار من الرواية . قال لابن وهب . وهو أقدم المصريين الكبار (ابن وهب - ابن القاسم - أشهب - ابن عبد الحكم) من تلاميذ مالك : « اتق هذا الإكثار وهذا السماع . الذي لا يستقيم أن يحدث به .

قال ابن وهب : إنما أسمع لأعرفه لا لأحدث به .

قال ما يسمع الإنسان شيئاً إلا يحدث به . وعلى ذلك سمعنا من ابن شهاب أشياء ما تحدثت بها . وأرجو ألا أفعل ما عشت . ولقد ندمت ألا أكون طرحت من الحديث أكثر مما طرحت .

ويروى ابن وهب كذلك نهيه عن كثرة الجواب ووصفه من أكثر الجواب بأنه . . يتكلم كأنه جمل مغتلم . يقول هو كذا يهدر في كل شيء . ولقد قال مالك لابن وهب : « لا تحملن أحداً على ظهرك ولا تمكن

الناس من نفسك أد ما سمعت وحسبك ولا تقلد الناس قلادة سوء » .

وابن القاسم يروى حواراً بينه وبين مالك قال لمالك : ليس بعد أهل المدينة أعلم بالبيوع من أهل مصر . (يقصد فقه البيوع كما ورد بالسنة) ورد مالك عليه : ومن أين علموها ؟ قال ابن القاسم : منك . قال مالك : « سمعت من ابن شهاب ، أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط . ولا أحدث بها . قيل لم ؟ قال ليس سألها العمل » .

ويروى أشهب : رأني أكتب جوابه في مسألة فقال : لا تكتبها فإني لا أدري أثبت عليها أم لا . ولقد سمعه ابن أخته إسماعيل بن أويس يقول : « إن هذا العالم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

وكان يقول : « ما قلت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء ولا قلت العلماء إلا ظهر فيهم الخفاء » .

ويقول : « ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله في القلب » ويعلم في نزاهة الأئمة أنه معرض للخطأ وأنه لا عاصم إلا في الكتاب والسنة فيقول :

« إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما خالف فاتركوه » وهو في هذه العبارة يقدم خطأه على صوابه ، آية تواضع وسماحة .

* * *

أما الذين يتكلمون في الدين بهواهم فأصحاب بدعة لا يناقشهم الشيخ لأنهم مرتابون ومريبون . حدث الشافعي قال : كان مالك إذا أتاه رجل من أهل الأهواء قال له : أما أنا فعلى بيعة من ديني . وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه .

والشيخ هو القائل : الذنو من الباطل هلكة . والقول في الباطل يصد عن الحق . ولا خير في شيء من الدنيا بفساد دين المرء أو مروءته ولا بأس على الناس فيما أحل الله لهم .

وفي المتكلمين المبدعين يروى أشهب : سمعت مالكا يقول : إياكم والبدع... أهل البدع الذين يتكلمون في الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته . ولا يسكتون عما سكنت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان .

ويروى عبد الرحمن بن مهدي أنه دخل على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن فقال : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام . ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة كما تكلموا في الأحكام والشرائع ولكنه باطل يدل على باطل .

وسأل مالكا رجل آخر عن خلق القرآن فأجابه : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد؟ لعن الله عمرأ فإنه ابتدع هذه البدعة .

وكان عمرو رجلاً صالحاً لكنه كان زعيم المعتزلة .

كان إبراهيم بن أبي يحيى فقيه المدينة ينسب إلى الاعتزال . فيقول فيه مالك : إذ يسأل عنه أكان ثقة في الحديث ؟ لا . ولا في دينه . فلقد كان المعتزلة أكثر شيء جدلاً . ومالك يقول عن الإغراق في الجدل « إنه يقسى القلب ويورث الضغن » .

ويبلغ به كرهه المتكلمين أن يقول : من طلب الدين بالكلام تزندق .

ومن طلب المال بالكيمياء أفلس. ومن طلب غريب الحديث كذب. وكان يعيب المرء في الدين ويقول: «أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل يريد أن يرد ما جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم جادلناه؟ ويكره الجدل الملح ويدع الأمر لله يهدي من يشاء. قال له إسحق بن عيسى: إني أرى الرجل على غير السنة. أجادله؟ قال مالك: لا ولكن تخبره بالسنة فإن قبل وإلا فاسكت عنه. وكان يقول: «من قال القرآن مخلوق يوجع ضرباً. ويحبس حتى يتوب». قال له رجل: ما تقول فيمن قال القرآن مخلوق؟ فرد: زنديق كافر اقتلوه. فاعتذر الرجل بأنه ينقل كلام الآخرين. قال مالك: لم أسمع من أحد وإنما سمعته منك!!

ويقول مالك من شتم رسول الله قتل. ومن شتم أصحابه أدب. فلم يكن يقبل القدح في الصحابة.

ويقول عن القدرية: أي الذين ينفون القدر: قوم سوء لا تجالسوهم. ولا تصلوا وراءهم وإن جامعوكم في سفر فأخرجوهم. ويقول: «ما رأيت أحداً من أهل القدر إلا أهل سخافة وطيش وخفة».

ويتحدث عن قول عمر بن عبد العزيز من جعل الدين غرضاً للخصومات أكثر التنقل فيقول: وأراه يعني أصحاب الأهواء. ومالك يقول فيهم: «بش القوم لا يسلم عليهم. واعتزلهم أحب إلي».

انصرف يوماً من المسجد وهو متكئ على يد معن. فلحقه رجل يقال له ابن الجويرية كان يتهم بالإرجاء فقال له: يا أبا عبد الله اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأى فإن غلبتني تبعتك. قال فإن غلبتني؟ قال اتبعني قال: فإن جاء رجل فغلبنا قال: اتبعناه قال مالك: بعث الله محمداً بدين واحد وأراك تتنقل— قال عمر بن عبد العزيز: «من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل».

والإيمان عند مالك قول وعمل. قال: أقام الناس يصلون نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم أمروا بالبيت الحرام فقال تعالى: (وما كان الله ليضيع

إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس. أى أن الصلاة من الإيمان. وهى عمل .
ويروى يونس بن عبد الأعلى تلميذ الشافعى أن ابن وهب قال : سئل
مالك عن الإيمان فقال قول وعمل . قلت أيزيد وينقص ؟ . قال : دع الكلام
فى نقصانه فكف عنه . فقلت فبعضه أفضل من بعض ؟ قال نعم .

فهو كان يطلق القول فى الإيمان ولا يطلق القول فى نقصانه إذ لم ينص الله
تعالى إلا على زيادته كما يروى ابن وهب. وفى رواية أخرى أنه قال : الإيمان
يزيد وينقص. واقد أجاب مالك ابن نافع يوم سأله عن ذلك عند موت مالك —
قد أبرمتمونى . إنى تدبرت هذا الأمر فما من شىء يزيد إلا وينقص . قال
ابن رشد — الجلد — وهو الصحيح والله أعلم .

وإمام السنة إمام فى تسامحها ، وفى الرجاء للمسلمين فى عفو الله يقول : « لو أن
العبد ارتكب الكبائر إلا أن يشرك شيئاً ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول
لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأرجو أن يكون فى أعلى درجة فى
الفردوس . مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

قال عمر بن حماد بن أبى حنيفة : أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع
قلت : لعل بعض الحساد ذكروا جدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر
لك مذهبه . فإن كان فيه رضاك فذاك وإلا فعطى . إن الإمام كان لا يخرج
أحدًا من الإيمان بذنب قال : أصاب ؛ قلت وكان يقول أكثر من هذا : وإن
أصاب الفواحش قال أصاب ؛ قلت وكان لا يكفر قاتل النفس . قال : أصاب ؛
فن قال غير هذا فقد أخطأ وكذب . قال بلغنى أنه كان يقول إيمانى كإيمان
جبريل قلت بلغك الباطل . كان يقول إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام
إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما بعثه إلى من قبله فأمره أن يدعو الناس إلى
الإيمان. فالإيمان إيمان واحد لا إيمانان أو ثلاثة . ولا إيمان هذا وإقرار ذا غير
إيمان ذا وإقرار ذا . فتبسم كالراضى ولم يقل شيئاً قلت : وكان ينكر الشك فى
الإيمان قال وما الشك ؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون إنا مؤمنون حتى يستثنوا !!!
ويقول أحدهم لا أدري أنا مؤمن أم لا ؛ فأنكر قول من يقول هذا .

هكذا جادل مالكاً أبو حنيفة ثم استمع مالك لحفيد أبي حنيفة .

* * *

ازدهرت مدرسة الرأي في حاضرة العراق الجديدة فواجهت حضارة العراق وهي تنفعل بالشريعة . ولم يكن بلغها من السنن كل تراث المدينة . وآية ذلك أن عليّاً وابن عباس وجدا أهل البصرة بعد خمسة وثلاثين عاماً من الهجرة ، لا يجيدون أحكام الزكاة فدعوا الموجودين من أهل المدينة ليعلموهم ! وكان عمر قد نبه الصحابة ومن معهم ممن أرسلهم إلى العراق أن يقللوا الحديث عن الرسول ، ويكثرُوا قراءة القرآن . فكان التفريع على الأصول المسلمة في الإسلام وسيلة مدرسة الكوفة لاستخراج الأحكام بالإضافة إلى ما ثبت لديهم من نصوص . وكان الاستدلال والاستنباط وسيلة لفهم عللها . والقياس عليها . ووجد العلماء العراقيون أنفسهم يقيسون ويفترضون تحت ضغط التطور دون زلل أو تعمل ، فالفقهاء حريصون في الكوفة على السنن حرص فقهاء المدينة .

والمدرستان في الواقع لا تصطرعان وإنما تتكاملان . وهما كلتاها مدرسة رأي وسنة معاً . وإن كانت مدرسة العراق قد ألهمت وألهمت حضارة تزداد بازدياد التقدم ، ووجود المدارس القديمة في فارس ، تتلاقى بها مدارس يونانية قديمة . وباضت ثمة وأفرخت مصادر شتى للخطر . ومالك يقول : « ما قلت الآثار في قوم إلا ظهرت الأهواء فيهم » . فاجتمع بالعراق قلة الآثار . وكثرة النزعات . في بلد كان ميدان حروب وانتفاضات . وحسبنا أن نشير بعض الإشارة إلى بعض الفرق .

الحوارج^(١) — نشأوا في العراق ومن نظرياتهم الفقهية — إنكار الأحاديث

(١) تحدثنا عن هذه الفرق في كتاب (الإمام الشافعي) واضع الأصول وناصر السنة . ابتداء من صفحات ١٦١ إلى ١٧٥ وحسبنا هنا بعض البيان :

الحوارج :

خرج جماعة من أنصار (علي) في صفين عليه إذ قبل التحكيم وتجمعوا في حروراء وحاربوه فهزمهم في النهروان سنة ٣٧ ثم قتله واحد منهم وانقسموا فرقاً مبدؤها العام الرضا عن الشيخين أبي بكر وعمر والبراءة من عثمان لما نقموه عليه ومن على لأنه قبل التحكيم . ومن معاوية لأنه غلب على الأمر عنه . =

التي لا ترد عن تولوه من الأئمة. وتولوا أبا بكر وعمر وعثمان في السنوات الستة الأولى من خلافته . ونظريتهم في الإمامة أنها لمن يصلح من المسلمين .

= ومن مبادئهم أن الخلافة حق لأصلح المسلمين ولا يشترط أن يكون قرشياً. وأن لا طاعة للإمام إذا خرج عن حدود الدين . ومن تعدى حدود الله من المسلمين فاسق والفاسق كافر . وكفروا مرتكبى الكبائر . وعدوا من ظاهر معاوية ولم يتبرأ من على وعثمان خارجاً من الملة . وهم يعتمدون على ظواهر القرآن ولا يقبلون من السنة إلا ما رواه من يرضون عنه ومن الأحاديث إلا ما تداوله الناس في عهد أبي بكر وعمر . فنفر منهم الجمهور. وكان منهم عكرمة مولى ابن عباس فكان مالك . ومسلم ، لا يأخذان بأحاديثه .

كانوا في الدفاع عن عقيدتهم صناديد نزدان يبطلونهم صفحات التاريخ الإسلامى في الورع وفي الحرب . وكان بطش خصومهم أكبر - ثبت أبو بلال في القتال حتى جاء وقت صلاة الجمعة فوادع أعداءه من جيوش الخليفة ريثما تنتهى الصلاة فوادعوه . ورمى قومه الأسلحة . وعمدوا للصلاة فجاش إليهم الموت من جيش الخليفة فاستشهدوا جميعاً بين راكم وساجد وقاعد لا يخرجون من الصلاة . وكان نساؤهم كرجالهم استبسالا في الحروب علم أبو بلال أن ابن زياد يعتزم - التنكيل بواحد منهن تدعى البلجاء . فنبهها لتهرب قالت إن يأخذنى فهو أشقى بى - فكان أشقى بها . . . قطع يديها ورجليها وصلبها عريانة !

ولما حبس أحدهم بهر السجن بورعه فعرص عليه السجن أن يدعه يبيت في داره . ويعود قبل الصباح كل ليلة حتى إذا كانت ليلة أمر عيد الله بن زياد بقتل السجناء فلما كان السحر تهيأ السجناء للعودة . قال له أهله اتق الله فإنك إن رجعت قتلت : قال ما كنت لألقى الله غادراً . ومضى إلى السجن قال : لقد علمت ما عزم عليه صاحبك - قال السجناء . أعلمت ورجعت ! .

الشيعة :

أشباع أمير المؤمنين على . انقسموا فرقاً - منها الإمامية والرافضة ومنها فرقة تجعل إمامتها إلى عبد الله ابن محمد بن الحنفية . ابن على من غير فاطمة الزهراء . وهو يكنى أبا هاشم قيل إنه أوصى عندما حضرته الوفاة إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس لأنه مات عنده بالشام . وهذا أوصى إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم قبل أن يقتله رجال مروان بن محمد إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد (السفاح) فكان هذا مدخل العباسيين الشرعى إلى الخلافة. ومن فرقهم الزيدية نسبة إلى زيد بن على بن الحسين وفي زيد وأهله يقول أبو حنيفة : « شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله فما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً لقد كان منقطع القرين » وكان يسمى حليف القرآن وقد نسب إليه (المجموع لزيد) متضمناً فقه الشيعة متأثراً بفقه العراقيين حتى ليكاد يظهر فيه منهج العراقيين . ولو صح نسبته إلى زيد لكان في طليعة مدونات القرن الثانى . وقد قتل زيد سنة ١٢٢ و قتل ابنه يحيى في سنة ١٢٥ . ساد مذهبه بلداناً منها خراسان والديلم واليمن وقامت دول شيعية متعددة - في بلدان الإسلام =

ونجمت مخاطر أخرى على فقه المدينة بقيام المتكلمين والقدرية والمعتزلة وكانوا أشتاتاً : لكن خطرهم جميع على السنن . وكان ثمة فرق أخرى .

وكان بالعراق عباقرة فكر . وأساطين فقه . وأبو حنيفة إمام الاتباع في العراق وإمام الاجتهاد في الإسلام . يعلن نظريته في الإيمان أنه إيمان بالقلب وإقرار باللسان لا يزيد بالعمل ولا ينقص . وأن الغيب لله وأنه يغفر لمن يشاء — وهي فلسفة فقهية استفاد بها المرجئة إذ يرجئون الحكم إلى حساب الآخرة . وإن كان عمل أئى حنيفه في الدين بزهادته وتعبدته يهتدى به العباد والزهاد . في عصره وما بعد عصره .

وأصحاب مبدء الإرجاء يستفيدون الثبت مما صنعه العظام من رجال الإسلام . مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد . إذ لم ينضموا إلى فريق من الفرق المتنازعة يوم الجمل أو يوم صفين :

وتبعهم الجمهور إذ يرجى الفصل بين من صلوا بنار الحرب ، إلى الخالق سبحانه يوم الحساب . ويرفع عثمان وعائياً إلى مقامهما العلى بين الخلفاء الراشدين .

* * *

كانت الكوفة والبصرة في العراق عاصمتين جديدتين للغة والفكر والفقهاء تعدو مدارسهما عدواً للملاحقة الانفعال الاجتماعي والاشتغال الفكري بالعراق حيث تقع الحروب الداخلية أو تنشأ أسبابها . وحيث اجتهادات الفكر والفقهاء تسير في خط مواز لاجتهادات المتحاربين — سعيًا وراء نظام جديد للدولة تكون فيه الصدارة للعراق بدلاً من الشام .

وبلغت الحروب عايتها بقيام الدولة الجديدة . للعراق . في عاصمتها الكوفة . ولم تجد الكوفة أو بغداد بعد ، رضاها في معاملة أهل المدينة لها . ولا وجدته المدينة من الدولة الجديدة مع قيام دولة بني العباس على أساس ديني هو عودة الخلافة إلى بيت النبي .

وكان لزاماً على الدولة أن تسعى إلى المدينة تطلب فقهها وسننها . . وسعى أول خلفائها — السفاح — إلى توطيد أركانها بسفك دماء بني أمية في الشام وإلى

استرضاء المدينة باستدعاء عالمها — أستاذ مالك — ربيعة بن أنى عبد الرحمن إلى الكوفة .

ولما قضى السفاح نحبه سعى أبو جعفر سعيه . إذ خلفه . فقارب مالك بن أنس وهو الذى خلف ربيعة — بل هو طالب إليه سنن المدينة ليحمل المسلمين عليها من كل أرجاء العالم .

ولم يستقر الأمر لفقهاء العراق . بعد أن انتهت إليهم ولاية القضاء بولاية أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة وظيفة قاضى القضاة وتعيين القضاة منهم فى عهد الرشيد . مذ بزغ بمكة الشافعى تلميذ مالك . وقصد منها إلى بغداد يحلى — بجدا له — فقهاءها عن مقاعدهم .

وكان سلوك فرق العراق بكثرة التفريع والافتراض وتشقيق الفكر والكلام مشغلة علماء السنة فى العراق ذاته .

فالشعبي علامة التابعين فى القرن الأول بالعراق يقول . « احفظ عى ثلاثاً : إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك : رأيت . وإن الله قال فى كتابه "أرأيت من اتخذ إلهه هواه" حتى فرغ من الآية . والثانية إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئاً فربما حلت حراماً أو حرمت حلالاً . والثالثة إذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم وأنا شريكك » . وإذا كان الشعبي يقول ذلك لتلاميذه فمالك — كهيئة الشعبي — يجيئه من المغرب من يقول إن الأهواء كثرت فى بلاده . « فجعلت على نفسى إن رأيتك أن آخذ بما تأمرنى به . فيصف له شرائع الإسلام : الصلاة ، والصوم ، والزكاة . والحج . ثم يقول : خذ بهذا ولا تخاصم أحداً » ويقول لتلميذه ابن وهب : يا أبا عبد الله ما علمته فقل به . ودل عليه وما لم تعلم فاسكت .

ومالك تلميذ عظيم فى مدرسة ابن عمر وقد كان يقول : ذرونى من رأيت — وأرأيت : فكان مالك يسمى أهل العراق الأرايتيين .

والسؤال عما لم يقع كالسؤال عما لا ينفع كلاهما تكلف والله تعالى يقول . (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) . وإذا كان السؤال لمعارضة

السنة والكتاب بالرأى فهو ، كالسؤال عن المتشابهات : لا ينبغي لمؤمن . والله يقول :
(فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه) .

ولما سئل مالك عن الاستواء على العرش قال ببساطة : الاستواء معلوم
والكيف مجهول . والسؤال بدعة . ومالك فى هذا الرد يتابع رد ربيعة عندما سئل
السؤال ذاته فأجاب : « الاستواء غير مجهول . والكيف غير معقول — ومن الله
الرسالة ومن الرسول البلاغ — وعلينا التصديق » .

وترك الاعتراض فى مقام الطاعة والنصح محمداً . قال على : دخل على رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعلى فاطمة من الليل فأيقظنا للصلاة فجلست وأنا أعرك
عينى وأقول : « إنا والله ما نصلى إلا ما كتب لنا . إنما أنفسنا بيد الله . فإن
شاء أن يبعثها » . . فولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول :
(وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً) . . .

وفد حزن . جد سعيد بن المسيب . على الرسول فقال له ما اسمك قال حزن :
(ومعناها فى اللغة صعب) قال الرسول . بل أنت سهل . قال حزن : لا أغير
اسماً سمانى به أبى . قال سعيد الحفيد — فما زالت فىنا الحزونة حتى اليوم .
والجدال الذى لا يقصد به بلوغ الحق لدد . وفيه قوله تعالى : (ومن الناس من
يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام) .
ونبي هذه الأمة يقول : « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصيم » .

ومثل الاعتراض ، وكثرة الافتراض ، الكلام فيما ليس تحته عمل . وكان
مالك يكرهه متبعاً فيه ما جاء عن عمر حين غرب صبيغاً وشرده لأنه يكثّر السؤال
عن أشياء من علم القرآن لا يتعلق بها عمل . وربما أوقع الكلام فيها خبالاً وفتنة .

» . . «

والكلمة قوة . وهى فى زمانها أقوى ، وفى مكانها أقطع . ولذلك حق على
المفتى أن يحجب مراعيًا للظروف . روى ابن عباس عن ابن عوف أنه قال :
« لو شهدت أمير المؤمنين — أتاه رجل يقول : لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلانا .
فقال عمر : لأقومن العشية فاحذر هؤلاء الرهط . قلت لا تفعل فإن الموسم يجمع

رعاع الناس . ويغلبون على مجلسك وأمهل حتى تقدم المدينة ، دار الهجرة .
ودار السنة ، فتخلص بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . من المهاجرين
والانصار ويحفظوا مقاتلك وينزلوها على وجهها . فقال : والله لأقومن في أول
مقام أقومه في المدينة .

وأهل الورع يفتنون أهل الورع . على مراتبهم . سألت امرأة الإمام أحمد
عن الغزل في ضوء مشاعل السلطان . فسألها من أنت ؟ فقالت أخت بشر الحافي
(وكان زاهد العصر) فأجابها بترك الغزل بضوء السلطان .

وكان بشر من أولاد الرؤساء تعلم ثم تزهد . قيل له بأي شيء تأكل
الخبز . قال : أذكر العافية فأجعلها له إداما . وكانت له ثلاث أخوات عابدات
قانتات . منهن السائلة المشار إليها . ومنهن التي سألت ابن حنبل أيضاً : هل أنين
المريض شكوى ؟ فأجاب : إني لأرجو ألا يكون شكوى ولكن هو اشتكاء إلى
الله تعالى .

ومالك لا يضمن على الخلفاء بموعظة ، وينصح الولاة جهده . كان مع الوالى
مرة ، فسمع أحد الرعية يثنى عليه فقال له (إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم . فإن
من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر
ما ليس فيك . فاتق الله في التزكية منك لنفسك ولا ترض بها من أحد يقولها
لك في وجهك فإنك أنت أعرف بنفسك منهم . فإنه بلغنى أن رجلاً مدح عند
النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قطعتم ظهره أو عنقه . ولو سمعها ما أفلح »
وقال : « احثوا التراب في وجوه المداحين » .

والشيخ يستعمل مع نفسه من التحرج والتواضع والحيلة ما يوجب على العلماء
كافة ، حيث يقول : « لا يكون العالم عالماً حتى يكون كذلك وحتى يحتاط لنفسه بما
لو تركه لم يكن عليه إثم » .

* * *

وسماحة مالك وتيسيره الحياة للناس درس من دروس حياته يكاد يتبدى في
كل بادرة تبدر منه فيما عدا نظام الحلقة واتباع السنة . والسنة هي (الحنيفية

السمحة) وهو سمح كريم في قوله وعمله . يقول : « لا بأس على الناس فيما أحله الله لهم » وذلك شكر لأنعم الله عليهم .

فالك يطعم الطعام الجيد إذا كان في متناوله . ويشتره ما قدر عليه . ويُفضل على أهله وتلامذته . ويلقى الناس وأهله بوجه كريم مستبشر . ويرى ذلك من سنن الإسلام وعمل الصحابة . يهدي ويهدي إليه ، ويقبل جوائز الخلفاء . ولقد تلقى تلميذه أسد بن الفرات جوائز إبراهيم بن الأغلب وقال : تلك حقوقنا عنده . والله سائله عما بقي . ولم ترق وسائل الراحة التي يتوسل بها الشيخ لواحد من زهاد جيله ، فآلت إلينا كلمات معلمة تبادلاها . يقول يحيى بن يزيد النوفلي : « ... إلى مالك بن أنس . أما بعد فقد باغنى أنك تلبس الدقاق . وتأكل الرقاق . وتجلس على الوطىء وتجعل على بابك حاجباً . وقد جلست مجلس العلم . وقد ضربت إليك المطى وارتحل إليك الناس واتخذوك إماماً ورضوا بقولك . فاتق الله يا مالك . وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالنصيحة منى كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى . والسلام » .

هذا الكتاب الذى لم يطلع عليه إلا الله تعالى قد ذاع على الأسماع عن طريق مالك . فلقد أراد كاتبه أن يكون درساً لمالك وأراد مالك أن يكون الكتاب والرد عليه درساً من دروسه للأمة . قال يرد في تواضع الأئمة : « أما بعد فقد وصل كتابك فوق منى موقع النصيحة . والشفقة والأدب . أمتعتك الله بالتقوى . وجزاك بالنصيحة خيراً . وأسأل الله تعالى التوفيق . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء فنحن نفعل ذلك . ونستغفر الله تعالى . فقد قال الله تعالى : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) ، وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه . ولا تدعنا من كتابك . فاسنا ندعك من كتابنا والسلام » .

وينبه الغزالي على رد مالك بقوله . فانظر إلى إنصاف مالك . إذ اعترف

أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأقوى أنه مباح . وهذا الذى يسميه الغزالي إنصافاً يقابله أو يكمله قول سفيان الثوري الإمام العابد الزاهد إلى أبعد الحدود : « الزهد فى الدنيا ليس بأكل الحشن ولا بلبس الغليظ . إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا . وإن الرجل ليكون فقيراً . وهو راغب فيها » .

وإنما استغفر مالك من عدم تقشفه . فترة وجيزة من الدهر أو من العمر . فلقد كان فى عهد أبى جعفر قد تخطى الخمسين وكان يخفى عن جيرانه بكاء بنته من الجوع . والزهد أزكى للنفس . ولقد بين ليحيى لإباحة الاستمتاع بما أحل الله من الطيبات لعباده . فإنما هو خير ساقه الله إليه . ولقد استغفر ورعاً ، لأنه قضى الربع الأخير من حياته بعد أن صلح باله فى راحة جسدية نسبية ، ليس فيها ترف . يبررها له علوسه بالنسبة للأئمة جميعاً بما فيهم أحمد وأبو حنيفة — وإنما أتاحت له هذه الراحة أعطيات من الخلفاء لم يتخلف عنها كلها عند موته إلا ثلاثة آلاف دينار وثلاثمائة دينار ونيف .

لكن مالكا قد خلف للأمة مقولة أخرى لا تقل أهمية عن الدرسين السابقين إذ يقول : « طلب الرزق ولو فى شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس » ذلك أنه يحض على العمل . بلغة الفقيه . والرسول عليه السلام يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير من أن يسأل الناس » .

ولقد عمل الأئمة قاطبة . وعمل جلة الفقهاء وكل ميسر لما خلق له : كان ابن حنبل يعمل بالكراء ليسد خلته ، وأبو حنيفة يتجر ويبذل الآلاف من كسب يده للتلاميذ وغير التلاميذ ويقول لمن ينهبه على أن له أولاداً : الله للعيال أو يقول : وفى السماء رزقكم وما توعدون .

والشافعى يقضى حياته فقيراً كادحاً ، يعلم أو يعمل ، وكأنما لم يكن لبدنه عليه حق . وتصدر مالك العمال فى حلقة التدريس ابتغاء مرضاة الله فهو عامل ومحتسب . وكان لازماً أن يعلم الناس أن ليس فى الاستمتاع بطيبات الحياة بأس . فهى عدة للبقاء وحافز للتقدم فى أنفس البشر فى الحياة الدنيا ، وكان لازماً أن يعلم الفقهاء خاصة ، وأن ينبه من تقتدى بهم الناس عامة ، على أن ترك الاستمتاع

خير من الدخول فيه . وما كان استغفاره لجريرة قارفها وإنما هو ورع الأئمة .
والعمل في الفقه ذروة في الفضل . قال عليه السلام ما رواه ابن عوف :
(يسير الفقه خير من كثير العبادة) وما رواه ابن عمر (مجلس فقه خير من
عبادة ستين سنة) أو كما قال أبو الدرداء : وكان من الفقهاء الزهاد : ما نحن
لولا كلمات الفقهاء ^(١) وصح عن ابن عباس ، قوله عليه السلام : « فقيه واحد أشد
على الشيطان من ألف عابد » .

وإذا كان الفقه أشد على الشيطان من الانقطاع لمطلق العبادة فالعمل ، في
خدمة الجماعة وتعليمها من أعظم العبادات .

كتب بعض العباد إلى مالك يحضه على الانفراد وترك مجالسة الناس ^(٢)
فرد عليه متخشعاً في تواضع يليق بالتعليم . قال : « إن الله قسم الأعمال كما قسم
الأرزاق ، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصيام . وآخر فتح له
في الصدقة ولم يفتح له في الصيام وآخر فتح له في الجهاد . ونشر العلم من أفضل
الأعمال . وقد رضيت بما فتح لي فيه . وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه .
فأرجو أن يكون كلانا على خير وبر » .

(١) كان أبو الدرداء يسمى حكيم هذه الأمة ، وكانت زوجته أم الدرداء فقيهة مثله وزاهدة ،
رفضت زواج معاوية وهو خليفة بعد موت أبي الدرداء . وفيه وفي صحبه يقول مسروق : وجدت علم
أصحاب محمد انتهى إلى ستة - إلى عمر وعلى وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ وأبي الدرداء وزيد بن ثابت .
دخل المسجد يوماً ومعه الأتباع مثل ما يكون مع السلطان وهم يسألونه . إذ أثر التعليم .

يقول أبو الدرداء : بعث النبي وأنا تاجر . فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة فلم يجتمعا .
فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة . والذي نفسى بيده ، ما أحب أن لي حانوتاً على باب لا تخطئني فيه
صلاة وأربع فيه كل يوم وأتصدق . . قيل وما تكره من ذلك ؟ قال شدة الحساب . وهو القائل . أحب
الموت اشتياقاً إلى ربي وأحب الفقر تواضعاً إلى ربي وأحب المرض تكفيراً لخطيئتي .

(٢) والصوفية يقولون : « لو عرف الملوك ما نحن عليه لحاربونا عليه بالسيوف ليظفروا به » .
ولعل هذا الهم الملك ما عناه قايتباي . . وكان قد استجلب في صباه إلى مصر ، مع مملوك آخر ، فتحدثا
في الطريق مع الجمال في ليلة قمراء قالوا : لعلها ليلة القدر . فليتمن كل منا الأمانى . قال قايتباي :
أريد سلطنة مصر . وقال زميله أريد أن أكون أميراً كبيراً . وقال الجمال : أريد حسن الختام .
ومضت الأعوام فقال قايتباي : وقد صار سلطاناً لمصر لزميله وقد صار أميراً كبيراً - لقد فاز
الجمال من بيننا .

والقناعة سعادة . والطمع فقر . واليأس عناء وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الزهد في
الدنيا يريح القلوب والبدن » .

* * *

والشيخ في قمته العالية يرأس الشيوخ العلماء ويكتب إليهم من موقع العظمة الذي استقر فيه ، وأصبح من حقه عليهم أن يلفت أنظارهم ولو كانوا أئمة !! أو كانوا من لداته . فحلقة المدينة تمكنه من روادها الفطاحل ، وموقعه بالمدينة درجة .

والريح تجرى رخاء بين مالك والليث فهما يتحاوران في تراث المدينة أرفع حوار ، فيستفيد مالك ويفيد . وربما دلت كتابة الليث بن سعد إليه وكتابه إلى الليث . على بعض الأسباب التي جعلت مالكا يرفض طلب أبي جعفر المنصور أو المهدي أو الرشيد ، إلزام الأمة كلها بفقهاء ، تاركاً للأمصار فقهاء . وربما دل مالكا على ذلك جداله مع أبي حنيفة . لكن المؤكد بيقين أن في سماحة مالك في الفكر . ويسر المدينة . ومرونة الشريعة . الأساس لرفض طلبات هؤلاء الخلفاء .

كتب مالك إلى الليث ينبهه على أن الناس تبع للمدينة التي كانت إليها الهجرة ورد عليه الليث محرراً وجوه الخلاف . في أروع أدب فقهي . فذكره بما شهداه معاً من خلاف أهل المدينة أنفسهم . ومن عمل الآخرين كعمر ابن عبد العزيز وأبي بكر بن حزم وينهى الليث الحوار بكلام عذب . « وقد تركت أشياء كثيرة أشباه هذا وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك . لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك . مع استثناسي بمكانك وإن نأت الديار . هذه منزلتك عندي ورأى فيك فاستيقنه . ولا ترك الكتابة إلى بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة ، إن كنت إليها ، أو لأحد يوصل بك . فإني أسر بذلك . كتبت إليك ونحن صالحون معافون . والحمد لله . نسأل الله أن يرزقنا وإياكم من شكر ما أولينا وتمام ما أنعم به علينا والسلام عليكم ورحمة الله »^(١) .

(١) نثبت فيما يلي كتاب مالك لدلالته على منهجه ونسبت بعضاً من رساله الليث لطولها . مقتصر بن على أمثال منها ففيها ما يرد به الآخرون على مناج مالك وفي الكتابين مثل بارة لحس الخطاب .
« من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد . سلام عليكم فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو -
أما بعد . عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكروه . »

= واعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه الناس عندنا . وببلدنا الذي نحن فيه وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك ، خليك بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو الناس باتباعه فإن الله تعالى يقول في كتابه : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . . الآية) وقال تعالى : (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . . الآية) .

فإنما الناس تبع الأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن . وأحل الحلال وحرم الحرام إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله واختار له ما عنده . صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته . ثم قام بعده أتبع الناس له من أمته من ولى الأمر من بعده من نزل بهم . فاعلموا نفذوه . وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه . ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهدهم وحدثاه عهدهم وإن خالفهم مخالف أو قال أمراً غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره . ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به لم أر لأحد خلافه الذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها . ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل بببلدنا وهذا الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم .

فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك . واعلم أني أرجو ألا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده والنظر لك والضم بك فأنزل كتابي منزله فإنك إن فعلت تعلم أني لم آلك نصحاً . وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال والسلام عليكم ورحمة الله .

وفيما يلي مقتطفات من كتاب الليث هي أمثال لعشرات من المسائل التي تضمنها يناقض فيها مالكا يقول :

سلام عليكم . فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو .

أما بعد ؛ عافانا الله وإياك وأحسن لنا العافية في الدنيا والآخرة . قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه . وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك . وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك . وقد أتنا فجزاك الله عما أقدمت منها خيراً . فإنها كتب انتهت إلينا عنك . فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها .

وذكرت . . . وأنه بلغني أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم . وإني يحق على الخوف على نفسي - لاعتماد من قبلي على ما أفتيهم به وإن الناس تبع للمدينة التي إليها كانت الهجرة . وبها نزل القرآن وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى . ووقع مني بالموقع الذي تحب وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلاً لعلماء المدينة الذين مضوا ، ولا أخذاً بفتياهم فيما اتفقوا عليه مني . والحمد لله رب العالمين لا شريك له . =

.

= وأما ما ذكرت من قوله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم) ؛ فإن كثيراً من أولئك السابقين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله . فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه يحتمدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم . ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم . كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه . فلم يتركوا أمراً أمراً به القرآن أو عمله النبي صلى الله عليه وسلم . أو اتهموا فيه بعده إلا علموه . فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا . . مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة . ولولا أني قد عرفت أن قد علمتها لكتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . سعيد بن المسيب ونظرائه أشد الاختلاف ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم فحضرهم بالمدينة ورأسهم يوشع ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن . وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه وقول ذوى الرأي من أهل المدينة : يحيى بن سعيد وعبيد الله . . وكثير بن فرقد وغير كثير ممن هو أسن منه حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه . وإذا كرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت تكرهان من ذلك ما أكرهه ومع ذلك فعند ربيعة خير كثير . . . رحمه الله .

وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه . وإذا كاتب بعضنا فربما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً . ولا يشير بالذي مضى من رأيه في ذلك . فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه .

وأخذ الليث يجادل مالكاً في خلافاً في فقه مالك ذاته ثم عاد يذكر له : « وقد بلغنا عنكم شيء من الفتيا مستكره . وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي . فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك فتركت الكتابة إليك . في شيء مما أنكرت وفيما أوردت فيه على رأيك . . . »

الباب الرابع مجتمع المدينة

« لا يكيد أهل المدينة »
« أحد إلا انماع »
« كما ينماع الملح في الماء »

المجتمع هو الوجه الخفي أو الجانب الخفي لصورة العالم الذي يعلمه ويتعلم عليه . ففيه تنبت الشجرة ، وتنجلي ملامح الصورة . وكان مجتمع المدينة في عصر مالك يعيش في موارد مجد ودين وحسب ونسب ، وأموال تخوفها الإنفاق والشقاق مع العاصمة ، فأصيب بالضيقة والفاقة . وتعالى الشاؤون كالقمم وإن اخترمهم الدهر . وآثر المؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة . كل أولئك مع التواصل والتراحم والسلام فيما بينهم . وهي بعض خصائص المجتمع الإسلامي .

وفي خواتيم القرن الأول ولي إمرة المدينة عمر بن عبد العزيز فأعاد ذكر جده عمر . ولما عزل ارتبط فكره بالمدينة ارتباط عقل ودين . فلما آلت إليه الخلافة على رأس القرن اتخذها طريقاً إلى الجنة . فابتغى الوسيلة لإنصاف المدينة ، والأمة . ثم عادت المدينة بعده إلى العيش الرمق . وكان مالك بن أنس طفلاً يغشى حلق الفقه ، وفي أذنه شنف ، وفي مسمعه طنين من سيرة عمر . ولجده وعمر بعمر عهد . وسيكون بين مناهجيهما وشيعة جامعة .

هذا موضوع الفصل الأول من الباب الحالى . وفي الفصل الثانى وقائع مركزة موجزة ترمز إلى خصائص هذا المجتمع . دون أن تؤدي إلى تيهاء ، فيما ازدهر فيه من شعر ، واستطار من غناء ، استمع إليه الكبراء . وما نسب من الغناء إلى عمر بن عبد العزيز ثم إلى أشهر فقهاء المدينة في القرن الثانى وما بعده : مالك ابن أنس .

الفصل الأول

مجتمع المدينة

الحلقة عالمية الطابع لكن الشيخ « مدني » فقط من قمة الرأس إلى أخمص القدم . بارح تلاميذها بلدانهم إلى بلده يمثلون أصقاع الجماعة الإسلامية لا يكاد يتخلف منها صقع واحد .

أما الشيخ فلا يبرح بلده إلى أى بلد — إلا كما يبرح الحاج ، إلى مكة . والشيخ عندئذ لا يبارح بلده فالحجاز إقليم واحد . والتلاميذ يتوافدون لينهلوا من المورد الذى لا مورد مثله : مورد المدينة .

كان مجتمع المدينة مجتمع الدولة الإسلامية مذ كانت الأولوة من عواصمها . ثم ظلت عاصمة عواصمها . وظل فيها سروات وأشراف . إلى جوارهم موال وعبيد . فيها الأغنياء والفقراء والمتعلمون والعمال . والشعراء والنسك . وأصحاب المحبون وأصحاب الغناء . وفيها النساء العظيمات كالرجال العظماء . وفيها من الأسرة الحاكمة وفيها خصومها . وبنو هاشم وبنو الصحابة إلى جوار بني أمية وبني العباس . وفيها العرب الأصليون ، والفرس والروم والمصريون والأفارقة . والعراقيون والشاميون .

وفيهم ثلة أوتيت سعة من المال وقلة أوتيت بسطة من العلم . وعاشت الحلقة بداية دولة ونهاية دولة . وعاش مالك ختام القرن العظيم وأكثر القرن الذى يليه . فرأى رأى العين كيف يغير التاريخ وجهه . فيقلب صفحة بعد صفحة ، من سقوط بني أمية إلى صعود بني العباس . ومن بطش الولاة بالمدينة . والخلل والمسغبة اللذين يصحبان الهزيمة ، إلى دخول الخوارج . وخروج العلويين . مرة بعد أخرى ، ومصارعهم مصرعاً مصرعاً . كل أولئك رآه مالك واحتفظ بالنظرة الفاحصة لنفسه دون أن يشغب على الخلفاء أو ينفصل عن العامة . .

وكان في قمته العالية قد رقى إليها درجة درجة . فبلغ الذروة . ثم غدا ، هو والمدينة ، شيئاً واحداً . تتلاقى فيه علومها جمعاء وتاريخها كله .

تفردت عاصمة الإسلام في معزلها عن الحواضر الأخرى بطراز من العلاقات التي تتابعت في القرنين . فكانت دمشق في إبان حكم بني أمية تحكمها بالحديد والدم . وترتجى رضاها . دون أن يحسب طغاتها حساباً لقول الرسول : « لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء » فكانوا يناعون واحداً إثر واحد وإن أرسلوا إليها يوماً رأس زيد بن علي لتصلب فيها .

وكانت مكة في خلافة ابن الزبير مقراً له فلفها معها في رداء واحد . فذاقنا معاً مرارة العلقم ، وصعقات الحجاج وعبد الملك . ثم غزاها الخوارج واسترهبوها وذبحوا بنيتها .

أما بنو العباس فلدوا إليها بكل سبب من اليسر والمهادنة فلم تهادن . بل راحت تثور مرة إثر أخرى . فبطش بها أبو جعفر البطشة الكبرى . وأرسل إليها رأس علوى آخر . محمد بن عبد الله بن الحسن .

وأخذ أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فقضت المدينة أياماً حسوماً نحسات ، تصب الأذى على الناس في الأرزاق . وكان أكثرها أعطيات من الخلفاء . وحقوقاً في بيت المال تصلهم أو تنقطع عنهم إذا رضى الخلفاء ، أو طووا كاشحين . أو أقبلت الأيام ، أو أدبرت . وكانت عيشة جمهرتها في الحملة عيشة ضنكا . ولم تكن حياة سروعاتها مترفة بل كانت أدنى إلى الخصاصة منها إلى البلهنية والراحة .

لقد انقضت مائة عام أو أكثر على الأيام التي حكمت فيها المدينة العالم كله ، وجبيت إليها أموال الإمبراطوريتين اللتين كانتا تتقاسمان خيرات العالم . وعمر بن الخطاب في مسجد الرسول يجلس حيث يجلس مالك بن أنس الآن . تزدهم ساحته بالأموال حتى يبكي عمر خوفاً على المسلمين من فساد أنفسهم بالمال ولا يدري من كثرة المال : أيجثولهم أم يكيل لهم بالصاع . ويسارع في تفريقه حتى لا تتأخر الحقوق عن ذويها .

روى سعيد بن المسيب : لما قدم عمر بأخماس فارس قال : « لا يجنّتها سقف تحت السماء حتى أقسمها بين الناس » فأمر فوضعت بين صنى المسجد . وأمر عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم فباتا عليها . ثم غدا عمر فأمر بالجلابيب فكشفت عنها . فنظر إلى شيء لم تر عيناه مثله من اللؤلؤ والجوهر والذهب والفضة . فبكى . فقال له ابن عوف : هذا من مواقف الشكر فما يبكيك ؟ قال : أجل . ولكن الله لم يعط قوماً مثل هذا إلا ألقى العداوة والبغضاء بينهم . . ثم قال : أنحنو لهم أم نكيل لهم بالصاع ؟ ثم أجمع رأيهم أن يحنّو لهم . فحنّا .

وفي عصر معاوية . باع حكيم بن حزام بن خويلد (ابن أخى أم المؤمنين خديجة) داراً له من معاوية بستين ألفاً فقليل له غبنك معاوية فقال : والله ما أخذتها في الجاهلية إلا بزق خمر . أشهدكم أنها في سبيل الله . فانظروا أيّنا المغبون .

وفي عهد عثمان بيعت جارية بوزنها دراهم كما يقول ابن سيرين وبيع فرس بمائة ألف درهم ونخلة بألف درهم لأن المال كثر في أيدي القادرين على الشراء . وفي العهد ذاته تخارجت إحدى زوجات عبد الرحمن بن عوف الأربعة على ثمانين ألف أو مائة ألف .

وتناقل الناس أحاديث مواكب عائشة بنت طلحة وهي تحج في القرن الأول فتزرى بموكب زوجة الخليفة عبد الملك بن مروان ، بنت الخليفة يزيد بن معاوية .

لكن أموال عائشة لم تكن من بقايا ميراث طلحة بن عبيد الله . وقد تأثرت بالميراث والأحداث ، قدر ما كانت أموالاً وافدة من بعيد . لقد مهرها زوجان كل منهما ألف ألف درهم . أما بنتها نفيسة فقد تزوجها الخليفة الوليد .

والمدينة واحدة في قفر . والرزق نزر . والزرع سقيم في الصحارى الساخنة . قال عمر في إحدى خطبه : إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك .

أما من عظم عطاؤه أو ثراؤه ، أو كانت لهم تجارة في موسم الحج أو غيره ،

مع البلدان البعيدة فكانوا يستبقون الخيرات ، ويؤثرون على أنفسهم فيحملون هموم الكثرة الكثيرة . ممن لا يجدون إلا جهدهم ، وأفراغ الله صبراً على من لا يجدون . ولم يكن الأمر غمة على آخرين . فصاروا يستدينون في انتظار ورود الأعاطي : كعطاء رجل ريش معاشه وفشا ريشه ينال الجميع من عطائه : ذلك عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ^(١) .

وكان زين العابدين — علي بن الحسين — من مصادر الرزق المجهولة في المدينة . كان ناس من أهلها يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم ! فلما مات تفقدوا كل ما كانوا يؤتون به في الليل !

* * *

مضى قرن توزعت فيه الثروات . وغلقت فيه أبواب السعي للرزق — وأمسى أهل المدينة سواسية في مستواهم إلا من انتعش وارتاش من حواشي الحكام مباشرة أو غير مباشرة .

وتطورت السجايا في الأسر ، مثل تطور الزمن :

كانت غلة طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه كل يوم ألف درهم واف ، وسخاؤه يفوق الخيال . ثم مضت أجيال . فعاتب الناس حفيده محمد بن عمر في بخله ! وكان قاضياً على المدينة لأبي جعفر . فقال : لا أحيّد عن الحق ولا أذوب في الباطل .

وجرت أحكام الفقر على مالك بن أنس كما كشف الستر عنها أبو جعفر المنصور يوم وعظه مالك ، في أحد لقاءاته ، بتفقد أحوال الرعية . قال الخليفة : أليس إذا بكنت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحي فيحرك لك لا يسمع الجيران ؟ فقال مالك . والله ما علم بهذا أحد إلا الله ! قال أبو جعفر . فعلمت هذا . ولا أعلم أحوال رعيتي ؟

(١) سأله يزيد بن معاوية يوماً : كم عطاؤك ؟ قال : ألف ألف درهم . قال يزيد : قد أضعفناها لك قال : عبد الله . فذاك أبي وأمي . وما قلّتها لأحد قبلك . فصاعف يزيد عطاءه ثانية . وخرج عبد الله . وقال للخليفة جلساؤه : تعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف درهم ! قال لهم : ويحكم . إنّي أعطيها أهل المدينة أجمعين . فما يده فيها إلا عاربة .

وهاجرت الدولة في دمشق شباب قريش . وحجرت على أشخاصهم أن يبرحوا الحجاز إلا بإذن ، فانقلبوا يلهون . وانطوى الفارغون منهم على أنفسهم . ينشئون مجتمعاً خاصاً بهم . كله المحنة والصبر والرقب .

وتراحم الناس وانقطعت الشحناء بين المضطهدين . فوجدنا أبناء الأعداء ، أصدقاء في البأساء والضراء . ووجدنا سكينه بنت الحسين بن علي يبنى بها مصعب بن الزبير ثم يبنى بضرة لها هي عائشة بنت طلحة ! هكذا يجتمع على وطلحة والزبير بأبنائهم أروع اجتماع . وهذا مثل من عشرات ^(١) .

وصهرت المدينة مجتمعها وأذابت خلاقاتها . ورفعت أبناء الصحابة إلى أماكن الشرف في مناصب الشرطة والفتيا ، والقضاء . فكان منهم كبار الرواة ، والمحدثين والفقهاء وكان منهم عظيمات النساء . فالمرأة العظيمة ينتجها المجتمع العظيم . وناهيك بأمهات المؤمنين — عائشة ، وأم سلمة ، وميمونة ، والباقيات

(١) إليك أمثالا أخرى تحوى معاني كبرى : فاطمة بنت الحسين بن علي تتزوج من عبد الله ابن عمرو الأكبر بن عثمان ويكون لأبنائها منه أسماء الرسول وأبنائه — أو أم إسحق بنت طلحة يتزوجها الحسن ثم الحسين . ابنا علي يتزوجان بنت طلحة ! أو حفصة بنت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير . وأم عروة أسماء بنت أبي بكر وأبوها محمد أمه فاطمة بنت الحسين وأم الحسين فاطمة بنت الرسول . وأم فاطمة بنت الحسين أم إسحق بنت طلحة وأم عبد الله بن عمرو ابن عثمان حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب . فهذا رسول الله وستة ممن بشرهم بالجنة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير . منهم أربعة قد اختلفوا وثلاثة قد اقتتلوا . لكنهم اجتمعوا على رأس أسرة واحدة ، يدخل فيها عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير . والحسين بن علي وأسماء بنت أبي بكر . ولما زاحم الحجاج بن يوسف في معترك النبل فتزوج من أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر . قال سعيد ابن المسيب إن أباهما لم يزوج إلا الدراهم . . . وأبرد عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يذكره تجاوز قدره ويأمره بتسويغ أبيها المهر وتعجيل طلاقها . فما بقي أحد إلا سره ذلك . وتزوج زيد بن عمر بن عثمان سكينه بنت الحسين بعد طلاقها من الأصبح بن عبد العزيز بن مروان . ثم طلقها زيد فبنى بها مصعب بن الزبير ثم تزوجها بعده عبد الله بن عثمان بن حكيم بن حزام ثم تزوج سكينه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . كذلك نجد أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر يتزوجها عبد الملك بن مروان ونجد ميمونة بنت (علي زين العابدين) بن الحسين يتزوجها المهدي وأختها أم موسى يتزوجها عبد الله بن علي ابن عبد الله بن عباس ثم يتزوج بعدها أختها أم حسن .

وأخريات من مثيلات أسماء^(١) بنت أبي بكر وسكينة^(٢) بنت الحسين في العلم والعمل . وكان كثير من النساء يتعلمن . قالت عائشة : « نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين » وكان النبي يعقد لهن مجالس يعلمهن . وشغلت المرأة العاملة مكانها في المجتمع : منهن من تحترف حرفة وأكثرهن يعملن في بيوتهن . ومن السابقات زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود الأستاذ الأعلى لأبي حنيفة . كانت امرأة صناعة تنفق على زوجها وولدها قال لها النبي : « لك في ذلك أجر ما أنفقت عليهم فأنفقي عليهم » .

وتزوجت أسماء الزبير بن العوام . وليس له مال . فكانت تعلق فرسه وتدق النوى لبعيره وتسقى له الماء وتنقل النوى على رأسها من أرض له على مبعدة ميلين .

وتلألأت كواكب المجد في شخصيات رفيعة المقام ، في نسق واحد ، بالعلم والورع ، والحدود والزهد : كالحسين بن علي ، وابنه علي زين العابدين ، وابني زين العابدين الإمامين زيد ومحمد الباقر ، وابن الباقر الإمام جعفر الصادق —

(١) أسلمت مع أبيها . وخاطرت بنفسها . لإخفاء هجرته مع الرسول وبعد نحو من سبعين عاماً بايعت الأمصار ابنها عبد الله وحاربه على الخلافة مروان ثم ابنه عبد الملك وحاصره الحجاج بمكة وخذله الناس وكان يعبر السنين إلى السبعين . فذهب إليها وقد كف بصرها فقال . لم يبق عندي إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من ساعة من النهار . وقد أعطاني القوم ما أردت من النغيا . فما رأيك قالت مقال بناء الأبطال : إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه . فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان ببي أمية . فيتلعبوا بك . وإن قلت إني كنت على حق ولما وهن أصحابي ضعفت نيتي ، فليس هذا فعل الأحرار ولا فعل من فيه خير . يا ابن الزبير كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقنع به .

(٢) كانت سكينة برزة تستقبل الشمراء والفقهاء وتنطق الشعر . زارها الفرزدق بالمدينة فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا — قالت بل جرير حيث يقول . . . فعاد لها من العبد بشعر جديد قالت بل جرير حيث يقول . . . وكذلك صنعت في اليوم الثالث . ولما أنشدها العريض منى مكة فتسيدة عمر بن أبي ربيعة ومطلعها :

ألم بزيب إن البين قد أفدا قل الثواء إذا كان الرحيل غدا
طلبت إليه أن يغنيها لها . فلما غناها قالت أحسنت والله وأحسن عمر وأمرت له بكل بيت ألف درهم وقالت لو زادنا عمر لزدناك .
وسرى بعد أمثالا من تفرقها للشعر .

أستاذ مالك . يمثلون جلال بني هاشم . وتراءى كذلك بنو تيم وبنو عدى رهط ابن الخطاب مفخرة للأمة .

وكهينة هؤلاء كان بنو عبد الرحمن بن عوف إبراهيم وحמיד وأبو سلمة .. وبنو الزبير عبد الله وعروة ، ثم بنوهم .

وكان لبني أمية قسطهم في مجد المدينة كأبان بن عثمان وعبد الملك بن مروان . وعمر بن عبد العزيز . وإنهم فصلوا عن المدينة بعد موقعة الحرة ، مخلفين أعظم الذكريات . ففيها ولد عبد العزيز وعبد الملك ابنا أمير المدينة . مروان بن الحكم . وفيها ولد أعظم رجل عند الله والناس في دولة بني مروان : عمر بن عبد العزيز . لتكون ولايته على المدينة آخرة أيامها العظيمة . فترتبط بمالك بن أنس قدر ما ترتبط بالمدينة وسننها وتاريخها ومجتمعها ، وبعائلة مالك .

عمر بن عبد العزيز والمدينة

كان عمر مثلاً تضربه السماء للناس . فيه من صميم دنياهم وفيه من عظيم هداها ، وهو من مواليد المدينة في سنة ٦٢ . حفيد لمروان بن الحكم وعمر ابن الخطاب معاً . أبوه عاهل مصر وأفريقية عشرين عاماً . وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . نشئ في النعمة والحلية . وتناهد إليه أموال بني أمية . موارد وهبات . أما من الجانب الآخر فقد ورث سمات وصفات . لجلده عمر .

ولى أبوه مصر لأخيه عبد الملك فدعا إليه زوجه فرأى عمها عبد الله بن عمر أن تدع ابنها بالمدينة ليتعلم . وكان له في أفئدة بني عمر مكان . أن كان أكثر الناس شجراً بأيهم عمر . وسر أبوه لبقائه هنالك آصرة يدلى بها إلى المدينة . وسر عمه الخليفة . فأجرى عليه من مال النوى في الشهر ألف دينار .

فلما بلغ أشده زوجه من بنته فاطمة .

وصعد عمر مراتب الفقه حتى مرتبة شيخه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فبلغ مرتبة الاجتهاد مثله .

وفي الخامسة والعشرين ولاء الوليد بن عبد الملك أميراً على المدينة ليصلح

ما أفسده هشام بن إسماعيل بشدته على بنى هاشم . وليصبح عمر آخر من أقام بالمدينة من الخلفاء الراشدين . وكانت تتيه على العالم بأعمدة العلم السبعة المسمين بالفقهاء السبعة فانضاف إليهم « الأمير » فقيهاً ثامناً . . .

وكان وهو أمير . يقصد إلى عبيد الله . فربما حجه . وربما أذن له . كما روى أبو الرناد . حتى إذا صار خليفة كان يتلمس عونه الفكري فيقول : لو أدركني عبيد الله ووقعت فيما وقعت فيه لكان عليّ الأمر .

فلما ترك المدينة إلى الشام كان فقهاؤها يستفتونه . قال ميمون بن مهران : أئينا عمر فظننا أنه يحتاج إلينا فإذا نحن تلاميذه . أو كما قال مجاهد (١٠٣) أئينا نعلمه فتعلمنا منه .

استوثق عمر لنفسه وللمدينة قبل أن يليها فقال للخليفة : « إنك استعملت من كان قبلي فأنا أحب ألا تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم والجور » . قال الوليد : « اعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا درهماً واحداً » .

ولى عمر الإمارة فأخذ الناس باليسر والنصفة . وأقام الحدود . وعمل بمشورة الفقهاء . وأخذ يتعلم في مدرسة جده كيف يحكم حكم الإسلام . . وكان أيامه في عنفوان الشباب فأذن للشعراء أن ينشدوه فأنشدوه وارتجزوا بين يديه ، وسمع الأصوات وطرب لها . وتماذى فصفق بيديه ورجليه . بل وتغنى بصوت ندى حسن التطريب .

وكان صوته من حسنه يلهى من يستمع إليه ممن ينقطعون للصلاة بالمسجد . صلى ذات ليلة فرفع صوته بالتلاوة قريباً من مجلس سعيد بن المسيب وهو كفيف فقال سعيد لغلامه برد : يا برد رح عما هذا القارئ فقد آذانا بصلاته . واستمر عمر في صلاته دون أن يعرف أمر سعيد . وعاد سعيد يأمر برداً بتنحية هذا القارئ . قال برد : ليس المسجد لنا ! وأدرك الأمير . . فأخذ نعليه . . وتنحى . .

وقدم أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة من البصرة فصلى حلف « الأمير » ثم قال : « ما صليت خلف إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بصلاة رسول الله من إمامكم هذا » .

وأراد الوليد أن يوسع المسجد ويدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين فأمست المدينة غضبي لزوال آثارها الكبرى . فراح الوليد يستعين بعمر لمكانة أخواله في المدينة . فوسع المسجد بإدخال الحجرات التسع فيه . وجوّف المحراب فكان أول محراب مجوف . ورفع المنارة . فتعالت المآذن في الأقطار كافة . وكأنما تنقل للناس في كل أذان فضل عمر .

وفي ذات يوم جاءه خبيب بن عبد الله بن الزبير فقال : نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من آيات الله تقول : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) واستمر خبيب يتلو وعمر يغضب . ولكنه يمسك . ثم حدث خبيب عن بني العاص - العاص جد مروان ومروان جد الوليد وعمر - « إن بني العاص يتخذون عباد الله خولا ومال الله دولا إذا بلغوا ثلاثين رجلا » .
وجن جنون الوليد للتحدي فكتب إلى عمر أن يضرب خبيباً مائة سوط . وأطاع عمر الخليفة . فأمر بخبيب فضرب تعزيراً . ثم مات خبيب . فلما بلغ عمر موته سقط إلى الأرض فزعاً . وصار إذا بشره أحد بالجنة قال : « كيف وخبيب على الطريق ؟ » فلما كادت نفسه تتلف ذهب إليه القاسم بن محمد بن أبي بكر - وهو ابن خال عبد الله بن الزبير أبي خبيب - فنصحه . فنصل عمر من ثوب الحزن الذي أطال ارتدائه .

* * *

وفي سنة ٩١ حج الوليد وقصد إلى المدينة فغدا إلى المسجد النبوي وقد أدخله له فخرج الناس لإلا سعيد بن المسيب المحزوم . جلس عند القبلة في مجلسه المأروف . ليس عليه من الثياب إلا ريطتان ما تساويان إلا خمسة دراهم ولا أحد يجرؤ على إخراجهم .

وكان بين سعيد والوليد أمور . منها رفضه أن يبايع له . ورفضه تزويجه بنته ودعاؤه على بني أمية في كل صلاة .

وكانت معاينة القبلة غرضاً للزيارة قال عمر : « فجعلت أعدل بالوليد . . . لئلا يراه . فالتفت إلى القبلة فقال من هذا الشيخ : أهو سعيد ؟ فقلت نعم ومن حاله كذا وكذا . وجعلت أعتذر له وأقول له لو علم بمكانك لقام فسلم عليك

وهو ضعيف البصر . فقال : قد علمنا حاله . نحن نأتيه . . . فدار في المسجد ثم جاء فقال : كيف أنت أيها الشيخ ؟ فوالله ما تحرك سعيد . فقال بخير والحمد لله ؛ فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله ؟ وانصرف أمير المؤمنين وهو يقول : هذا بقية الناس وأنا أقول . أجل يا أمير المؤمنين .

واستشعر الوليد غضب المدينة فخطب قاعداً تكبراً وغلظة . وترضى السادات بعطاياه . . . فنفر الفقراء .

وكان الحجاز محل مراقبة الخليفة فهو ميدان معركة ابن الزبير التي لم تجف دماؤها بعد . ولعمر عرماء ، مثل الحجاج وهو يفتك بالبشر تثبيتاً لدعائم الدولة ، وعمر لا يكف عن استهجان بطشه . مهما قدم للدولة من فتوحات في آسيا . فالدول تحيا قليلا بالنصر لكننا تحيا دائماً بالنصمة .

وفتح عمر أبواب المدينة لمن يتعنتهم الحجاج من أهل العراق رحمة بالأمة وكتب للوليد يشكو بطشه بالبشر . وكان رد الوليد أن عقد للحجاج إمرة الحج في سنة ٩٢ !! فهاج الناس وماجوا بالمدينة . فكتب عمر إلى الوليد يستعفيه أن يمر الحجاج بالمدينة فأمره أن يسلك إلى مكة غير سبيل المدينة .

وفي العام التالي عزل الوليد عمر بعثمان المري بعد سنوات ست لم تشهد مثلها المدينة منذ قتل عثمان . وستعقبها سنوات ست أخرى . يتناول فيها نفسه بالتطهير ، والخليفة بالنصح ، ليعد نفسه لتكون غداً مثل أنفس الصحابة . بل ليكون صاحبها في خلافته خامس الخلفاء الراشدين .

ولم تطل أيام الوليد ولا خلافة سليمان بعده . وأصبح أمير المدينة السابق أميراً للمؤمنين لكنه رعى المدينة وأهلها وسنّها في المقام الأول . حتى لتعتبر أيامه في الخلافة امتداداً لأيامه في المدينة .

عمر - الثاني - يجتهد

أعلن عمر عزمه لإعادة الدين غضاً مرات . وحسباً متلاً عليها بعض

عبارات .

الأولى من قبل أن يلي الخلافة ، يوم آلى على نفسه الآلية الخالدة .
لرجاء بن حيوة « فوالله لئن ابتليت بذلك . وإنها شرف الدنيا . لأطلبن بها شرف
الآخرة » .

والثانية يوم أعلن طريقته في الفقه أنها الاتباع الدقيق للسنة فقال : « سن
رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب
الله واستكمال لطاعة الله . وقوة على دين الله . من عمل بها فهو مهتد . ومن
استنصر بها فهو منصور . ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين . وولاه الله
ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » .

والثالثة يوم أعلن طريقته في الحكم : الاتباع الكامل . ولا اتباع مثل اتباع
جده . فكتب إلى مستشاره السابق بالمدينة وهو حفيد آخر لعمر ، سالم بن عبد الله
يقول : « فقد ابتليت من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني ولا إرادة يعلم الله
ذلك . فإذا أتاك كتابي فاكتب إلى بسيرة عمر بن الخطاب في أهل القبلة .
وأهل العهد فإني سائر بسيرته إن الله أعانني » ، فنصحه سالم : إنك لست في زمان
عمر ولا في مثل رجال عمر . . . ولا يمنعك من نزع أعامل أن تنزع أن تقول
لا أجد من يكفيني مثل عمله . فإنك إن كنت تنزع لله وتستعمل لله أتاح الله
لك أعوانا وأتاك بهم . فإنما قدر عون الله للعباد على قدر النيات فمن تمت نيته
تم عون الله له .

* * *

لقد صحت نية عمر فلم يثبطه أنه في زمن غير زمان جده . فأعلنها معركة
إلى الجنة . وبدأ الجهاد إليها بنفسه وزوجه وولده . فإذا صدق الجهاد ، بهؤلاء .
بلغ الجهاد غرضه ولو كان صعوداً بالدنيا إلى السماء .

وكأنما كان يعرف أن أيامه معدودات فضع بالساعات . عزل قبل أن يدفن
الخليفة السابق . والي مصر وأفريقية لظلمهما ، واسترجع جيش مسلمة
ابن عبد الملك . الذي جمده البرد والجوع في حصار القسطنطينية ورجع إلى نفسه

فترع ثيابه ، وكان لباساً ، فلبس كساء بثمانية^(١) دراهم وباع ما عنده من متاع ولباس وعطر ، بثلاثة وعشرين ألف دينار دفعت إلى بيت المال . وقربت إليه مراكب الخلافة فدعا بمولاه مزاحم فقال له : هذه البراذين والحيل وهذه السراقات ضمها إلى بيت مال المسلمين . ورأى قميص ابنه وقد تمزق من ازدحام الناس عليه فقال له : يا بني أصلح جيب قميصك فإنك لم تكن أحوج إلى ذلك منك اليوم .

وأودع جواهر زوجته فاطمة بيت المال ، فلما أحس منها عدم رضى خيرها بين اللحاق بأهلها وبين أن تقيم عنده ، وأعلمها أنه شغل عن النساء بما في عنقه فرضيت . ودفعت حليها إلى بيت المال . فلم تستردها حتى بعد أن مات وضيق عليها وبنها . فكانت تقول : «وددت لو أن بيننا وبين هذه الإمارة ما بين المشرقين» ! وبعثت إليه بنت له بلؤلؤة وقالت إن رأيت أن تبعث إلى بأختها حتى أجعلها في أدنى فبعث إليها بجمرتين وقال : إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين في أذنك بعثت إليك بأخت لها .

وقدمت إليه امرأة من العراق قالت : هل على بيت أمير المؤمنين حاجب ؟ قالوا لا . فدخلت من غير إذن على زوجته فاطمة وفي يدها قطن تعالجه فلم تر في البيت شيئاً ذا بال . فقالت : إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة — إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك .

وكان له غلام يحتطب يقال له « درهم » فسأله ما يقول الناس يا درهم ؟ قال : الناس كلهم بخير أما أنا وأنت فبشر قال فأنت حر . فاذهب ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه فرجاً .

وغاب بعد استخلافه ليالى يجمع سجلات قطائعه وقطائع بني مروان وعهود

(١) شهد جده — عمر بن الخطاب — في قدم كاتب حدث من كتاب عماله — زياد بن أبيه — حفين ساذجين وفي يده عصا رأسها حديد . وعليه ملابس كتان . فغمز العصا في خفه حتى مزقه وأدى قدمه . فلما عاد في اليوم التالى رجع في خفين غليظين وتوب من قطن بغير عصا . فلما رآه قال . هكذا وقال : بكم الخفان ؟ قال زياد بدرهم واف . فأعطاه درهماً وقال اشتر لي مثلهما

الأموال التي تجرى عليهم . وكانت نحو نصف بيت المال . ثم نادى : الصلاة جامعة : وصعد المنبر فقال — أما بعد فإن هؤلاء — يقصد آباءه — أعطونا عطايا ما كان لنا أن نأخذها . وإنى قد رأيت ذلك . ليس على من دون الله محاسب . وإنى قد بدأت بنفسى وأهل بيتى . فجعل يقرأ السجلات ويمزق ما يقرأ وأمر أن ينادى فى الأمة . أن ليس لأحد إلا ما فى كتاب الله .

قيل له لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب . قال : إن ابن الخطاب لم يكن له مال . أما أنا فمالى يغينى . ثم جعل نفقته فى ماله درهمين . وأبقى لنفقة بيته عيناً بالسويداء عملها من صلب عطائه فكانت حلالاً خالصة تعطيه فى العام مائتى دينار .

ورجع إلى سائر بنى أمية يأخذهم بما أخذ به نفسه فهان أمرهم عليه . وسمى أموالهم مظالم وجعل رد المظالم مشغلته . فطلبوا إليه أن يبرحوا دمشق سعياً وراء الرزق فأذن لهم . وأنفذوا إليه عمته قالت : أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً ! قال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة لا وقانى الله شره . . ودعا بدينار ونار فلما احمر الذهب قال : يا عممة أما ترين لابن أخيك من مثل هذا ؟ وأخذتها الموعدة . فعادت إلى قومها تقول : تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر فإذا نزع ابنه إلى الشبه جزعتم ! !

وبعث عمر إلى الأمصار معلمين للسنن وكتب إلى الولاة يكلفهم أن يقضوا ديون الغارمين . فكتبوا له — إنا نجد الرجل له المسكن والخدام وله الفرس . والأثاث فى بيته فكتب إليهم : « لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه . وخدام يكفيه مهنته وفرس يجاهد عليه عدوه وأثاث فى بيته . فهو غارم . فاقضوا دينه » .

وانطلق يوزع على الناس حقوقهم — حدث يحيى بن سعيد (١٤٣) قال بعث عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً . ولم نجد من يأخذها . قد أغنى عمر الناس . فاشتريت رقاباً فأعتقهم . وولأوهم للمسلمين . ذلك فى أقصى الأرض بأفريقية وهو كذلك بالمدينة .

حيث حدث رجل من ولد زيد بن الخطاب « إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله . يتذكر من يضعه فيهم فما يجده ؟ فيرجع بماله . قد أغنى عمر بن العزيز الناس » .

* * *

كان في دمشق وعقله في المدينة . كتب إلى أهلها : من تعبد بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . ومن عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه . ومن جعل علمه غرضاً للخصومات أكثر التنقل .

ولم يكن يجيئه رجل إلا سأل عن أهلها كافة . سأل رجلاً مرة . ما حال المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا . قال : قاموا يا أمير المؤمنين . قد أغناهم الله .

وقدم عليه زياد بن أبي زياد ^(١) من المدينة في حوائج لمولاه ابن عياش فقال : السلام عليكم ونسى السلام بالإمارة فعاد يسلم بها . قال أمير المؤمنين يا ابن أبي زياد إننا لسنا ننكر الأولى التي قلت . . . ومشى إلى زياد وهو جالس على أسكفة الباب حتى جلس بين يديه ووضع يديه على ركبتيه وقال : يا ابن أبي زياد استدفت في مدرعتك واسترحت مما نحن فيه ؟ ثم سأله عن صلحاء المدينة فما ترك منها أحداً . . . وأعطاه من ماله عشرين ديناراً قائلاً : استعن بهذه . فإنه لو كان لك في النىء حق أعطيناك حقك وأبى أن يأخذها فما زال به حتى أخذها . ثم قضى حوائج ابن عياش . وخرج . فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه له ولأصحابه يأخذون ما يشاءون فنظر الخادم إلى عمر فاقتحمته

(١) زياد بن ميسرة - وكان عبداً - هو مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة القرشي . وكان عمر يستريه ويكرمه . يروى عنه مالك بن أنس أنه كان عابداً معتزلاً لا يزال يذكر الله . ويلبس الصوف ولا يأكل اللحم وقال محمد بن المنكدر ، شيخ مالك ، للناس يوماً : إني حلفت زياد بن أبي زياد يخاطب نفسه في المسجد ويقول : أنخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ! تريد أن تصبى دار فلان ! مالك يا نفسى غير الخبز والزيت

عينه ففعل فدخل زياد فأخذ لنفسه بضعة وثمانين درهماً . فلما رأى الخازن ذلك قال : أمير المؤمنين أعلم بمن يسلطه على بيت المال .

وكتب عمر إلى ابن عياش يطالب أن يبيعه زياداً ليعتقه فأبى أن يبيعه وأعتقه . كان الناس يقومون له في المجلس فيقول لهم : إن تقوموا نقم—وإن تقعدوا نقعد . وإنما يقوم الناس لرب العالمين .

وكان فقيهاً . وأى فقيه . جاءه مصرى من « حلوان » يقول إن أباه عبد العزيز غصب ضيعته في إبان ولايته . وعنف على عمر فقال عمر : نازعني منازعة كريمة ولا تشتم عرضي فإن لي فيه شركاء . إخوة وأخوات . وهؤلاء لا يرضون أن أرد لك الضيعة بغير قضاء . والرأى أن تذهب إلى القاضي . . وظهر أن الأرض للرجل فقال عمر : قد أنفقنا عليها ألف دينار . فنظر القاضي فإذا عمر وأهله قد أخذوا منها قدر ما أنفقوه . فقال : قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم . فقام عمر فرد الأرض قائلاً للرجل بارك الله عليك .

وكتب إليه عدى بن أرطاة يستأذنه في أن يمس الناس بسوء ليحصل منهم على إقرار بما عليهم من الخراج فكتب إليه « العجب كل العجب من استعانتك إياي في عذاب البشر . كأنى جنة من عذاب الله . فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إليّ من أن ألقاه بعذابهم » .

وشكا عدياً إليه رجل فأشكاه ورد إليه أرضه ثم قال له : كم أنفقت في مجيئك إليّ ؟ قال لا تسألني عن نفقتي . وقد رددت إليّ أرضاً خيراً من مائة ألف ؟ فقال إنما رددت إليك حقك . وأمر له بالمصاريف من بيت المال . فلما ولى صاح به : خذ خمسة دراهم من مالي فكل بها لحماً حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله .

دخل عليه غلام مع أبيه . فسأل أباه ماذا تعلمه ؟ قال : الفقه . قال : علمه الفقه الأكبر . قال وما الفقه الأكبر . قال : القناعة وكف الأذى .

ودخل عليه رجل من قريش لا ترده الخلفاء عن حاجة فطلب إليه طلباً لا يجوز—فرده فخرج مغضباً . فناداه فرجع فقال له : « إذا رأيت شيئاً من الدنيا

فاعجبك فاذا ذكر الموت فإنه يقلله في نفسك . وإذا كنت في شيء من الدنيا قد غمك فاذا ذكر الموت . فإنه يسهله عليك . وهذا أفضل مما طلبت .
وتناهى عمر في الأمر برد المظالم إلى حد التشجيع على الشكوى بالإغداق .
فكتب إلى أهل المواسم ليقولوا للناس إن أمير المؤمنين يقول : «أما رجل قدم علينا في مظلمة أو أمر يصلح به خاصاً أو عاماً من أمر الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار بقدر ما يرى من الحسبة . وبعد الشقة . لعل الله يحبي به حقاً أو يميت باطلاً . أو يفتح من ورائه خيراً » .

* * *

لم يكن يهتم بزيادة الدولة ولكن زيادة العدل كانت همه ، كتب إلى واليه ليرسى دعائم الدولة على أركانها : «إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها.. فالوالى ركن . والقاضى ركن . وصاحب بيت المال ركن . والركن الرابع أنا (يريد الخليفة) . فعمر لا يقول مقالة أبى جعفر المنصور . إنما أنا ظل الله فى الأرض . فهو أفقه وأورع ، وهو فوق فقهه وورعه أعدل ، وأعلم . فالوالى أداة الحكم التى تمسك الرعية وتخدمها والقاضى مقدم على صاحب المال . فالعدل والولاية عند عمر صنوان . يسبقان كل الأركان . بما فى ذلك وظيفة الخليفة التى أجهدها الخليفة إلى المحل الأخير .

ولم يكتف عمر بالرجوع إلى آراء العلماء : بل راح يستعملهم . أرسل أبا الزناد الفقيه كاتباً أو مساعداً لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فى خراج العراق . وولى الحسن البصرى (١١٠) حيناً على قضاء البصرة . مثلما استعمل يحيى بن سعيد على أفريقية وميمون بن مهران^(١) على خراج الجزيرة وسليمان بن يسار (على سوق المدينة) وأبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم على

(١) صلى فى سبعة عشر يوماً سبعة عشر ألف ركعة . قال فيه عمر بن عبد العزيز . إذا ذهب هذا وضر باؤه صار الناس رجراجة ولاه عمر قضاء الجزيرة وحراجها فبعث يشكو شدة الحكم والجبانة فكتب إليه : «إنى لم أكلفك ما يعينك . اجتن الطيب . واقض بما استبان لك أنه الحق فإذا التبت عليك الأمر فارفعه إلى . فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دينا . وكان ميمون فى السبعين من عمره فى خلافة عمر ومات سنة ١١٠ عن ثمانين عاماً

المدينة وما كان يقدم على أبي بكر كتاب من عمر إلا وفيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة . أو قسم أو تقدير عطاء . حتى خرج عمر من الدنيا . قال : كتب إلى عمر أن أستبرئ الدواوين فأنظر إلى كل جور جاره من قلى من حق مسلم أو معاهد فأرده إليه . فإن كان أهل المظلمة ماتوا . فادفعه إلى ورثتهم . وكتب عمر إليه مثلما كان جده يكتب إلى فضائه : وإياك والجلوس في بيتك . اخرج إلى الناس . آس بينهم في المجلس والنظر . ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد . ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين . . وإذا أشكل عليك فاكتب إلى .

وكتب إليه في أول خلافته . عندما وقع في يده كتاب منه إلى سليمان ابن عبد الملك يطلب سمعاً يستصىء به الناس في طريقهم إلى المسجد بين المغرب والعشاء : « أما بعد فقد قرأت كتابك الذي كتبت به إلى سليمان بن عبد الملك وكنت المبتلى بالنظر فيه دونه . كتبت . . وتذكر أن الشمع الذي عندك نفد ولعمري قد طالما رأيتك تخرج من منزلك إلى المسجد في الأيالة المظلمة الوحلة بغير ضياء . ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم » .

وأبو بكر يعمل ليل نهار لاستحاث عمر إياه . فلقد كان عمر يخش أن أيامه معدودات . وإلى أبي بكر وضّح عمر حقوق أفراد المسلمين في بيت المال فقال : « افرض للناس العطاء إلا للتاجر » .
فالتاجر قادر أو موسر .

ولما تولى يزيد بن عبد الملك نزع أبا بكر بن حزم من إمرة المدينة وولى عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري . فدخل عليه أبو بكر فلم يعرف له حقه . فقال له : هذا شيء لا تملكه قريش للأنصار . وجلس في بيته وحذره . فلقد كان يريد مثلاً للفساد . وكان واليه مثلاً للشقاء . . . صرب أبا بكر ظلماً . وجزت السماء ظلمه بالعدل . فعزل سنة ١٠٤ ثم قال شاهد عيان فيما بعد
فرأيت عبد الرحمن بن الضحاك وعليه جة صوف يسأل الناس .

كانت « المدة » كما أطلق المسلمون على الشهور الثلاثين من خلافة عمر ، ثورة دينية واجتماعية . جاءت من عل . فدلّت بما حالفهما من النجاح على أن الإصلاح مستطاع أبداً ، دون سفك أو قسوة . وعلى يد رجل واحد يهب له نفسه . . وعلى أن صلاح الدنيا مقترن بصلاح الدين . والناس يرمون الإمام بالخدق ، من بعيد ، فيرونه بجمعه . ويرون منه ما لا يراه من نفسه . والصحة فيه تعدى كما يعدى المرض .

لقد بلغ عمر بحكمه أن أغنى الناس في الحياة الدنيا ثم بلغ ما هو أعلى : أن يقودهم إلى طريق الجنة .

ودلت هذه « المدة » — وما كانت إلا مُدّيدة — على أن طول الزمن أوقصره ليس بذى بال . وإنما الأثر للقوة والعمق . والقوة في الصدق . والعمق في ابتغاء وجه الله وحده .

وحق لعمر أن يقول لمولاه وهو يتهاى للحجج : «.. إن لى نفساً تواقه لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقّت إلى ما هو أرفع منها حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة . وإنما اليوم قد تاقّت إلى الجنة » .

* * *

أصبح عمر أقرب الخلفاء الراشدين الخمسة إلى مالك ، فقد عاش أحداثه في أيامه ، وبلغ أشده في ذكرياته . وكان جده وعمه يدخلان عليه . وأصبحت سيرته علماً من علومه . وكأنما كانت توجيهاته للفقهاء توجيهات مباشرة لمالك ، والزهري وأبو بكر بن حزم في صدارة هؤلاء . الأول عاش عشرة أعوام ومالك حلقة ، والثاني عاش بضعة عشر كذلك .

وسرى أثر ذلك في عمله الفنى الأشهر — الموطأ — وفي المحيط الذي أحيط به وكان إذا ذكر كلماته اهتز طرباً وباهى بأنها كلمات عمر ! ! وأصبح مالك أول وأعظم من درس لتلاميذه سيرة عمر . وشمل الكتاب العظيم الذى وضعه تلميذه عبد الله بن عبد الحكم ، عن عمر ، روايات مالك .

* * *

وبموت عمر سنة ١٠١ مسموماً . على قول ، أو من إجهاد نفسه على قول آخر ، عادت الأمور تجري في أعتها يزيد بن عبد الملك . (١٠١ - ١٠٥) وكان ولي العهد بوصية من سليمان لم يغيرها عمر خوف الفتنة . وكان يزيد جماعاً لرذائل بني أمية ومروان . من سلب الثروات والانغماس في الشهوات . فكان بداية النهاية . وإن تأخرت ، شيئاً ، لإمسك أخيه هشام بالزمام . وحسبنا عنواناً على فساد حكمه وحياته أن لعبت سلامة وحبابة المغنيتان دوراً رئيسياً في بلاطه ، وفي نشاطه . طرب يوماً ، وعنده حبابة وسلامة ، فقال : دعوني أطير ؛ قالت حبابة : إلى من تدع الأمة ؟ ! ولعله كان بانحماً نفسه يوم ماتت حبابة لولا نصيح أخيه مسلمة أن يتماسك بين الناس ومع ذلك لحقها بعد موتها بأيام سبعة .

ونخلفه هشام (١٠٥ - ١٢٥) وكان يقرب العلماء كالزهري وأبي الزناد لكنه لا يتسامح فيما يمس الدولة . خرج عليه زيد بن علي سنة ١٢٢ . وكان عالم عصره وخرج أهل الكوفة للقتال معه . فقتل .

وهرب ابنه يحيى إلى خراسان فقتل في سنة ١٢٥ . فسمت كل والدة بخراسان وليدها في ذلك العام باسمه . وكان قتله ذريعة لإشعال الخراسانيين الحرب التي انتهت بقيام دولة بني العباس . وكان لهشام ابن من قاداته المغاوير هو معاوية أبو عبد الرحمن الداخل . الذي أقام دولة الأمويين بالأندلس بفراره من سفك بني العباس .

ولي المدينة هشام خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل من ١٠٥ إلى ١١٥ - وهي الفترة التي جلس فيها مالك للتدريس . أول ما جلس . فلما عزل وليها خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم بن أبي العاص .

ونخلف هشاماً الوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦) فتهتك تهتك أبيه . ولما حملت إليه رأس يحيى بن زيد استعرضها في ولية !

وفي سنة ١٢٦ أخذ يزيد بن الوليد البيعة لنفسه . وقتل الوليد . فنقص يزيد أعطيات المدينة فأطلقت عليه : يزيد الناقص .

وفى سنة ١٢٦ مات يزيد وخلفه إبراهيم بن الوليد . وفى سنة ١٢٧ دخلت جيوش مروان بن محمد بن مروان مدينة دمشق . ثم أخذ مروان البيعة لنفسه وقضى سنوات خمساً يحارب أهله والخوارج الذين دخلوا المدينة سنة ١٣٠ بقيادة أبى حمزة المختار بن عوف الأزدي — بعد أن قتل من أهلها ألفين ونيفاً .

وكان واليها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك . فسفر بينه وبين أبى حمزة السفراء : عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ومحمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر وعبد الله بن عمر . . ابن عمر بن الخطاب ، ومعهم ربيعة الرأى فى رجال أمثالهم ، وطبق أبو حمزة على الوفد مبادئ الخوارج . فعيس وبسر فى وجه الأولين — حفيدى على وعثمان — وبشر فى وجه الثالث والرابع حفيدى أبى بكر وعمر . وقال لهما : والله ما خرجنا إلا لنسير بسيرة أبويكما . قال له عبد الله بن الحسن : والله ما جئناك لتفضل بين آباءنا ولكن بعثنا الأمير إليك برسالة وهذا ربيعة يخبرك بها .

وهكذا لا نجد مالكا يسفر بين السفراء وهو قد قارب الأربعين . فلم تكن حلقة عند ذلك ، لتحجب أضواء حلق الآخرين . وسفر ربيعة مع أبناء على وعثمان وعمر وأبى بكر رضى الله عنهم .

واستمر مروان يحارب ليثبت ملكه حتى جاءت جيوش العباسيين من خراسان فانهمزم وفر إلى مصر حيث قتل .

* * *

بنو العباس

وقامت دولة بنى العباس سنة ١٣٢ . وانتقل مقر الخلافة من دمشق إلى الكوفة فازدادت الخلافة بعداً من المدينة . وانطلقت شياطين البطش — فسفك السفاح . (١٣٢ — ١٣٦) دماء بنى أمية وروى عمه داود بن على رماحه من الدم

بما لم يسمع التاريخ مثله^(١) وولى الخلافة بعده أخوه أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨) فكان يبطش البطشة الكبرى بخصومه وقواده . وكأنه يتنفس ! حتى إذا كانت سنة ١٤٤ عرف ما يدبره بنو علي ضده بالمدينة فأوفد الرسل إلى عبد الله ابن الحسن والد محمد بن عبد الله . وقد سبق أن بايعه أبو جعفر : وكان مالك ابن أنس يحمل أعلام الفقه خفاقة في الأفق . من ثلاثين عاماً . لا يقاربه الخلفاء ولا يقاربهم - أما بنو علي فليس هواه معهم . ولهذا كان محل ثقة أبي جعفر فكان سفيره إلى عبد الله بن الحسن .

(١) في سنة ١٣٢ نادى قائد السفاح بالأمان لبي أمية فاجتمعوا إليه وفيهم محمد بن عبد الملك ابن مروان وأبناء إخوته هشام ويريد سليمان وثمانون رجلاً من بني أمية فلما اجتمعوا آمنين قال أحسب بنو أمية أن سيرضى هاشم عنها ويذهب زيدها وحسبها ! فوضع الحمد الأعمدة يتدخونهم وأتوا على آخرهم ، وفي سنة ١٣٣ جمع السفاح بقية بني أمية ليقتلهم فقال له عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي : يا أحمى إذا قتلت هؤلاء بمن قباهي ؟ أما كنتك أن يترك زائحاً وعادياً فيما يسولهم ! - فقتلهم .

وفي سنة ١٣٣ قتل قواد يحيى بن محمد أحمى السفاح ثلاثين ألفاً وفي سنة ١٣٤ دحا السفاح من مشام طاعة السفاح وسفك السفاح دمه !

الفصل الثاني

الشعر والغناء في الحجاز

« لست من دد ولا دد مى »
« لست من الناطل ولا الباطل مى »
(حديث شريف)

استسلمت المدينة لقدرها المقدور عليها . وضمرحجم التجارة . وهى والعمل والعلم من قديم صناعات الأشراف وسواد الناس .

واتسمت الحضارة بميسمها الأول . فوجدنا العمال الفقهاء والفقهاء العمال...
المسيب أبا سعيد زياتا . وأيوب السختياني يبيع جلود السختيان ؛ ثم ميمون بن مهران بزاا . ومالك بن دينار وراقا يكتب المصاحف . وكان من بنى عبينة بمكة خزازون عشرة .

وتتابعت أسماء أصحاب الصناعات من الفقهاء العالمين في بلاد الإسلام تتابع أسماء الصناعات ذاتها مثل الصفار (من يبيع الأواني الصفرية) والجصاص والحلواني والخصاف والتيان (من يبيع التين) والقدرى والبقالى والكرايبسى (من الكرايبس = الثياب) وابن الساعاتى^(١) وكانت بنته من الفقيهات كزوجة الكاسانى . كانت بنت علاء الدين السمرقندى من الفقيهات . تخرج الفتوى منها وعليها خطها وخط أبيها ، فلما تزوجت صاحب البدائع كانت الفتوى تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها . وقد آثره أبوها على جماعة من ملوك الروم المسلمين خطبوها منه . وتتابعت بالمدينة أسماء الفقيهات في بيوت العلم العريقة ومنهن فاطمة ، زوجة عبد الله بن أبي بكر بن حزم . وفاطمة بنت

(١) أحمد بن علي شيخ الحنفية (٦٩٤) أبوه صانع الساعات الى اشتهر بعصر المستنصر ببغداد .

مالك - أم أبيها - وعمرة بنت عبد الرحمن وأم الدرداء زوج أبي الدرداء وزينب بنت أبي سلمة كمثل آخريات كثيرات لسن إلا تلميذات بارعات في مدرسة المدينة . يقتفين آثار عائشة وأم سلمة . في دين يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وكان من رائع الصور أن يتخصص أبناء الخلفاء الراشدين ، وكبار الصحابة لا في البلهنية والرفاهية ولكن في الفقه والزهادة كمثل ما صنع عبد الله بن عمر ثم ابنه سالم والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وابنه عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير ، وأخوه عبد الله ، وإبان بن عثمان بن عفان . وعلى زين العابدين بن الحسين بن علي وابناه زيد والباقر .

والقاسم وسالم وزين العابدين أبناء خالات أمهاتهن بنات يزدجرد ملك الفرس ومثلهم أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أمه تماضر بنت الأصبغ ، ملك قبيلة أخضعها أبوه عبد الرحمن بن عوف في عهد الرسول . . .

ويتنازع المؤرخون في سالم وأبي سلمة أيهما من الفقهاء السبعة . أم أن أبا بكر ابن الحارث هو السابع وأبو بكر نفسه ابن أخ لأبي جهل زعيم قريش في الجاهلية . . .

وفي هذا المحيط العلمي ومهبط الوحي نشأ عمر بن عبد العزيز . فصار من العلماء قال : «خرجت من المدينة وما أحد أعلم مني . فلما قدمت الشام نسيت» .

* * *

وفي العصر ذاته تجمع في الحجاز بمكة والمدينة والطائف كثيرون ممن اعتزلوا الحياة السياسية ، وقليلون ممن عادت على أصولهم الفتوحات بالثراء . أو أجزلت لهم الدولة العطاء . وساعدت أموال الحجيج أحياناً في اقتصاد الحجاز فوجدت العمائر وزادت طوائف الخدم والرقيق . ووجدت رفاة فكرية بل وجدت رفاة مادية في ثلة قليلة تنساب الخيرات منها إلى الناس .

واشتهرت بالمدينة مجالس سكيئة بنت الحسين بن علي . وعائشة بنت طلحة ابن عبيد الله ، وقد اجتمعتا سنوات ، لرجل واحد هو مصعب بن الزبير .

حتى لقي مصرعه في حرب أخيه عبد الله ، دفاعاً عن خلافته بمكة ، ضد عبد الملك .

لكن الرفاهة كانت وقفاً على هذه الطبقة ، وحسبك دليلاً على انحصارها فيها أن يكون على رأسها عبد الله بن جعفر أو هاتان . وهما لا تتكرران أباً أو جداً أو زوجاً ، أو مواريث فضل أو مال .

وكان سائر الناس يمدون أبصارهم إلى العواصم في انتظار عطاء أو تجارة أو بر يقدم على الواحة الخضراء في الصحراء .

ومضى الدهر الذي روى عنه مالك : كان رجل من الأنصار يصلي في حائط له (بستان) في القفّ - واد من أودية المدينة - في زمان الثمر والنخيل ، فهي مطوقة بثمرها ، فنظر إليها فأعجبته ثم رجع إلى صلاته فهو لا يدرى كم صلى : فقال : لقد أصابتنى في مالي هذا فتنة . فجاء عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة فذكر له ذلك وقال : هو صدقة فاجعله في سبيل الخير . . فباعه عثمان بخمسين ألفاً فسمى ذلك الحائط الخمسين .

وتخلف عن رفاهة القلة ما شاءت المدينة من ازدهار في الشعر والأدب والسماع .

وتغير الدهر وعرفت بالمدينة معاقره الخمر ، ونظم فيها الشعر ، وانشغل ولاية السوء عن تطبيق الحدود . فإذا بنا نقرأ بالحق أو الباطل - في بيت شعر واحد أسماء فتية عرفوا في مجتمع المدينة بعد انتقال الخلافة إلى دمشق ، أنضى الاستهتار سيرهم فهزل الشعر أوزانهم . قال الشاعر :

إذا أنت نادمت العتير وذا الندى جبيرا وعاطيت الزجاجسة خالدا

* * *

وساعد الفراغ والجدّة ، وأسباب الترف والدعة . على استعلاء شأن الغناء . وفرح بنو أمية بأن تلهو المدينة الغضبي عن الشحنة في دمشق مع الحلفاء . وسعدوا بما قد يشوه صورة المدينة في أذهان الأمة .

فلما أصبح الغناء فنناً في المدينة له نجومه ، أصبحت دمشق أول المستوردين له . وتابعتها بغداد عندما صارت عاصمة .

لقد مات أو كاد . يزيد بن عبد الملك في هوى « حباية » وقد اشتراها وسلامة القس من المدينة . وكان ثمن سلامة وحدها عشرين ألف درهم . وهما تلميذتان لجميلة .

وجميلة أصل من أصول الغناء أخذ عنها معبد ، وابن عائشة وسلامة وغيرهم . وكان لها وقارها .

حجت مرة وحج معها خمسون قينة من قيان المدينة ، أرسلهن معها مواليهن تعظيماً لها . فلما بلغ الركب مكة تلقاه المغنون العظام ابن سريج والغريض وابن محرز ، والشعراء الفحول ، مثل عمر بن أبي ربيعة وكان أبوه والياً على الجند باليمن للنبي وأبي بكر وعمر ، ومثل الحارث بن خالد المخزومي ، والعرجي . فلما قضت حجها سألتها المكيون أن تجعل لهم مجلساً . فقالت : أألغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهما جمعاً : قالت ما كنت لأخلط جداً بهزل . وأبت . فحلف عمر ابن أبي ربيعة على من يريد سماعها إلا أن يخرج معها إلى المدينة . فخرج الناس معها وفيهم المغنون فلما مضى على مقامها بالمدينة عشرة أيام قالت لعمر . إني جالسة لك ولأصحابك وغنتهم من شعر عمر . فدمعت عينه . ثم غنى ابن سريج . وغنى كل من حضر .

زارها في دارها يوماً عبد الله بن جعفر قال : يا جميلة . قد سمعت ما آليت أنك لا تغنين أحداً إلا في منزلك . وأحببت الاستماع منك . فغنته بيتين لا مرى القيس أنقذا جماعة من المسلمين .

* * *

وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ولدته أمه بالحبشة بين المهاجرين الأولين . وأبوه بطل مؤتة وشهيدها — الطيار في الجنة — فلما استشهد كفل الرسول ابنه عبد الله .

كان عليه السلام ينظر إليه إعجاباً ويأخذ بيمينه ويقول : « اللهم اخلف

جعفرا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه . وأنا وليهم في الدنيا والآخرة »
ولما كبرت السيدة ربيب ابنة علي من فاطمة الزهراء زوجها من ابن عمها . وإليه
أصهر عبد الملك بن مروان . في بنته أم أبيها . لينال الشرف . روى للرسول
خمس وعشرين حديثاً وروى عنه بنوه والقاسم وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن
ابن عوف . أقرض الزبير بن العوام ألف ألف . فلما قتل جاءه عبد الله بن الزبير
يقول : إني في كتب أبيه ديناً على ابن جعفر ألف ألف . قال : هو صادق
واقضها إن شئت . ثم عاد إليه ابن الزبير يقول إن الدين لك لا عليك فقد
وهمت . قال ابن جعفر : لا أريد ذلك فإن شئت فهو لك . وإن كرهت فلك فيه
بطرة . توفي سنة ٩٠ وقد عبر التسعين وصلى عليه إبان بن عثمان بن عفان وكان
والياً على المدينة ومن فقهاء المعدودين فحمل سريره ودفنه وهو يقول ودموعه
تسيل : « كنت والله خيراً لا شريك » وأبو حنيفة يستشهد به في الدين فيقول :
« إذا تزوج الرجل المرأة وامرأة أبيها فهذا جائز . بلغنا ذلك عن عبد الله بن جعفر
رصى الله عنهما أنه فعل ذلك . وبه نأخذ » .

أما أم عبد الله فأسماء بنت عميس . تزوج منها أبو بكر بعد موت جعفر
ثم تزوجها على بعد موت أبي بكر . فكان محمد بن أبي بكر ناسك قريش ويحيى
ابن علي أخويه لأمه . وأختا أسماء — لأُمها — أم المؤمنين ميمونة وأم الفضل زوج
العباس (جدة بني العباس) . وأما شقيقتهما فكانتا عند حمزة عم النبي وبطل
بدر وشهيد أحد . وعند شداد بن الحاد . ولذلك قيل عن أمهن . أكرم عجوز في
الأرض أصهارا .

وحق لنا أن نتصور عبد الله بن جعفر في المدينة حتى وفاته في أواخر القرن
أقرب المسلمين إلى قلوب المسلمين .

* * *

وأول من غنى بالعود في المدينة سائب خاتر مولى عبد الله بن جعفر . أخذ
الغناء عن نساء صناعات بالمدينة وعن فارسي يقال له (نشيط) غنى بالفارسية
فأعجب عبد الله فاشتراه فكان يغنيه . فقال سائب خاتر لمولاه : أنا أصنع لك

مثل ذلك بالعربية . فأول شعر غنى بالعربية غنى لعبد الله بن جعفر . ولم يغن سائب خاثر ولا نشيط إلا له .

ولما وفد عبد الله على معاوية صحب معه سائبا . وأسمع معاوية سائبا وهو

يغنى :

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجسدة دما
وزار عبد الله عبد الملك بن مروان وهو مريض فدعا « بديح » المغني فرقى
عبد الملك . ولما شئى عبد الملك علم أنه رقاہ بالشعر . فما برح ابن جعفر حتى
جعله يفرغه في مسامعه .

وغنى سائب خاثر ليزيد بن معاوية فخوله وموله وواعده المدينة . لكن
سائبا قُتل يوم الحرة ، فلما بلغ يزيد مقتله قال : أو بلغ القتل إلى سائب خاثر
وطبقته ؟ ما أرى أنه بقى في المدينة أحد ! قبحكم الله يا أهل الشام .

وفي عهد الوليد دعى إلى البلاط مغنيا الحجاز المشهوران ابن سريج ومعبد .
وكان الوليد نصيراً للفنون عامة .

وقالوا إن سعيد بن مسجع ، وهو مكى أسود ، نقل غناء الفرس وألحان
الروم إلى غناء العرب . تعلمها على البنائين لقصر معاوية بدمشق . وأن ابن
محرز أخذ عنه .

وامتلأت مكة والمدينة وضواحيها بالغناء والمغنيين . واشتهر في عصر واحد من
الكبار بالحجاز : ابن سريج والغريض ومعبد . وصار مثلهم حنين بالعراق : قيل له
أنت تغنى من خمسين سنة . ما تركت لكريم داراً ولا مالا ولا عقاراً إلا أتيت
عليه . قال : بأبى أنتم إنما هي أنفاسي . أقسمها بين الناس . أفتلوموننى أن أغلى
بها الثن ! !

ووجد في عصر واحد جميلة وهيت ، وبرد الفؤاد ، ونومة الضحى ،
ورحمة ، وهبة الله ، ومعبد ، وابن عائشة ، وعزة الميلاء ، وحباة ، وسلامة القس ،
وسلامة الزرقاء ، وبلبله ، ولذة العيش ، وغيرهم .

وكان عبد الملك وسليمان وهشام ومروان بن محمد يستمعون للمغنيين وبينهم
وبين الندماء ستارة .

* * *

وفي عهد أبي جعفر المنصور - عهد العلم والوقار والتكشف - لمعت مغنيات
المدينة .

خذ مثلاً بين أمثال : « بصبص » ، يأتيها عبد الله بن مصعب^(١) . وفتيان
قريش فيستمعون ، ويمر المنصور بالمدينة في حجه فينشد مصعب :

أراحل أنت أبا جعفر من قبل أن تسمع من بصبصا
لو أنها تدعو إلى بيعة بايعتها ثم شقت العصا

وكانت البيعة ونقضها وشق عصا الطاعة من جراح قلب أبي جعفر . . فدعاه
وقال له : إما أنكم آل الزبير قديماً ما قادتكم النساء وشققتم معهن العصا^(٢)
حتى صرت أنت آخر الحمقى تباع المغنيات . فدونكم يا آل الزبير هذا المرتع
الوخيم . . . ثم بلغ المنصور أن عبد الله اصطبح مع « بصبص » وهي تغنيه
بشعره :

إذا تمززت صراحية كشل ريح المسك أو أطيبا
فما أبالي وإله الورى أشرق العالم أم غربا
فقال أبو جعفر : لكن العالم لا يسألون كيف أصبحت ولا أمسيت . . .
الذى يعجبني أن يحدو بي الحادى الليلة بشعر طريف العبرى . . . ثم دعا
حادياً وحفظه الشعر :

إني وإن كان ابن عمي كاشحا
ومُسَيِّده نصرى وإن كان امرأ
وإذا غدا يوماً ليركب مركباً
لَمْزَاحِمٍ من دونه وورائه
متزحزحاً في أرضه وسماؤه
صعباً قعدت له على سيسائه

(١) ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير

(٢) لعل قصده أن أم المؤمنين عائشة كانت تريد الخلافة بعده عبد الله بن الزبير وأن أم
عبد الله ذات النطاقين ، أسماء أختها ، كانت تؤيده في خلافته .

فلما كان الليل حدا الحادى فقال : هذا ، والله ، أشبه بالمروعة من غناء « بصبص » . فحدا به ليله أجمع . فلما أصبح قال : يا ربيع أعطه درهماً فأعطاه درهماً فقال : يا أمير المؤمنين لقد والله حدثت بهشام بن عبد الملك فأمر لى بعشرين ألف درهم . وتأمر لى بدرهم واحد ! قال أبو جعفر ذكرت ما لم يجب ذكره . وصفت رجلاً أخذ مالا من حله وأنفقه فى غير حقه . يا ربيع . اشد يدیه حتى يأتى بالمال . قال الرجل : قد مضت على هذا السنون وقضيت به الديون . وتمزقته النفقات . وما بقى عندى منه شىء . فلم يزل أهل الخليفة وخاصته يسألونه حتى كف عنه . وشرط عليه أن يحدو به ذاهباً وراجعاً ولا يكف عنه . ولقد وقعت هذه الوقائع فى المدينة فى الوقت الذى وقعت فيه لمالك وأبى جعفر وقائع ذات بال .

ولم يكن المهدي أقل ورعاً من أبيه . وقيل إنه اشترى (بصبص) من المدينة وهو ولى عهد بسبعة عشر ألف دينار وأنها ولدت له عليه بنت المهدي .

* * *

ولم يكن شأن الغناء عند الفقهاء غيره عند الخلفاء العلماء : معاوية وعبد الملك وأبى جعفر . مرّ ابن سريج مغنى مكة بعطاء ابن رباح ^(١) (١١٤) وهو بمكة كابن المسيب بالمدينة ، وبابن جريج (١٥٠) . فحلف عليهما بالطلاق أن يغنيهما فإن نهياه بعد أن يسمعا انتهى فغناهما فطربا . ولما ختن ابن لعطاء طعم الناس وتفرقوا إلا خاصته دعوا ابن سريج والغريص . فلما قدما انتقلوا بهما فى داخل داره وبقي عطاء فى مجلسه . فغناهم ابن سريج .

أمنقطع يا عز ما كان بيننا وشاجرني يا عز فيك الشواجر
وغنى الغريص . وعطاء فى مكانه وربما مال رأسه وتحركت شفتاه . قالوا .
يا أبا محمد أيهما أحسن غناء ؟ قال الرقيق الصوت يعنى ابن سريج .
وجلس ابن جريج فى حلقة بمكة وعبد الله بن المبارك أمام أهل خراسان

(١) قال فيه أبو حنيفة : ما رأيت أحداً أفضل من عطاء . وقال فيه ابن سريج : كان المسجد وياته عشرين سنة . وقال فيه الأوزاعي . مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس

فيمن حوله فمر به ابن ميزن المغنى فدعاه فغناه واستعاده ثم التفت إلى التلاميذ فقال : لعلكم أنكرتم ما فعلت ؟ قال العراقيون المتحلقون : إننا ننكره عندنا في العراق. قال : فما تقولون في الرجز ؟ . يعنى الحداء . قالوا لا بأس به عندنا . قال فما الفرق بينه وبين الغناء ^(١) ؟

واهل الحجاز أصحاب ظرف ورقة . خرج عبيد الله بن عمر العمرى حاجاً فرأى امرأة رفثت بكلام . فقال لها : يا أمة الله أأستحاجة ؟ ألا تخشين الله ؟ فسفرت عن وجهه يهر كالشمس . ثم قالت : تأمل يا عمى : فإنى ممن عنى العرجى بقوله :

من اللاء لم يحججن بغية حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا
فقال لها عبيد الله : فإنى آمل ألا يعذب الله صاحبة هذا الوجه في النار .
وقال سعيد بن المسيب : إذ بلغه ذلك : أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها : اغربى قبحك الله . لكنه ظرف عباد الحجاز .

ولما خرج محمد بن عبد الله سنة ١٤٥ قسا أبو جعفر على المدينة فضيق عليها الرزق وأغلق تجارتها من البحر . وبدأت رحلة الفن إلى مصادر النعمة في العاصمة ، كما تطوف الفراشات بالنور . وعظم شأن الغناء عند الخلفاء فسمع الرشيد والمأمون وكانا من الصالحين .

* * *

ومن قبل عصر التابعين خرج رهط من الشبان مع عمر وفيهم رياح الفهرى فقال الشبان له : احدث . قال : مع عمر ! ! قالوا احدث فإن نهاك فانت . فحدث ولم ينه عمر . بل طرب لسماعه . فلما كانت ساعة السحر قال له . كف هذه ساعة الذكر . وفي الليلة التالية سألوه أن ينصب لهم نصب العرب . ففعل حتى

(١) وكان عكرمة مولى ابن عباس صمو عطاء بمكة وعنده علم ابن عباس . قدم البصرة فأحاط به المحدثون العلماء وجلس يحدتهم فسمع صيوت عناء فقطع الحديث يسمع . ثم قال : قاتله الله فقد أجاد . ولم يعد بعض العلماء إلى المجلس في القعدة . وعاد البعض ومنهم أيوب السخيتاني العالم العامل أستاذ يزيد بن هرون . ويزيد يقول عن عودته للمجلس . فد أحسن . ويزيد أستاذ أحمد بن حبل .

كانت ساعة السحر . فقال له عمر : كف فهذه ساعة ذكر . وفي الليلة الثالثة سألوه أن يغنى غناء القيان ، فلم يكذباً حتى صباح به عمر . كف فهذا ينفر القلوب .

وخرج عمر مرة للحج فاقترح من معه على خوات بن جبير أن يغنيهم من شعر ضرار . فقال عمر : بل ادعوا أبا عبد الله أن يغنيكم من بنيات فؤاده . وغنى خوات وطرب عمر حتى إذا كان السحر قال : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا .

وكان عمر شاعر النفس ، في شعره التقوى ، كتب لولاته يقول : مروا الناس أن يخرجوا إلى الصحارى في أيام الربيع فينظروا إلى آثار رحمة الله . كيف يحيى الأرض بعد موتها .

وتغنى عمر يوماً وهو في ركب . فتغنى بحب النبي عليه السلام :
وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد
فاجتمع الركب يستمعون . فلما رأهم اجتمعوا قرأ القرآن . . .

وروا أن النبي عليه السلام رأى ركباً ولهم حاد يحدو بهم فقال : ممن القوم ؟ فقالوا من مضر . فقال : ما لحاديكم ؟ فقال رجل منهم : إن أول من حدا لنحن . قال وما ذاك ؟ قال : كان رجل منا في إبله في الربيع . فأمر غلاماً له ببعض أمره . فاستبطأه فضربه بالعصا . فجعل ينشد في الإبل ويقول : يا يداه ، فقالوا له الزم . فاستفتح الناس الحذاء منذ ذاك .

وروى البراء بن عازب أن النبي كان ينقل التراب يوم الأحزاب ويرتجز بكلمات ابن رواحة :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا
ثم يمد صوته « بكلمة » أينا .

وحدا (أنجشة) بأمهات المؤمنين في حجة الوداع . وكان عبداً

حسن الصوت . وأسرعت الإبل . فقال عليه السلام : « رويدك يا أنجشة ورفقاً بالقوارير » .

مالك والغناء

في إطار ، ما أسلفنا ، نتحدث عما نسب من الغناء . إلى عمر بن عبد العزيز ومالك معه ، وهما من أبناء المدينة ، على لسان أبي العلاء المعري في رسالة الغفران . يلتقي تبعته على ابن خرداذبه وكأنه يتخلص من عبء أثقله . فيقول : « . . ولعله قد نظر في طبقات المغنين فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز ومالك ابن أنس كما ذكر ابن خرداذبه . فإن كان كاذباً فعليه كذبه . . »
والتاريخ يسلم أن أستاذ عمر بن عبد العزيز من فقهاء المدينة السبعة . عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الهذلي . قد صح عنه الشعر الجيد . وهو من بني هذيل قبيلة الشعراء الكبار . وقد قيل إنه جمع السبعة في منظومة تشيد بجمال هذلية قدمت المدينة فقال :

أحبك حباً لا يحبك مثله	قريب ولا في العالمين بعيد
وحبك يا أم العلاء متيمى	شهيدى «أبوبكر» فذاك شهيد
ويعلم وجدى «قاسم بن محمد»	و «عروة» ما ألتى بكم و «سعيد»
ويعلم ما أنحنى «سليمان» كله	و «خارجة» يبدى بنا ويعيد
متى تسألى عما أقول وتخبرى	فللحب عندى طارف وتليد ^(١)

فلما بلغت الأبيات سعيد بن المسيب . قال : والله لقد أمن أن تسألنا وعلم أنها لو استشهدت لم نشهد بالباطل عندها .

وكان لمالك أستاذ في الفقه كمثل أستاذ عمر ، يقرض الشعر بل يصوغ الألحان ويتغنّى . هو عروة بن أذينة . وقفت عليه سكينه بنت الحسين - (١١٧) فقالت : أنت الذى يقال له الرجل الصالح وأنت تقول :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدي عمدت نحو سقاء القوم أبرد

(١) الفقهاء السبعة : سعيد بن المسيب سليمان بن يسار . القاسم بن محمد بن أبى بكر عروة بن الزبير . أبو بكر بن الحارث . خارجة بن زيد - أما السابع فهو الشاعر

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد
 قال : نعم . قالت : وأنت القائل :
 قالت : وأبشثها وجدى وبحت به قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
 ألسن تبصر من حولي فقلت لها غطى هواك وما ألقى على بصري
 قال : نعم . فالتفتت إلى جواركن حولها وقالت : هن حرائر إذا كان خرج
 هذا من قلب سليم قط .

ورثى عروة أخاه بكراً في شعر رفيع . فسألت سكينه عن بكر هذا فعرفوها
 فقالت : لقد طاب بعده كل شيء حتى الخبز والزيت . ردّاً على قوله فيه :
 « وأى العيش يصلح بعد بكر » .

ولما غنيت الأبيات للخليفة الوليد بن يزيد قال للمغني : لمن الشعر ؟ قال
 لعروة . فسخر الخليفة من بكر بقوله : وأى العيش يصلح بعد بكر ! وقال :
 هذا العيش الذي نحن فيه . لقد — والله — تحجر واسعاً .

وعروة فقيه ثبت ، وشاعر غزل ، روى عنه مالك في الموطأ ، وإن رجع
 شهره في تاريخ مالك إلى شعره وغنائه . وقد لحن عروة بعض الشعر مثل :
 يا ديار الحى بالأجمه لم تبين دارها كلمه
 وروى صاحب الأغاني أن عروة قد ذكر أمام عمر بن عبد العزيز فقال :
 نعم الرجل الصالح أبو عامر ، على أنه الذي يقول :
 ولقد قالت لأتراب لها زهر تلاقينا ^(١) .

* * *

(١) وفي ديوان الحماسة أروع القريض لعروة مثل :

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
 بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
 حجب تحياتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
 وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها
 ودخل على هشام بن عبد الملك مع الشعراء فقال له : ألسن القائل :

ترددت في تاريخ مالك — رواية تنسب إليه أنه قال : « نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وأخذ عنهم : فقالت لي أمي : يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه . فدع الغناء واطلب الفقه . فإنه لا يضر معه قبح الوجه . فتركت المغنين واتبعت الفقهاء . فبلغ بي الله عز وجل ما ترون» . ولو صححت الرواية لكانت هوى من أهواء طفل يدق أبواب التعليم . لأن مالكا أقبل على العلم من طفولته . والشك فيها كبير لأن مالكا كان جميل الوجه صبوحه . فلا تصده أمه عن الغناء على هذا الوجه . فإن كان قصدها قبح وجه غيره فإن هذه المجادلة لوجه جميل حجة معه ليقدم ، لا حجة عليه ليحجم .

ويروون من نوادر مالك وملحه أنه مر بمغنية تغني :

أنت أختي وحرمة جاري وحقيق عليَّ حفظ الجسوار
أنا للجار ما تغيب عني حافظ للمغيب في الأسرار
ما أبالي أكان للبواب ستر مسبل أم بقي بغير ستار

وأن مالكا قال : لو غني بها حول الكعبة لحاز . أو قال : يا أهل الدار علموا قيتكم مثل هذا .

ويروون كذلك أن مالكا كان يمشي مع ابن أخته إسماعيل بن أويس فسمعا جارية تغني غزلا :

ليتني أرض لسلمي فتطاني قدماها

= لقد علمت وما الإصراف من خلق أن الذي هو رزق سوف يأتي
أسمى إليه فيميني تطلبه ولو قدمت أتاني لايعنيني
قال : نعم . قال لكنك أتيت إلى الشام في طلب الرزق . وما أراك فعلت كما قلت . قالهروة .
لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ . واعد من نخرجه إلى راحلته فركبها إلى المدينة . فلما كان الليل ذكر الخليفة الرجل فقال لنفسه . هذا رجل من قريش ذكر حكمة فجهته . وهو مع هذا شاعر لا يؤمن لسانه . فبعث إليه بالنقود دينار . فأدركته وهو في بيته في المدينة فأخذ المال وقال لحامله . أبلغ أمير المؤمنين السلام ، وقل له . كيف رأيت قولي : سمعت فأكدت . ورحمت إلى بيتي فأتاني فيه الرزق

ليتني درع لسلمي ترتديني من وراها
ليتني خادم سلمى قاعد حيث أراها

فسأله مالك : رجل أو امرأة ؟ قال : قلت هي غزال خادم بنى عمارة .
قال إنها لفصيحة اللهجة حسنة التأدية .
وروى صاحب الأغاني قول القائل : كنت بالمدينة فخلا لي الطريق
فجعلت أتغنى :

ما بال قومك يا رباب خزرأ كأنهمو غضاب

فإذا خوخة قد فتحت وإذا وجه بدا تتبعه لحية حمراء فقال : يا فاسق
أسأت التأدية ومنعت القائلة وأذعت الفاحشة . ثم اندفع يغنيه . فظننت أن
طويساً قد نشر بعينه فقلت له : أصلحك الله من أين لك هذا الغناء ؟ فحدثه
مالك بقصة طلبه الغناء وهو صغير فقال له الراوى : فأعد جعلت فداءك .
قال لا ولا كرامة . تريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ؟

والذين يتكلمون في مالك والغناء يشيرون إلى أنه لم يذكر في الموطأ أثراً في
تحريم الغناء مع أنه تحدث عن حرمة كثير من الأشياء مما يدل - عندهم -
على أنه يجوز أو لا يقاومه .

ويروى الخطيب البغدادي : أن بعض أصحاب الحديث أتى إبراهيم بن
سعد^(١) ليسمع الحديث فسمعه يتغنى . فقال له : لقد كنت حريصاً على أن

(١) إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . استوطن بغداد وولى بها بيت المال
للرشيد . وأبوه سعد بن إبراهيم (١٢٧) كان قاضياً على المدينة ، ومحدثاً ثقة ، لم يرو عنه مالك . وفي
تعليق في « الرسالة » للشافعي ، ذكر الخلاف في سبب ذلك : قيل إنه وعظ مالكاً فوجد عليه وقيل إنه تكلم
في نسب مالك . ولا يذكر مالك فيمن روى عنهم إبراهيم مع أنه سمع ابن وهب والقعنبي تلميذي
مالك - وقيل ولي إبراهيم القضاء بواسط . وقيل إنه مات سنة ١٨٣ أو ١٨٤ - عن ٧٥ عاماً وقيل عن
٩٥ عاماً .

وهو من رواية المغازي عن ابن إسحق . وابن إسحق محل طعن في المدينة من أعظم المحدثين بها في
نصرته هشام بن عروة بن الزبير . ومالك . وكلاهما يقول صراحة : إنه كذاب . ويقول عنه ياقوت
في معجم الأدباء « خرج من المدينة قديماً فلم يرو عنه (من أهلها) غير إبراهيم بن سعد » .

أسمع منك أما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً . قال : إذن لا أفقد إلا شخصك . على وعلى إن حدثت ببغداد ما حدثت حديثاً حتى أغني قبله . وبلغت الحادثة الرشيد وكان قد قدم عليه سنة ١٨٤ وأظهر الرشيد بره . فدعا به فسأله عن حديث الخزومية التي قطعها النبي صلى الله عليه وسلم . في سرقة الحلبي . فدعا بعود . فقال الرشيد : أعود المجرم ؟ قال : لا . ولكن عود الطرب . فتبسم . قال إبراهيم : لعله بلغك يا أمير المؤمنين حديث السفينة الذي آذاني بالأمس وألحاني إلى أن حلفت ؟ قال : نعم . فدعا الرشيد بعود فغناه :

يا أم طاححة إن البين قد أفدا قل الثواء إذا كان الرحيل غدا
فقال الرشيد من كان من فقهاءكم (فقهاء المدينة) يكره السماع ؟ قال من ربطه الله . قال الرشيد : فهل بلغك عن مالك بن أنس في هذا شيء ؟ قال لا والله . إلا أن أبي أخبرني أنهم اجتمعوا في مدعاة كانت في بني يربوع وهم يومئذ جاة ، ومالك أقامهم في فقهه وقدره . ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون وياعبون . ومع مالك دف مربع وهو يغنيهم :

سليمي أجمعت بينا فأين لقاءها أينا
ولقد قالت لأتراب لها زهر تلاقينا
تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينا

فضحك الرشيد ووصاه بمال عظيم .

ولو صحت الرواية أو صدقت الواقعة لكانت الرواية في آخر سنة من حياة إبراهيم . ووقعت الواقعة في أول حياة مالك . أي في عهد التلمذة ، فهو عندئذ قد يكون أقل القوم في فقهه وقدره .

وأيضاً كان الأمر فإن مالكا قد عقد لنفسه حاققة في مسجد النبي وهو في نحو السابعة عشرة ، وكان تحريم الغناء درساً من دروسه .

ولو وقع ما يلام عليه مالك لما سكت عنه النقدة الشداد من معاصرين أدنى إليهم أن يهاجموه من أن يهادنوه ، مثل ابن أبي ذئب وابن إسحق . والأول عنيف لا يهاب . ياوم مالكا لأنه شهد بما رآه ولم يشهد بما لم يره !

عندما طلب أبو جعفر إليهما وإلى ابن أبي سبرة أن يحققوا شكوى قرشي حبسه عبد الصمد - أمير المدينة - حبساً ضيقاً. ولما انتقوا إلى السجن كان قد حل وثاقه وكنس المكان ورشه . فشهد مالك وابن أبي سبرة بما بصرت به عيناها . وأحس ابن أبي ذئب أن هناك تغييراً للحال فقال لمالك : داهنت وملت إلى الهوى اكتب رأيت حبساً ضيقاً وأمرأ شديداً . وابن أبي ذئب هو الذي يقول لأبي جعفر والسياف على رأسه ، كما يروي الشافعي ، أشهد أنك أخذت المال من غير حقه وجعلته في غير أهله. ويقول له أبو جعفر والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك .

وكان ابن إسحق (١٥١) يهاجم مالكا في صميم اختصاصه ويقول : أنا بيطار حديثه . وكان مالك يقول : « إنا نفينا من المدينة »^(١) . والمدينة تنفي خبثها .

ذلك، ومالك في فقهه ينهى عن الغناء ويراه عيباً ترد به الجارية المشتراة إن وجدت مغنية . والشافعي يراه مكروهاً. وأبو حنيفة يراه ذنباً. ولم يمتنع مع ذلك الغناء والسماع .

وابن حنبل يروي عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون تلميذ مالك بالمدينة - « قدم علينا ومعه من يغنيه » . وبيت الماجشون بيت علم وورع . ففي صنيع عالمه دلالة على أن مجتمعات المدينة ترى سماع الغناء كالغناء لا جناح فيه . وإنما الجناح فيما يؤدي إليه الغناء ، أو يقصد به أو يصحبه ، من الفتنة ، أو ما يؤدي إلى الفتنة . ومن أصول مالك سد الذرائع التي تؤدي إلى مفسدة . ولقد سمع عبد الملك بن مروان - فقيه المدينة - الغناء . لكنه لم يقبل أن يفسد الغناء الفتيان . إذ قيل له إن ابن مسحج أفسد فتیان قریش وأنفقوا عليه أموالهم فكتب إلى عامله أن اقبض ماله وسيره .

ونهى النبي أن يدخل المختشون على النساء . والتخث عيب من كل وجه . فما بالك بالغناء الذي يفسد النفس ؟ والقول والفعل قد يصطبغان بألوان الزمان

(١) كان ابن إسحق يتكلم في نسب مالك أن ولاء مالك لبني تميم ليس ولاء النظرة .

والمكان . ويريد الاول حله وشدة أن يطرد لرحل واحد . والوا إن صالح بن حسان المدني . (في القرن الثاني) كان سرياً يملأ الخجاس إذا تحدث . وكان يتحدث عن محمد بن كعب القرظي وغيره . وكان عنده حوار مغنيات فحين وضعه عند الناس .

كان الغناء وسماعه عرف العصر . وسبق حاجة للنفس . يكمل لنا أسباب الحياة . ولا يقدح فيه ابتذال المغنين أو السامعين ، فالمبتدلون هم المقصوحون . لقد كانت عنان الناطقية تستفتح مجالسها للغناء بتلاوة القرآن أيام الرشيد أما أخوه إبراهيم فقد ألقت به الثورة عامين على كرسى الخلافة وكان مغنياً عبقرياً وله من الكتب كتاب « الغناء » وأما ابنه المأمون فكان حتماً فيلسوف الخلافة عشرين عاماً (١٩٨ - ٢١٨) يتحدث عشرات الأحاديث في المجلس الواحد وله مجلس خاص للفقه والسنن والأدب . نادى حيناً بجواز المتعة . فرووا له حديث الزهري بتحريمها فسأل الأشهاد : أمحفوظ هذا من حديث الزهري ؟ فلما قالوا نعم . رواه جماعة منهم مالك - ومالك شيخه . قال : أستغفر الله . نادوا بتحريم المتعة فنادوا .

وكان يهوى الغناء ويعشق عليه بغير حساب^(١) .

(١) سأله إسحق الموصلي أن يكون دحوله عليه مع أهل العلم والأدب الرواة لا مع المغنين فأذن له . ثم طلب إليه أن يأذن له في الدخول مع الفقهاء فأذن .

قالوا : وإن حمائه من المغنين جلوس في حجرة لهم داب يوم ، ينظرون خروج الناس من عند المأمون وجلوسه إليهم إذ دخل عليهم يحيى بن أكنم قاضي القضاة وكان من عاقبة عصره ويده في يد إسحق بماتيه حتى جلس معه بن يدي المأمون . فكاد علويه المغني أن يحن ! ثم مضى مدة فسأل إسحق المأمون أن يأذن له في لبس السواد يوم الجمعة وأن يجلس معه في المنصورة فضحك المأمون وقال ولا كل ذا يا إسحق . ولقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم وأمر له بها .

وكان إسحق في عهد الواثق يماسي أحمد بن أبي دؤاد في البلاط في ربه ، وقلنسويه مثل قلنسويه . حتى يقول علوية : يا هؤلاء : خيناكر (مغن أو مضحك بالفارسية) يدخل مع قاضي القضاة فيجيبه من آخر هو محارق . دع عنك هذا فقد والله بلغ ما أراد .

وابن أبي دؤاد هو الشديد التعصب للعلم والدين كما يفهمه المعرلة . . وهو الذي دبر صرب =

ولئن كان عمر بن عبد العزيز قد تغنى لنفسه في الصبا ، أيام كان يجر إزاره خيلاء ، أو كان عروة بن أذينة قد لحن ألحاناً ، فإن مالكا وجد من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والخلفاء والفقهاء من يستمعون ؛ فهذا عرف وجد عليه مجتمع المدينة . لكنه حذر من أن يتخذ وسيلة لنفاق القلوب عندما سئل عنه فأجاب : إنه يصنعه بالمدينة الفساق .

ومن الصحيح أن الابتذال في كل أمر منقصة . وأن من يتخصص في جمع الرخص واتخاذها ديناً يتدنّى بها إلى الشر . قال سليمان التيمي : «إن أخذت برخص كل عالم اجتمع فيك الشر كله» . ومن غلاف الاحتياط علا بسد الذريعة . فشعر الغواية منهى عنه — والبعض يتشدد فيرى من الشر إنشاد كل شعر ! قال المعتمد بن سليمان : «رأني أبي وأنا أنشد الشعر قال لا تنشد الشعر فقلت له : يا أبت كان الحسن ينشد الشعر وكان ابن سيرين ينشد الشعر . فقال : أي بني . إن أخذت بشر ما في الحسن وشر ما في ابن سيرين اجتمع فيك الشر كله» مع أن جابر بن سمرة يقول : «جاست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون من أمور الجاهلية . وهو ساكت . وربما تبسم معهم » .

لكنه عليه السلام أعرض عن سماع غناء جاريتين عند عائشة كانتا تغنيان

أحمد بن حنبل في محاكمته من أجل خلق القرآن .

وإسحق الموصلي (١٥٠ - ٢٣٥) هو ابن إبراهيم الموصلي وكان إبراهيم في عهد المهدي والرشيد إذا غنى وضرب له زلزل — وزوجته أخت زلزل — اهتز له المجلس .

وكانت لإسحق معرفة راسخة باللغة والأشعار وأيام الناس والحديث والفقه والكلام .

قال إسحق يوماً ليحيى بن أكرم : ما بالي أقوم بسائر العلوم قيام أهلها وأنسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه . فجعل القاضي الجواب إلى العطوي الشاعر فقال : هل أنت كالقراء والأخفش في النحو ؟ قال لا ، قال : أفأنت في اللغة كالأصمعي وأبي عبيدة ؟ قال لا : قال ، أفأنت في الكلام كابين عبيد والنظام ؟ قال لا ، قال أفأنت في الفقه كالقاضي : قال لا ، قال فن ها هنا نسبت إلى ما نسبت إليه لأنك لا نظير لك فيه .

وكان المعتصم يقول : ما غذاني إسحق قط إلا خيل إلى أنه قد ريد في ملكي .

غناء بعث . فاضطجع على فراشه وحول وجهه وهو يقول : « است من دد ولا دد مني واست من الباطل ولا الباطل مني » . والدد اللهو واللعب . .

ومقامه عليه الصلاة والسلام ليس كمكان الناس فهو يصنع ما يليق بمقامه حتى ليقسم بين زوجاته بعدل النبي ثم يقول : « اللهم هذا عملي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك » يقصد ميل القلب إلى البعض دون البعض . فذلك فعل الرسول . أما فعل الناس فقد فعلته أم المؤمنين إذ سمعت غناء بعث (١) .

(١) يقول الله جل ثناؤه في سورة لقمان :

(ومن الناس من يشتري طو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً . أولئك لم يعبأ بهم) .

واشتهر أن الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه كان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا الطلق به إلى قينته فيقول « أطعميه واسقيه وغنيه » ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد ! قال المفسرون إن طو الحديث هو كل ما شغلك عن العبادة من السمر والأصاحيك والخرافات والعناء . وقيل إن طو الحديث هو الشرك وقيل يفسر بكل ذلك . وعن ابن عباس أنه قال : طو الحديث هو الغناء وأشبهه وقال مكحول : إني أجد الجوارى الضاربات وعن ابن مسعود : « هو رجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً » .

فإن كانت الآية نزلت في النضر . فهذا رجل يصد عن الإسلام وعمله عمل كافر ، بما فيه الإطعام والسقي . وغناء الجارية . أمكن الله المسلمين منه يوم بدر فقتله على بأس النبي عليه السلام . وظاهر النص لا يفيد التحريم على القطع لفن الغناء .

وإذا كان المقصود السمر والأصاحيك والخرافات فزاد تحريم غرضها من الإضلال عن سبيل الله . ولذلك يفهم تفسير الله بالفرض الذي اشترت له كما صنع النضر .

ويفهم تفسير ابن مسعود بالانقطاع ليلاً ونهاراً مما يشغل عن ذكر الله سبحانه .

وتفسير مكحول عن الجوارى الضاربات لا يجعل الضرب وحده حراماً إذا قام به رجل وإنما الحرام ضرب الجارية إذا أحاط به الباطل ، كالحبال الذي يستعمل فيه . أو الفرض الذي يسحر له . ومن الباطل عمل جارية النضر أو انقطاع الرجل لجارية تعنيه ليلاً ونهاراً . فهذه مفسدة .

يقول ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ويحول الضحك : « الغناء منفذة للمال ، مسخطة للرب . مفسدة للقلب » . . . فيخرج ما لا يستغنى المال ولا يسخط الرب أو ما يصلح القلب . مثلما ورد في الدر المختار من أن « التفتي لنفسه لدفع الوحشة . لا بأس به عند العامة » . ومثل ما أجاز من الغناء في العرس . كمثل ما أجاز ضرب الدف فيه . ومنهم من أباحه مطلقاً

والفارابي - المعلم الثاني . أضحك بموسيقاه وأبكى . وأقام بها سامعي البلاط - ومضى وهم نيام ! . =

.....

= والكننى فيلسوف العرب - كان عالماً بالموسيقى. والرازى قبل أن يصبح طبيب المصور الوسطى كلها كان موسيقياً. والموسيقى والفناء صنوان .

وكان أبو حنيفة يكره الفناء ويجعله من الذنوب. وكذلك كان رأى أئمة الكوفة الثورى والشعبى وسجاد. ولما سأل عبد الله بن أحمد أباه الإمام أحمد بن حنبل قال : ينبت النفاق فى القلب . ثم ذكر عبارة مالك : إنما يفعله عندنا الفساق . فربط بين عمل الفساق وإنبات النفاق وبين الجواب . والقرطبى يذكر عن مالك رده على بن المبارك « من جلس إلى قينة يسمع منها صب فى أذنه الآتى يوم القيامة » .

فهنا الجلوس - ومنه الانقطاع - والقينة والسماع . أمور ثلاثة . أما الشافعى فيراه لهواً مكروهاً يشبه الباطل والمحال ، من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته . كل أولئك ومن الفناء والسماع ما لا بأس به - بيقين - كأغاني القوة والفتوة . وسماع ما بعد من الابتذال وسلم من الشهوة فإذا اقتصرت الحرمة أو الكراهية على ما يؤدي إلى مفسدة ونفاق فذلك سد الدريعة .

الباب الخامس

روح المدينة

« أصحاب كالنجوم »
« بأيهم اقتديتم »
« اقتديتم »
(حديث شريف)

في هذا الباب محاولة لإجمال خصائص المفكر . وطريقته في وجازة وتركيز .
ونحن نحاول إبراز صورة . والشمول في التصوير مستحيل ، وحسبنا القليل القاطع
بما فيه من بروز ، وقوة أثر ، تتجلى به الصورة المنشودة .

وفي كل خلعة من خلجات مالك اتباع عميق الأمر الأول . في السنة
ومقاصدها ، وارتباط وثيق بالمدينة وأهلها ، في عملهم وعامهم . وهذان العمل
والعلم نابعان من صميم الحنيفية السمحة . صنعنا على أيدي الرسول وصحبه والتابعين
ليصير منهما جماع فكر « إمام المدينة » .

وعلى هذا الغرار جاءت الفصول الثلاثة التالية عن عمل أهل المدينة والعلم عند
أهل المدينة والعمل بالمصلحة الإسلامية .

الفصل الأول عمل أهل المدينة

الإمام مالك فقيه عمل ، يعتد بالواقع ، في إثبات الأحكام والنصوص والعمل بالمصاحبة ، وبالعرف ، كما سئرى بعد ، وهو نحو تقاربه شرائع معاصرة تجعل الأحكام مصادر للقواعد والنظريات وتتخذ من السوابق القضائية أصولاً قانونية . فالأحكام حلول لمشاكل الناس . تفعل فيها وتنفعل بها . وهي بعد أمور شاركت فيها الجماعة . والقاعدة الناتجة عن التطبيق قاعدة ثبتت على الامتحان . ومالك يحتفل أعظم احتفال بسابقة العمل بالمدينة ، وباتفاق الجماعة عليه . أخذاً بالاحتياط في الدين ، وانتفاعاً بوضع المدينة وأهلها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين . فهو يجعلها وأهلها مزينة علمية . وطريقة في الثبوت ، وضماناً من الزلل . بل شعاراً في الفقه .

نزلت الأصول الكلية للدين بمكة . والمدينة ، بالقرآن والسنة . ولما خرج الرسول إلى المدينة واتسعت دائرة الإسلام ، كملت الأصول على تدرج . ففيها عرضت الخصوصيات التي تقتضيها عوارض الحياة الجديدة . التي أرسى عليها الإسلام أساسه . وبدت من البعض فلتات . فاحتاجوا إلى حدود تحدد لهم الشرع وما يخالفه . فنزل بها القرآن وجاءت بها سنة النبي . وفي المدينة وقع معظم النسخ . الذي ورد في القرآن . ولم يثبت نسخ لأصل كلي . راعى الشارع التدرج وفقاً بأبناء العصر لبلوغ الغرض . ووضح للناس دينهم ، وفقهه الراي إلى حفظ الضروريات . ورفع الحرج ، بالتخفيف والرخيص : وتجميل الحياة . وتم الدين يوم نزل قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم . وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وبكى عمر يوم سمعها إذ استشعر نعي النبي . وقال : « ما بعد الكمال

إلا النقصان » ولم تطل بالنبي أيامه بعد ذلك إلا واحداً وثمانين يوماً .
والسنة هي ما نقل عن النبي عليه السلام من أقوال ، أو أعمال ، أو إقرار
لأقوال أو أعمال غيره . فمن عمل على خلاف سنة النبي لم يكن على سنة . بل كان
على بدعة . وشر الأمور المحدثات البدائع .

وعمل الصحابة على الجملة اتباع لسنة ثبتت عندهم وبخاصة الخلفاء الراشدين
وهو عليه السلام يأمر بالافتداء بهم فيقول : « عليكم بسنتي وسنة خلفائي
المهديين . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » ومثل سنة الصحابة هذه حد الحمر .
فقد كان تعزيز الشارب في عهده عليه السلام غير محدود . تارة يضربونه نحو
أربعين جلدة ، وتارة يبلغون ثمانين وكذا في عهد أبي بكر . فلما كان آخر
إمرة عمر استشار الصحابة في حد زاجر . فقعد على القاعدة قال : نرى أن تجلده
ثمانين لأنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المقرئ
جلد ثمانين . وقال عبد الرحمن بن عوف : أرى أن تجعلها كأخف الحدود .
يعني ثمانين .

وأجمع الصحابة على هذا .

ولما فسرت عائشة قوله تعالى لرسوله : (وإنك لعلی خلق عظیم) بأن خالقه
هو القرآن دلت على أن فعله وقوله وإقراره في الحياة راجع إلى القرآن . والعلماء
مجمعون على أن رد النزاعات إلى الله وإلى الرسول حسبها وردت الآية : (فإن تنازعتم
في شيء فردوه إلى الله والرسول) مقصود به الاحتكام إلى الرسول . إن كان
حاضراً . وإلى سنته إن كان غائباً . أو بعد مماته .

وكان النبي يبين حكم القرآن . فيقيس على تحريم القرآن الجمع بين المرأة
وابنتها . وبين الأختين في الزواج . تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها .
ويعلل ذلك بقوله : « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » وقيس على تحريم
القرآن الأمهات والأخوات من الرضاعة . تحريم سائر القربات من الرضاعة
كالعمة والحالة . وبنت الأخ . وبنت الأخت - وأشباه ذلك ويقول : « إن الله

حرّم من الرضاة ما حرّم من النسب « (١) .

على أن ما حرّم الرسول أو حال فعن الله حرّم وحال . قال عليه السلام :
« ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » يعنى السنة . فالسنة بهذا المعنى منزلة عليه
بالوحي . وإن كانت لا تتلى كما يتلى القرآن .

وقديماً وجد من قالوا : لا نقبل إلا ما جاء به نص القرآن . وهؤلاء كفار
بلا جدال . لأن السنة مبينة للدين كله ، ونبه النبي عليهم في حديثه : « يوشك
الرجل منكثاً على أريكته يحدث بحديثي فيقول بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل
فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . ألا وإن ما
حرم رسول الله مثل ما حرم الله » .

ويروى عن عمران بن حصين أن رجلاً أتاه فحدثه فقال الرجل : حدثوا
من كتاب الله عز وجل . ولا تحدثوا عن غيره . فقال له : إنك امرؤ أحمق أتجد
في القرآن الظهر أربعاً لا يجهر فيها ؟ وعدّ الصلوات وعدّ الزكاة ونحوها . ثم قال :
كتاب الله أحكم ذلك والسنة تفسر ذلك .

قال رجل تابعي : لا تحدثونا إلا بالقرآن . فرد عليه مطرف بن عبد الله
الصحابي : « والله ما نريد بالقرآن بدلاً . ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا » .
أنذر الرسول من يكذب عليه بعذاب جهنم . ولم ير أن يكتب إلا القرآن .
ولم يعارض في أن يتحدث عنه . روى عن أبي سعيد الخدري أنه قال : « قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن

(١) وقايس الرسول بين مكة والمدينة : حرم الله تعالى مكة بدعاء إبراهيم : (رب اجعل هذا البلد
آمناً) فلما أشرف النبي على المدينة دعا لها كدعاء إبراهيم واستجاب الله لدعائه . « اللهم إني لأحرم ما بين
جبلها مثلما حرم إبراهيم مكة » .

وقال عليه الصلاة والسلام في المدينة : « إن إبراهيم حرم بيت الله وآمنه وإني حرمت المدينة ما بين
لابتيها فلا يصاد صيدها . ولا يقطع عضاها » .

وكان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به رسول الله فإذا أخذه قال : « اللهم بارك لنا في ثمرنا وفي
مدينتنا . وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مئتنا . اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونبيك . وإفقه دعاك
لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة . ومثله معه » ثم يدعو أصغر وليه فيعطيه ذلك الثمر .

فليمححه . وحدثوا عني فلا حرج . ومن كذب علي متعمداً . فليتبوأ مقعده من النار .

واستجاب عليه السلام لرجل من اليمن طالب أن تكتب له خطبة للرسول .

* * *

انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى . وبالمدينة من الصحابة (١) كثيرون مات منهم فيها نحو عشرة آلاف بين اثني عشر ألفاً عادوا إليها بعد وقعة حنين في السنة الثامنة والألفان الآخران تفرقا في الأمصار .

وكانوا يتخرجون عن التفسير . روى أبو عبيد القاسم بن سلام أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى : (وفاكهة وأبا) فقال : أي أرض تفلني وأي سماء تظلني إذا قامت في القرآن ما لم أعلم .

وروى الشعبي عنه أنه سئل عن الكلالة (٢) فقال : أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله . وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : « الكلالة من لا ولد له ولا والد » .

وسأل رجل ترجمان القرآن ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة فقال له : فما يوم (كان مقداره خمسين ألف سنة) فقال له السائل : إنما سألتك لتحدثني فقال ابن عباس (هما يومان ذكرهما الله في كتابه . الله أعلم بهما) ... فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم (٣) .

* * *

(١) الصحابي عند المحدثين كل مسلم رأى النبي ولو ساعة . ولو لم يحدثه ولو لم يجالسه . ويشترط جمهور الأصوليين الرقعة فالصحابي عندهم من طالت صحبته للنبي ، متبعاً له مدة يثبت منها إطلاق وصف صاحب عرفاً دون تحديد . وقدر البعض الزمن بسنة أو غزوة .

(٢) الكلالة مشتقة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه . يقول تعالى : (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) .

(٣) جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال : أخرج عليك إن كنت مسلماً لما قلت عني . وروى مالك عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من آيات القرآن قال : إنا لا نقول شيئاً في القرآن . مع أنه كان يفتي في الحلال والحرام وكان يلقب بسعيد ابن المسيب الجريء .

قال مسروق : اتقوا التفسير فإنه الرواية عن الله .

عظم حظ المدينة من فقهاء الصحابة الذين يفاخر بهم التاريخ وفيهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأمهات المؤمنين وهن معلمات فقه في المقام الأول . حتى الذين رحلوا إلى الكوفة ودمشق وفسطاط مصر كانوا عارية من المدينة . فازدادت بوجود الصحابة فيها حفاظاً على سنة الرسول وهدية . بالنقل الذي ظلوا يتقاونه والعمل الذي طفقوا يعملونه . وتكاثر النقلة عنهم وتضافر النقل بكثرتهم ومكانتهم . ويعملهم به . فكان مالك يقول عن الحديث الذي لا يحدث به بين طرفي المدينة : « إذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته » .

والرسول يقول عن أصحابه : « الله الله في أصحابي . لا تتخذوهم غرضاً بعدى . فمن أحبهم فبحبي أحبهم . ومن آذاهم فقد آذاني . ومن آذاني فقد آذى الله . ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » وقال فيهم : « لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيبه » والله تعالى يقرنهم بالرسول ويزكيهم فيقول : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) ويقول فيهم سبحانه : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) .

ولقد رتبهم البعض اثنتي عشرة طبقة آخرها من أسلم يوم الفتح . وابن حزم الأندلسي يرتبهم « يفضل المهاجرون الأولون بعد عمر ثم بعد هؤلاء أهل العقبة ، ثم أهل بدر ، ثم أهل المشاهد مشهداً مشهداً . وأهل كل مشهد أفضل من المشهد الذي يليه حتى يبلغ الأمر إلى الحديبية ، فكل من تقدم ذكره من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم إلى تمام بيعة الرضوان (يوم الحديبية) فإننا نقطع على غيب قلوبهم أنهم كلهم صالحون ، ماتوا كلهم على الإيمان والهدى والرفقة الكافية والبر . كلهم أهل الجنة لا يبلغ أحد منهم النار » .

ومن الصحابة من لازم الرسول فأكثر الرواية كعائشة . وكأبي هريرة وهو يقول : « إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً » . ثم تلا قوله تعالى : (إن الذين يكتبون ما أنزلنا من البينات والهدى . . . الآية) إن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة

كان يلزم الرسول صلى الله عليه وسلم - يشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون^(١) .

ذلك ، وبيانه عليه السلام للأحكام . عملي وكلامه موجز . تقول عائشة : « ما كان النبي يسرد كسر دكم هذا . ولكن كلام قليل لو عده عاد لأحصاه » . ومن الصحابة من كان يحفظ ومن كان لا يحفظ فيروى من فهمه بالمعنى . وكانوا يتفاوتون في فهم المعاني ، ولذلك تصدى للفتيا منهم المبرزون في العلم . وكانوا يشتورون كزيد وعبد الله بن عمر يتساءلان ، وعمر وعبد الله بن مسعود وزيد يتساءلون ، وعلى وأبي بن كعب وأبي موسى يتشاورون^(٢) .

وقد يحمل بعضهم فعل الرسول على القربة . ويحمله البعض على أنه فعله على سبيل الاتفاق لا على سبيل السنة ، كالرمل في الطواف رآه ابن عباس على سبيل الاتفاق ، ورآه الجمهور سنة . وقد يختلفون للسهو أو الضبط أو من أجل العلة . لكنهم لم يختلفوا فيما هو محض الشرع والدين . وإن اجتهدوا في غير ذلك . ولم يتفقوا عند ظواهر النصوص وعملوا بما رأوه مصلحة في شئون

(١) فيروى عن أبي هريرة ٣٧٤ هـ حديثاً وابن عمر ٢٦٣٠ حديثاً وأنس بن مالك ٢٢٧٦ حديثاً وعائشة ٢٢١٠ حديثاً وابن عباس ١٦٧٠ حديثاً وأبي سعيد الخدري ١١٧٠ حديثاً وجابر بن عبد الله ١٥٤٠ حديثاً وعبد الله بن عمرو ٧٠٠ حديثاً وابن مسعود ٨٤٨ حديثاً وعمر ٥٣٧ حديثاً وعلى ٥٨٦ حديثاً وأبي بكر ١٣٢ حديثاً وأبي ذر ٢٨١ حديثاً .
يلاحظ أن أكثر الصحابة صحبة بعد عائشة أبو بكر وعلى وعمر وابن مسعود أقلهم رواية .

(٢) الصحابة كلهم عدول عند جمهور الأمة - أهل السنة - لا يسأل عنهم أو يشترط تركيبتهم في رواية السنن . وللشيعة والخوارج فيهم آراء . تدور حول من وإلى كلا من الشيعة والخوارج . وبعض المعتزلة يقول كلهم عدول إلا من قاتل علياً . ولو صحح هذا لسقط طلحة والزبير من العدول المرضى عنهم والله تعالى يقول : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) .

يقول الغزالي عن الصحابة : الذي عليه سلف الأمة وجهاير الخلف أن عدالتهم معلومة بتعديل الله عز وجل إياهم وثنائه عليهم في كتابه فهو معتقدنا فيهم . إلا أن يثبت بطريق قاطع ارتكاب واحد لعسق مع علمه بذلك وذلك بما لا يشت . فلا حاجة لهم إلى التعديل ، وقد زعم قوم أن حالهم كحال غيرهم في لزوم البحث ، وقال قوم : حالهم العدانة في بداية الأمر إلى ظهور الحرب والخصومات . ثم تغيرت الحال وسفكت الدماء فلا بد من البحث ، ثم فسر الصحابي المعنى بهذا بمن كثرت صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم .

المعاملات السياسية والتدبير ومصالح الدولة .

* * *

في عصر الفقهاء السبعة، جُمع فقه الخلفاء والصحابة وحاول الفقهاء تدوينه . ثم ساد عصر الفقهاء السبعة مشافهة بالحفظ في الصدور لمن جاءوا بعدهم . وتُوج العصر في ختام القرن باستخلاف عمر بن عبد العزيز ، وكان مدرسة وحده هي مدرسة الاتباع الكامل في السياسة والحكم والعلم . ولذلك قدمت للتاريخ البشري نموذج النجاح الذي ييسر على العقل تلمياه . بأنه الرجوع الصادق إلى الكتاب والسنة . وكان عظيم الأثر فيمن تتلمذ عليه ، من شهوده ، أو جاء بعده . وفي طليعتهم علماء المدينة المعاصرون ومنهم — أبو بكر بن حزم وابن شهاب الزهري . وربيع بن أبي عبد الرحمن ومحمد بن المنكدر . أساتذة مالك . يقول مالك عن مدرسة المدينة . « كان أعلم الناس عندنا بعد عمر — بن الخطاب — زيد . وكان إمام الناس عندنا بعده . ابن عمر . وكان سعيد بن المسيب جل ما يفتى به من فتاوى زيد » ، ويقول على بن المديني فيما بعد ذلك : « وكان أصحاب زيد بن ثابت الذين يذهبون مذهبه في الفقه الاثنى عشر : قبيصة بن ذؤيب . وخارجة بن زيد . وأبان بن عثمان . وسليمان بن يسار . وكان ممن لا يثبت له لقاء مثل هؤلاء الأربعة سعيد وعروة وعبد الملك بن مروان وأبو سامة بن عبد الرحمن بن عوف وعبيد الله بن عتبة . وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وسالم بن عبد الله والقاسم بن محمد » .

أهملت الدولتان اللتان نقلتا الخلافة إلى دمشق وبغداد أهل المدينة . وجازاها بعض الفقهاء بصدود واستعلاء . يقول قائل لسعيد بن المسيب : يزعم قوئك أنما يمنعك من الحج أنك جعلت الله عليك ، إذا رأيت الكعبة . أن تدعو على بني مروان . فيقول : ما فعلت ذلك : وما أصلى لله عز وجل في صلاة إلا دعوت الله عليهم .

وخرجت دولة العباسيين على السنة . بالبطش من أجل الخلافة . وكان حقاً أن نرى المدينة الغضبي تعنص بالسنن فهي خصيصتها التي ينحني لها ، من

أجلها . كل المغاضبين لها . وإن كانوا هم العلماء . روى — الشافعي : أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة للسورة التي بعد أم الكتاب ولم يكبر حين يهوى . فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك . فاما صلى المرة الثانية بسمل وكبر حين يهوى ساجداً .

ولما طلب أبو جعفر إلى مالك أن يصاحبه إلى عاصمته أبي أن يتخلى عن عاصمة السنة . وقال : « إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين فلا سبيل إلى مخالفته وإن تكن غير ذلك : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والمدينة خير ذم لو كانوا يعلمون » .

* * *

كان العلم يطلق على المعرفة بالسنن وأحكام الصحابة . والفقه يطلق على إفتاء المفتي دون اعتماده — ظاهراً — على النص — وبهذا وجد هؤلاء المطلقين المحدث والفقيه — فقليل مثلاً : إن ابن عمر جيد الحديث وليس جيد الفقه . وابن عباس عليم في الرواية وفقهه . وزيد بن ثابت فقيه الدين عالم السنن . وابن المسيب فقيه الفقهاء عالم العلماء .

ومالك تلميذ كل هؤلاء : قد جمع السنن وأكثر الفتوى في الأحكام ورأيه كما قال عن نفسه هو ثمرة العلم والعمل في المدينة . فمالك يعدل في عالم الفقه ما يجوز أن يسمى بأسلوب العصر الحالي « روح المدينة » .

وهو يقول : « وأما ما لم يسمع منهم — فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقينته حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم . . . فنسبت الرأي إلى بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى بهم والأمر المعمول به عندنا » .

والسنة عند مالك تثبت من وجهين — أحدهما أن نجد الأئمة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا بما يوافقها . وهذا هو الذي يقول فيه مالك « وعليه العمل عندنا » والآخر ألا نجد الناس اختلفوا فيها وهذا هو الذي يقول فيه « وهو الأمر المجتمع عليه عندنا » وترد إن لم يجدوا للأئمة فيها قولاً ووجدوا الناس اختلفوا

فيها . ومعنى ذلك أن تحقيقها يكون بما يجري عليه أهل المدينة ويتفقون عليه . وهو بهذا يعطى عمل أهل المدينة واتفاقهم أهمية كبرى تزيد على اعتبارها وسيلة من وسائل الثقة بالحديث .

والذى يذهب إليه مالك آية على انبثاق فكره من منابع الأصيلة — فالسنن أرفع صадرات المدينة . ومنتجاتها . والشئ يؤخذ من مصادره . خطب ابن عباس وهو على البصرة لعل فقال : أدوا زكاة صؤوكم . فجعل الناس ينظر بعضهم إلى بعض — إذ كانوا لا يعلمون حكم زكاة الفطر من قبل : فقال من ها هنا من أهل المدينة ؟ . . . قوهوا فعلموا إخوانكم فإنهم لا يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض صدقة رمضان نصف صاع من بر وصاعاً من شعير أو صاعين من تمر . على العبد والحر . والذكر والأنثى . . . وإنما كاف أهل المدينة لأنهم أعرف الناس بزكاة الفطر . وبمكيها . . . وهذه مدينة البصرة كلها لا تعرف سنة خطيرة كهذه السنة !

والحق أن صدارة المدينة هي التي صدرت أهلها . ومن رأى مالك أن مبايعة أهل الحرمين بمكة والمدينة كافية لانعقاد البيعة ، لأنهم حملة السنة النبوية . فهم أهل الحل والعقد . . . وأهل المدينة هم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وإذا كان هذا رأيه في صحة الخلافة فهذا رأيه في صحة الرواية .

والمحدثون من غير المدينة — يتحدثون ويعنعنون حتى يصلوا إلى الصحابي الواحد ، وهو من المدينة . في الغالب . ولا يشترك في هذه الميزة ، بعض الشركة ، إلا من كانوا بمكة . لكن انتقال المهاجرين إلى المدينة وعدم رجوعهم إلى مكة جعل الكلمة الأخيرة للمدينة . فالرواية عن كان بمكة تحتل نسخاً لها بعد إذ انتقل الإسلام ورجاله إلى المدينة . ومجرد احتمال النسخ كالداء الخفي المخوف .

أمسى عمل أهل المدينة وكأنه جواز المرور للرواية؛ تحدث الطبرى في تاريخه أن محمد بن أبي بكر بن حزم (١٣٢) . كان على القضاء بالمدينة . فكان إذا قضى قضاء مخالفاً للحديث قال له أخوه عبد الله : أى أخى : قضيت اليوم

في كذا وكذا ؟ . فيقول محمد : نعم ، فيقول عبد الله . فأين الحديث ؟ عز
الحديث أن يقضى به !! فيقول محمد : أيهاه فأين العمل ؟
هذان عبد الله ومحمد ولدا أبي بكر بن حزم .
أما أبوهما فيقول : « إذا وجدت أهل المدينة مجتمعين على أمر فلا تشك
أنه الحق » .

ومالك يروى عن كل هؤلاء ، ويقول قريباً من ذلك عن محمد « رأيت
محمد بن أبي بكر بن . . عمرو بن حزم وكان قاضياً ، وكان أخوه عبد الله كثير
الحديث رجل صدق . فسمعت عبد الله إذا قضى محمد بالقضية . قد جاء فيها
الحديث مخالفاً للقضاء . يعاتبه يقول له : ألم يأت في هذا كذا وكذا : فيقول
بلى ، فيقول : فما بالك لا تقضى به . فيقول : فأين الناس ؟ يعني ما أجمع عليه
الصالحاء بالمدينة . العمل به أقوى » .

وفي هذا العمل يقول ربيعة أستاذ مالك : ألف عن ألف خير من واحد عن
واحد .

فإذا ارتقينا في الأثبات فهذا عمر بن عبد العزيز يجمع فقهاء المدينة يسألهم
عن السنن والأقضية التي يعمل بها فيثبتها وما لا يعمل به الناس بطرحه .
وقديماً كان يقال لأبي الدرداء . قاضي عمر بن الخطاب : باغنا كذا وكذا
بخلاف ما تقول ؛ فيقول : « وأنا قد سمعته . ولكن أدركت العمل على غير ذلك » ،
وعلى هذا سار مالك نفسه . فكان يقول عن أستاذه ابن شهاب : « سمعت من
ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط . قيل لم ؟ . قال ليس عليها
العمل » .

فهى إذن مدرسة المدينة الأصيلة الدائمة — ترى المكانة العليا للعمل طوال
القرن الأول إلى عهد مالك بن أنس .

ومالك فيما يتعامل فيه المحدثون بالمدينة . صيرفي فطن . يميز الصحاح من
الزيوف ، بالتجربة وفي محل الواقعة . بعيار ما لمست أيدي الناس وبصرت به
أعينهم . قال إسحق بن سليمان : « قلت لمالك : يا أبا عبد الله كم قدر صاع

النبي صلى الله عليه وسلم . قال خمسة أرطال وثلاث بالعراقي . أنا حزرته . قلت : يا أبا عبد الله خالفت شيخ القوم قال من هو : قالت أبو حنيفة يقول ثمانية أرطال . فغضب غضباً شديداً ثم قال بلحساننا . يا فلان هات صاع جددك . يا فلان هات صاع عمك ، يا فلان هات صاع جدتك . فاجتمعت أصع فقال : ما تحفظون في هذا ؟ فقال هذا : حدثني أبي عن أبيه أنه كان يؤدي بهذا الصاع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقال هذا حدثني أبي عن أخيه أنه كان يؤدي بهذا الصاع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : حدثني أبي عن أمه أنها كانت تؤدي بهذا الصاع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال مالك أنا حزرت هذه فوجدتها خمسة أرطال وثلاثا .

وعلى أساس عمل أهل المدينة . يقول مالك في الموطأ : الأمر المجتمع عليه عندنا أن شهادة الصبيان تجوز فيما بينهم من الجراح ولا تجوز على غيرهم . إذا كان ذلك قبل أن يتفرقوا . وبهذا كان يفتي على ، ومعاوية وعبد الله بن الزبير وعروة وابن المسيب وعمر بن عبد العزيز . وقوله تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) لا ينفي قبول شهادة الصبيان . والمفسرون متفقون على أن الآية جاءت في المدينة ويختلفون في لفظ رجالكم . هل هم البالغون الذكور . أم الأحرار . ومالك ومن معه — يذهبون إلى أنهم الأحرار المسامون . يؤيدهم في ذلك عمل أهل المدينة .

* * *

يحتفل مالك بالعمل المستمر . والعمل المجتمع عليه من أهل المدينة إذا وافقه علماءهم كل احتفال ؛ فيترك ما سوى ذلك وإن جاء فيه حديث آحادى أو كان فيه قياس . فلقد كان العمل المستمر في التابعين مأخوذاً من العمل المستمر في الصحابة . وقد استمر فيهم إذ هو مستمر في عمل الرسول صلى الله عليه وسلم أو في قوة المستمر . سأله أبو يوسف يوماً عن الأذان . فعجب مالك لقاضى القضية الذى يسأل عن الأذان ! وقال وما حاجتك إلى ذلك . وكيف الأذان عندكم ؟ . فذكر مذهبهم فيه فقال مالك : من أين لكم هذا ؟ . فذكر له

أن بلالا^(١) لما قدم الشام سألوه أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر . فقال له مالك :
ما أدرى ما أذان يوم وما صلاة يوم ! . هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
وولده من بعده — يؤذنون في حياته وعند قبره . وبخضرة الخلفاء الراشدين بعده ،
يشير بذلك مالك إلى أن ما جرى عليه العمل وثبت أثر وأثبت في الاتباع وأولى
أن يرجع إليه .

وهو لا يلتفت إلى النقل الذي يخالفه العمل المستمر . إذا كان النقل قليلاً
ولا إلى العمل المخالف إذا كان نادراً . . . وإذا لم يكن العمل جماعياً من أهل
المدينة . وإنما هو عمل كثرة . فإنه يفضل على حديث الآحاد . لأن عمل
الكثيرين يعدل قول الكثيرين وما يخالفه من حديث رجل واحد يترجح أنه منسوخ .
سئل مالك عن الرجل يأتي إليه الأمر يحبه فيسجد لله شكراً . فقال :
لا يفعل . ليس مما مضى من أمر الناس . . . فقليل له إن أبا بكر سجد يوم البجامة
شكراً . . . قال : ما سمعت ذلك . وأرى أن كذبوا على أبي بكر . وهذا من
الضلال أن يسمع المرء الشيء فيقول : هذا شيء لم نسمع له خلافاً . ثم قال
قد فتح الله على رسول الله وعلى المسلمين بعده — أفسمعت أن أحداً منهم سجد ؟
إذا جاءك مثل هذا مما كان في الناس وجرى على أيديهم لا يسمع عنهم فيه شيء
فعليك بذلك . فإنه لو كان فيه لذكر من أمر الناس الذي كان فيهم . فهل
سمعت أن أحداً منهم سجد ؟ فهذا إجماع . إذا جاءك الأمر لا تعرفه فدعه .
ولما أخذ مالك بما عليه الناس وطرح ما سواه . انضبط الناس والمنسوخ .
بشهادة العمل المستمر . فاقصد يكون العمل النادر فلتة أو تخصباً بصاحبه أو رأياً
لم يتابع عليه لخطئه أو لنسخه أو لعدوله عنه ، نخذ مثلاً أن عائشة سئلت عن
امرأة ماتت وعليها صوم فقالت أطعموها عنها وما روه من أن ابن عباس قال

(١) بلال الحبشي هو الصحابي الكبير من السابقين إلى الإسلام وإلى عذاب المشركين الذي
أذن أول أذان من فوق الكعبة يوم فتح مكة . وظل يؤذن في حياته عليه السلام ولما مات الرسول انقطع
بلال عن الأذان . وكان الصحابة يحنون إلى أذانه وهو يرفض . إلا عند ما وسطوا إليه عمر . إذ زار
دمشق بعد أعوام من انقطاع بلال عن الأذان .

لا يصوم أحد عن أحد . وفي هذا قال مالك : ولم أسمع أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من التابعين بالمدينة أمروا أحداً أن يصوم عن أحد ولا يصلي أحد عن أحد . وإنما يفعل ذلك كل أحد عن نفسه . ومالك يرد خبر الواحد إذا لم يعضده أصل قطعي أو إذا عارض الخبر الأصول القطعية وشرط العمل به ألا يتعارض مع الأصول القاطعة .

* * *

ولا يمكن أن يعمل أهل المدينة بحديث مناف لأصل قرآني لأنه أصل الشريعة . فإذا تنافى مع الحديث أهمل مالك اعتبار الحديث . كحديث « من مات وعاه صيام صام عنه وليه » يتنافى مع قوله تعالى : (ألا تزر وازرة وزر أخرى... وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وكذلك حديث المرأة التي قالت للنبي : « إن فريضة الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة . أفأحج عنه ؟ قال نعم ، وفي رواية أفرايت لو كان على أبيك دين فقضيته أكان يجزئه ؟ قالت نعم . قال : فدين الله أحق أن يقضى » .

وأنكر مالك حديث إكفاء القدور التي طبخت من الإبل والغنم قبل القسم . تعويلاً على أصل رفع الحرج الذي يعبر عنه بالمصالح المرساة ؛ فأجاز أكل الطعام قبل القسم لمن احتاج إليه . والمصلحة المرساة عنده من الأصول لا من الفروع . ونهى عن صيام ستة أيام من شوال مع وجود الحديث تعويلاً على أصل سد الذرائع . وفي صدد حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب فيه سبعاً . يقول : مالك : « جاء الحديث ولا أدري ما حقيقته » بل كان يضعف الحديث ويقول « يؤكل صيده فكيف يكره لعابه ! »

ولقد ردت عائشة حديث « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » بقوله تعالى (ألا تزر وازرة وزر أخرى) وهو يتضمن إحدى كليات الشريعة .

في رواية محمد بن الحسن في الموطأ : « أخبرنا مالك : حدثنا عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها أخبرته أنها سمعت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وذكر لها أن عبد الله بن عمر يقول : « إن الميت ليعذب

ببكاء الحى . فقالت عائشة يغفر الله لابن عمر أما إنه لم يكذب . ولكنه قد نسى أو أخطأ . إنما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة يبكى عليها ، فقال : إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها . قال محمد . ويقول عائشة نأخذ وهو قول أبي حنيفة .

وردت عائشة خبر ابن عمر في الشؤم وقالت - إنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن أقوال الجاهلية . وخبر ابن عمر يعارض أصلاً قطعياً هو أن الأمر لله كاه . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

وناقض مالك بقواعده عمر بن عبد العزيز . سئل عن سجود القرآن الذى فى المفصل : أتسجد أنت فيه : فقال لا . فتميل له إنما ذكرنا هذا لحديث عمر ابن عبد العزيز فقال : أحب الأحاديث إلى ما اجتمع الناس عليه . وهذا مما لم يجتمع الناس عليه . وإنما هو حديث من حديث الناس . وأعظم من ذلك القرآن يقول الله (فيه آيات محكمات هن أم الكتاب) فالقرآن أعظم خطراً . فيه الناسخ والمنسوخ . فكيف بالأحاديث . وهذا مما لم يجتمع عليه .

وكمثل العمل المستمر . والجمع عليه ، العمل القديم . سئل عن القراءة فى المسجد على وجه مخصوص أو بأثر صلاة من الصلوات أو إدارة الكلمات بين المصلين على صوت واحد . فقال : لم يكن بالأمر القديم وإنما هو شىء أحدث . ولن يأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان أولها والقرآن حسن ^(١) .

(١) وما يراه أهل المدينة عن طريق الاستدلال فيه خلاف بين المالكية أنفسهم ، فريق يراه حجة وفريق لا يراه حجة ويكتفى ببعض بأنه مرجع . أما ما يروونه عن طريق النقل ففيه مذاهب . فأما نقل الروايات فقد قال بعض المحدثين : روايتهم تقدم فى ذلك على غيرهم . إذا عارضتها . والبخارى يبتدئ فى كل من أبواب صحيحة بذكر أحاديث أهل المدينة . وجمهور المحدثين لا يرون للراوى المدنى فضلاً من حيث هو مدنى . وإنما الفضل بالعدالة والضبط .

وأما نقل المحسوسات وتعيين الأماكن كنقل الصاع وتعيين موضع المنبر والقبر والروضة الشريفة وما إلى ذلك ، فهم شهود عيان وكذلك نقل العمل المستمر فى المعاملات كالوقوف والزراعة . وفى العبادات كالأذان على المكان المرتفع أو الأذان للصبح قبل الفجر وما إلى ذلك والبعض يرى أن هذا هو ما يريد مالك فى الموطأ .

فاجتماع أهل المدينة إذا كان جارياً مجرى النعل. مقدم على خبر الأحاد، ومعنى ذلك أن الحديث لم يثبت لأن المدينة جمعت من الصحابة من يقع العلم بتجربهم فيما اجتمعوا على نقله .

وابن القيم يقول عن أهل المدينة : من المحال عادة أن يجمعوا على شيء نقلاً أو عملاً متصلاً من عندهم إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكون السنة الصحيحة الثابتة قد خالفته . وإن وقع ذلك فيما أجمعوا عليه من طريق الاجتهاد فإن المصمة لم تضمن لاجتهادهم . وكان ربيعة بن أبي عبد الرحمن . يفتي سليمان بن بلال المحتسب ينفذ، فتعمل الرعية بفتوى هذا وتنفذ هذا ، كما يطرد العمل في بلد أو إقليم ليس فيه إلا قول مالك ، على قول مالك وقتواه .

على أن لسائل أن يتساءل . إذا كان الاشتهار عند الحنفية يعطى الحديث الأحادي قوة . فكيف لا يعطيه نفس القوة عمل أهل المدينة المستمر ؟ وفيه قوة العمل . وقوة الجماعة . وقوة الاستمرار ؟ من أجل ذلك جاز تصور المدينة في اتباعها أشد ضبطاً للحقيقة من الاشتهار إذا قورن الاشتهار بالعمل الجماعي والاستمرار ، وكون ذلك في الموطن الأصلي الذي نشأت فيه السنة .

والحنفية يشترطون على راوى الحديث أن لا يعمل بخلافه . وربما جاز أن يقال « أن يعمل به لا بخلافه » وإلا احتمال النسخ . وكذلك عدم أخذهم بحديث الواحد فيما تم فيه البلوى أى ما يتكرر وقوعه للناس والعادة تقضى باستفاضة نقل ما تم به البلوى . فهذا دل هذا وذلك على أن للعمل القوة .

وإننا لنجد أبا الدرداء (٣٢) منذ الثلث الأول للقرن الأول يجعل القوة للعمل وهو قاضى عمر . ثم عمر بن عبد العزيز في المدينة في آخر القرن يجعل القوة للعمل في المدينة . ونجد مثله أبا بكر بن حزم قاضى عمر ثم ولده محمداً في الثلث الأول من القرن الثاني ، وفي إبان ازدهار حلقه مالك ، وهذا هو القضاء المستمر أى العمل المطبق بقوة الدولة في القرنين الأول والثاني ثم نجد مالكا يتابع النظر نفسه طوال القرن الثاني ، مما يدل على أن العمل في المدينة كان ناجحاً في اعتباره آلة الصبغ والقياس عند الفقهاء والقضاة والولاة .

هذا وثبوت التواتر في السنة العملية أكثر من ثبوته في السنة القولية دلالة على قوة الإثبات التي تنبع من العمل . وكون السنة المشهورة تفيد الظن القريب من اليقين ، لأن الكل يتناقلونها ، أساسه استمرار العمل بها .

ومن هنا يظهر أن شرط مالك في قبول الحديث أن يعمل به أهل المدينة مثل شرط الشافعى أن يكون الحديث الصحيح السند متصلاً، ومثل شروط الحنفية المتعددة ، كلها تنغيا اليقين في اتصال الحديث بالمصدر الأصلي .

ولا جدال أن الثابت بالعمل قوى من ناحية الواقع . ومالك فقيه عملي ، وفي يده ثروة أهل المدينة يتعامل فيها بحرص وباعتزاز ، فجعلها قوة بمجرد أنها مجتمعة عليها في المدينة .

واجتماع العلماء على الاعتراف بمكانة الموطأ شهادة مباشرة له وغير مباشرة لأهل المدينة . وشهادة الشافعى لأحاديث مالك تسجل لها مكانها الذي رفعها إليه المسلمون فهو يقول « ما في الأرض كتاب في الفقه والعلم أكثر صواباً من كتاب مالك » ويقول « لولا مالك وابن عيينة لذهب علم أهل الحجاز » ويقول : « إذا ذكر الحديث فمالك النجم » .

الفصل الثاني العلم عند أهل المدينة

« لن يأتى آخر هذه الأمة بأهدى »
« بما كان عليه أولها »
(مالك بن أنس)

جمع الصديق الناس بعد وفاة النبي فقال : إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعلومكم أشد اختلافاً . فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً . فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله . واستحلوا حلاله وحرّموا حرامه .

وقال قرظة بن كعب . « لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا مكرمة لنا . قال ومع ذلك . فإنكم تأتون أهل قرية لم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم . جردوا القرآن . . . وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم » .

فأما قدم قرظة قالوا حدثنا . قال نهانا عمر .

وروى عروة بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستشار أصحاب رسول الله فأشار عامتهم بذلك . فلبث شهراً يستخير الله في ذلك . شاكاً فيه . ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم . ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها . وتركوا كتاب الله . وإني لا ألبس كتاب الله بشيء .

وصنيع عمر درس في حلاقة مالك . قال معن بن عيسى : حدثنا مالك . . . أن عمر حبس ثلاثة : «ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري» فقال :

قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى الدراوردي عن ...
أبي هريرة : قلت له أكنت تحدث الناس في زمان عمر هكذا ؟ قال : لو كنت
أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقتي .

وكانوا بالعراق يهددون الرواة بالشكوى لعمر . كان حذيفة بالمدائن فكان
يذكر أشياء قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأناس من أصحابه في الغضب .
فينطلق ناس ممن سمع ذلك فيأتون سلمان فيذكرون قول حذيفة فيقول سلمان
« حذيفة أعلم بما يقول » فعاتب حذيفة سلمان على عدم تأييده روايته ، وتركها
على عهده . وتجادلا . قال سلمان « فوالله لتنهين أو لاكتبن إلى عمر » .
ومن بعد عمر كان معاوية يقول : عليكم من الحديث بما كان في عهد عمر
فإنه قد أخاف الناس في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتشددوا في قبول الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكان أبو بكر
يطلب الشهادة على السنة التي لا يعلمها . جاءتته جدة تطلب ميراثاً . فقال
المغيرة بن شعبة : سمعت رسول الله يعطيها السدس . وشهد محمد بن مسلمة
بذلك فأعطاه أبو بكر السدس . وطلب عمر البينة . من أبي موسى الأشعري .
على حديث « إذا سلم أحدكم ثلاث مرات فلم يجب فليرجع » فأقره الناس .
فقال لأبي موسى : إني لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وروى هشام عن ابن المغيرة أن عمر استشارهم في الجنين يسقط من المرأة
نتيجة عدوان عليها ، فقال المغيرة قضى فيه رسول الله بغرة « عبد أو أمة » فقال عمر إن
كنت صادقا فهات شاهداً يعلم ذلك . فشهد محمد بن مسامة أن النبي قضى به .
وكان على يستحلف الراوى .

أما عبد الله بن مسعود فكان يقضى العام بتمامه لا يحدث مع أنه عاش
نحو عشرين عاماً بعد وفاة الرسول . نصفها بعد وفاة عمر : وكان صاحب فتوى
ورأى لكنه إذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . تستقله الرعدة . ويقول
توقيراً لقول الرسول . هكذا . . أو نحو ذا أو قريباً من ذا .

وكلمة « الحديث » تختلف عن كلمة « السنة » مع محاولة المحدثين التوحيد بينهما .

فالسنة هي المادة الدينية أو القانونية أى القاعدة أو المبدأ الذى يتضمنه الحديث .
يقول ابن خنبل « فى هذا الحديث خمس سنن » .

سئل عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري والأوزاعي ومالك فقال .
« سفيان إمام فى الحديث وليس بإمام فى السنة . والأوزاعي إمام فى السنة وليس
بإمام فى الحديث . ومالك إمام فيهما جميعاً » .

* * *

يقول عليه السلام « المدينة حرام . من أحدث بها حدثاً فعليه لعنة الله
والملائكة والناس أجمعين » .

فإحداث حدث بدعة والبدعة ضلالة لا تنى إلى المدينة وهي دار السنة .
لأنها دار العاملين العاملين بأقوال الرسول وصحبه وأعمالهم . وهي نواة « الأمر الأول »
ومن ثم أمسى يقال عن « الأخذ بالأمر الأول » أخذاً بالسنة .

وحدث أن تكاثر الناس بالحديث مع حدوث الفرق ، وقيام النحل ، وتعاقب
الدول . وتعددت أسباب اختراع الأحاديث فتوقف الناس وشكوا . قال ابن
عباس فيما صار إليه الناس من شك وتوقف « إنا كنا إذا سمعنا رجلاً يقول :
قال رسول الله ابتدرته أبصارنا . وأصغينا إليه بآذاننا . فلما ركب الناس الصعوبة
والذل لم نأخذ من الناس إلماً نعرف . وإتى ابن عباس بكتاب قيل أن فيه
قضاء لعل فيحاه إلا قدر ذراع .

جاء فى مقدمة صحيح مسلم . « عن ابن سيرين : لم يكونوا يسألون عن الإسناد
فلما وقعت الفتنة قالوا — سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم
وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » .

ولم يقبل الخوارج والشيعة إلا أحاديث جماعتهم . وتناقلت الأجيال الشكوك
وبخاصة بعد دخول أشياع بنى أمية بشهواتهم فى تسخير العلم لصالح الدولة
الجديدة . فأمسى من الفقه أن يتحرى الفقيه الحديث وسنده . ثم جاء دور
أشياع بنى العباس .

ودخلنا عصر الكذابين : الذين يقولون على النبي ما لم يقله كالزنادقة وأشباههم ممن لا يرجون للدين وقاراً ، أو المحتسين (١) كجهلة المتعبدین ، أو الفاسقين من المخترعين ، أو المتعصبين كدعاة المبتدعة ، أو المرتزقة الذين يتوسلون إلى الدنيا بالاختلاق ابتغاء مرضاة أمير أو وزير ، أو غير هؤلاء .

وكان التحريف فنونا فنه ما يصنعه قوم بوضع متن الحديث وآخرون بوضع إسناد مشهور لمن ضعيف . أو قلب الأسانيد أو الزيادة فيها أو ادعاء سماع لم يقع أو ممن لم يسمعه . أو نسبة شيء من الحكمة أو كلام الصحابة إلى الرسول . كان المهدي يعجبه اللعب بالحمام . فدخل عليه غياث بن إبراهيم فروى حديثاً « لا سبق إلا في خف أو في حافر أو جناح » يقصد سبق الحمام ذي الجناح . فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم ؛ فلما قام ليخرج قال المهدي : أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله . ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو جناح » ولكنه أراد ليتقرب إلينا .

هكذا أثاب الخليفة الذي أنشأ ديوان الزنادقة لقتل الزنادقة بعشرة آلاف درهم على رواية حديث مزيف ، لا رضى منه عنه ولكن مثوبة على الزلنى إليه به . فالتحلل الدينى من غياث يلقي تهاوناً فى الدين عند خليفة من المتورعين ! لذلك ولغيره كان لا معدى عن تدوين الأحاديث وتحقيقها فى سندها ووضعها . والاهتمام بالرواية

قال أبو الزناد « عبد الله بن زكوان » : « أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون وما يؤخذ عنهم الحديث . يقال : ليس من أهله » .

* * *

والمعروف أن تدويناً تم لبعض الحديث فى عهد الرسول مثل كتابه إلى عمرو ابن حزم . وفى عهد أبى بكر مثل كتابه إلى أنس بن مالك فى الصدقات ، وكتاب أو كتب كانت عند سعد بن عبادة الأنصارى وعند أبى رافع مولى النبي . كذلك صحائف جمعت فى عهد الخلفاء الراشدين كصحيفة أسماء بنت عميس زوج أبى بكر وصحيفة سمرة بن جندب وصحيفة جابر بن عبد الله وصحيفة عبد الله

ابن عمرو المسماة بالصاذقة . وقد احتج بها الأئمة الأربعة : يقول عنها عبد الله :
هذه الصاذقة فيها ما سمعت عن رسول الله ليس بيني وبينه أحد . كذلك وجدت
صحيفة همام بن منبه فيها (١٣٨) حديثاً أملاها عليه أبو هريرة مما يدل على أنها
كتبت في نحو منتصف القرن الأول . وقد نقلها ابن حنبل بعد نحو قرن ونصف .
وكان كثير من التابعين يحدثون بين يدي الصحابة . أما الفقهاء السبعة في
النصف الثاني من القرن الأول فظلوا يجمعون ويحفظون — مثل عروة بن الزبير
كان سباقاً بما جمع لولا أنه أحرقه سنة ٦٣ يوم وقعة الحرة . فكان يقول إنه
يؤثر ما حرقه على أولاده . ووجدت صحف عند الحسن البصري وخالد بن معدان
الكلاعي وأبي قلابة . وفي أواخر القرن الأول كان الزهري من كبار الحفاظ
والجامعين للحديث . حتى لثراه ، بعد ، على مئات منه في المجالس الواحد .
وحتى لتنقل كتبه على اللواب بعد مقتل الوليد بن يزيد (١٢٦) .

ولعمر بن عبد العزيز اليد الطولى في هذه المضمار . والزهري يعلنها فيقول :
(أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل أرض
له عليها سلطان دفتراً) .

وبعث عمر إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قاضيه وواليه على المدينة
ليكتب إليه « بما ثبت عنده من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وحديث عمر . فإني خشيت دروس العلم وذهاب العلماء » . وابن وهب يقول إنه
« لم يكن بالمدينة أحد عنده علم من القضاء ما كان عند أبي بكر بن حزم
إذ ولاه عمر بن عبد العزيز وكافه أن يكتب إليه العلم من عند عمرة بنت عبد الرحمن
والقاسم بن محمد . فكتبه له . ولم يكن على المدينة أنصارى غير أبي بكر » .
وأبو بكر بن حزم مرجع للفقهاء . لليث بن سعد ومالك : كتب الليث
لمالك كتابه ، وقد أسلفنا بعضه ، فاحتج على مالك بعمل ابن حزم قال :
(. . . وقد استسقى عمر بن عبد العزيز . . . وأبو بكر بن حزم ، فكلهم
يقدم الخطبة) .

ولقد حاول عبد العزيز بن مروان بمصر أن يجمع الحديث في إبان ولايته التي

دامت عشرين عاماً حتى سنة ٨٦ . فكتب إلى كثير بن مرة الحضرمي الذي أدرك سبعين من أهل بدر أن يكتب له بما سمع من أصحاب الرسول . فعمّر ابن عبد العزيز كان يتابع عمل أبيه . حذر طغيان الفيضان الجارف من التحريف لأغراض شتى عند الفرق وأصحاب البدع .

وكان للعلاء بن عبد الرحمن (١٣٩) صحيفة يحدث بها فيها كما روى ابن قتيبة ومالك . وربما أراد الرجل أن يكتب بعضها فيقول . إما أن تأخذها جميعاً أو تدعها جميعاً . وكانت أمالي الزهري ومروياته قنية المحفظة والنقاة .

وفي عصر واحد حوالي الأربعينات من القرن الثاني وجدنا ابن جريح (١٥٠) بمكة فيمن يجمعون وتبدى مالك بن أنس وقد استوى إماماً في المدينة يعلم الناس ويجمع العلم ، ومثله فيها محمد بن أبي ذئب ثم وجدنا حماد بن سامة (١٦٥) وسعيد بن أبي عروبة بالبصرة (١٥٧) ومعمّر بن راشد باليمن (١٥٣) والأوزاعي بالشام ثم وجدنا ابن المبارك بخراسان (١٨١) وجريّر عبد الحميد بالري (١٨٨) ثم عبد الله بن وهب بمصر كلهم يشتهون الحديث وفتاوى الصحابة والتابعين ^(١) .

وروى أن عبد الرحمن بن أبي الزناد جمع فتاوى الفقهاء السبعة في كتاب سماه « رأى الفقهاء السبعة في المدينة وما اختلفوا فيه » وروى أن مالكا تكلم في عبد الرحمن بن أبي الزناد لرواية الكتاب المذكور عن أبيه . وقال مالك فيه أين كنا من هذا ؟ . وأبو الزناد (١٣١) ممن روى عنهم مالك في الموطأ . وابن النديم ينسب الجمع لعبد الرحمن والحافظ الذهبي ينسب الجمع لأبيه ، وعلى الحالتين هما كلاهما مانا في حياة مالك ^(٢) .

(١) « المجموع » لزيد بن علّ زين العابدين يحتوي على فقه الشيعة ، فإذا ثبتت نسبته لزيد فقد يكون أسبق المجاميع الفقهية تدويناً بما في ذلك مدونات الإمام أبي حنيفة نفسه أو مدرسته فلقد مات شهيداً سنة ١٢٢ .

(٢) كان القرن الثاني عصر العلم العظيم الذي أنتج الأئمة الأربعة ، وقد ابتدأ بعلماء و أبواب كثيرة . مثل أبان بن عثمان (١٠٥) فكان فقيهاً وعالمًا بالسير والسنن . وتلميذه عبد الرحمن بن المغيرة . (١٢٥) وشراحيل بن سعد (١٢٣) يقول فيه ابن عيينة : « إن أحداً لم يعرف المغازي ، وغزوة أحد ، معرفته » وعاصم بن قتادة (١٣٩) أجلسه عمر بن عبد العزيز ليحدث الناس في السيرة =

ولقد كان ثمة من الفقهاء عبد الله بن أبي بكر بن حزم (١٣٥) وأبو بكر (١٢٠) قاضي المدينة ووالها لعمر بن عبد العزيز وسليمان . أما زوجة عبد الله ذاته فاطمة بنت عمارة فمحدثه يحدث هو عنها . وتلقى الحديث عنها محمد ابن إسحق صاحب المغازي .

وكان بالمدينة كذلك محمد بن أبي بكر بن حزم (١٣٢) أخى عبد الله - قاضياً عليها وسيتولى ابنه عبد الملك قضاء بغداد للرشد .

الموطأ :

في إبان هذه النهضة لجمع الحديث قيل إن مالكا كان يروى مائة ألف حديث . أودع الموطأ منها في أول أمره عشرة آلاف ، وقيل تسعة آلاف ، أو أربعة آلاف أو أكثر . ثم ظل يخلصها عاماً فعاماً من الشوائب . حتى مات وهي ألف ونيّف بقيت في « الموطأ » . وسماه كذلك بمعنى المنقح أو الممهد أو المحرر . وقيل سمي كذلك لأنه وطأه للناس أو لأن سبعين من فقهاء المدينة واطؤوه عليه . نهج فيه منهج البدء بالآثار ثم التعقيب بالفقه عند الحاجة روى فيه عن خمسة وتسعين رجلاً مثل ابن شهاب - الزهري - روى عنه ١٠٠ حديث ومثل نافع روى عنه ٨٦ حديثاً وآخرين .

وقد أحصى البعض ما في الموطأ فوجدوا فيه من المسند خمسمائة حديث ونيّفاً ومن المرسل ثلثمائة ونيّفاً ووجدوا مالكا ترك العمل بسبعين . وتختلف الإحصاءات ، بحسب اختلاف النظر .

أما الذين روه عنه ففحول تلاميذه مثل ابن القاسم ويحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن الحسن . وقيل إن الروايات للموطأ نيفت على الستين .

= وموسى بن عقبة (١٤١) ومحمد بن السائب الكلبي (١٣٦) ومحمد بن إسحق (١٥٢) ومعمربن راشد (١٥٢) ثم الواقدي (٢٠٧) كل أولئك كانوا متخصصين في المغازي وكان مالك يؤثر مغازي ابن عقبة على مغازي بن إسحق ويقول « عليكم بمغازي ابن عقبة فهي أصح المغازي » وأما الشافعي فيقول « من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحق » .

وعد البعض للموطأ ثلاثين نسخة وعد آخرون عشرين. ومن النسخ ما ينفرد بأحاديث ليست في الأخرى.. ولعل السبب أن مالكا كان ينقصها عاماً فعاماً ولا يبقى على ما فيه شك كلما راجع. والمشهور منها الآن روايتان الأولى ليحيى ابن يحيى الليثي والثانية لمحمد بن الحسن.

وليس في الموطأ حديث غير حسن. قال الشافعي: «ما في الأرض ككتاب في الفقه والعلم أكثر صواباً من كتاب مالكا».

ومن أجل ذلك أصبح هو الكتاب الأول في السنن.. وتتابع عليه أصحاب السنن والصحاح. وتعدنا من الثقلات الشائعة قول القائل: الموطأ هو الأصل الأول والبخاري هو الأصل الثاني. وعليهما بنى الجميع كسالم والترمذي وأضرهما. يقول أبو داود: أصبح حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما ثم مالك عن نافع عن سالم عن أبيه. ثم مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة وأعلى درجة في الاستناد عند البخاري. هي: مالك عن نافع عن ابن عمر.

كثرت في الموطأ روايات الزهري. على ما سلف. من بيان. أما روايات عبد الله بن أبي بكر فتتري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم^(١) أو عن عبد الله هذا عن عمته وعن جدته. أو عمته عن جدته. أو يحيى بن سعيد عن أبي بكر بن حزم. أو عن ربيعة الرأي عن أبي بكر ابن حزم. أو روايات عن أبيه محمد بن عمرو بن حزم أو عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة. أو عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عمرة عن عائشة. أو يحيى بن سعيد الأنصاري عن عمرة عن عائشة... إلخ ما ورد في الموطأ عن طريق بيت ابن حزم.

(١) عمرو بن حزم رسول النبي عليه السلام إلى فجران وإليه كتب الرسول كتاب الدييات وقد رواه مالك في الموطأ: عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه. وعبد الله أعلى سناً من مالك.

وروى الزهري وربيعه أستاذ مالك عن أبي بكر بن حزم . وهو كما قال محمد بن سعد : أمه كبشة وخالته عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية الراوية عن عائشة . وسفيان بن عيينة يقول : أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة القاسم وعروة : وعمرة .

هكذا ترتبط دار ابن حزم بعائشة . غيرتبط بها . عن طريقها ، مالك . وأبو بكر بن حزم بأبيه وجده وجدته وعمته وخالته وابن خالته — أبي الرجال —^(١) وبأبيه ، وزوج ابنة عبد الله ، مدرسة كاملة . كانت قادرة في زمان عمر ابن عبد العزيز . وفيما بعد زمانه . على الاستمرار فيما عهد به إليها .

كانت دارهم معلماً من معالم المدينة ، فهي لصق لدار عثمان ومنها تفقد الثوار إليه . ومن أمامها حمل مروان بن الحكم وإلى المدينة سرير أم المؤمنين حفصة إذ ماتت حتى دار المغيرة بن شعبة . وفي البيت الحفدة . والأبناء والآباء والأجداد . وفيه الرجال والنساء في نسق واحد فقهاء . وفيه من الصحابة ومن التابعين . منهم عمرة التي ربيت في حجر عائشة كما يروي القاسم لابن شهاب . وعندما يؤول علمهم إلى مالك عن طريق عبد الله ومحمد ابني أبي بكر بن حزم أو عن طريق مدوناتهم فثمة علم المدينة دقة وجله . وإذا لوحظ أن القاسم ربيب عائشة وابن أخيها وأن بالموطأ كثيراً من أحاديثه وأحاديث عروة بن الزبير وهو ابن أختها وراويها ، فقد يخاص أن دعوة عمر بن عبد العزيز للزهري أو لأبي بكر بن حزم بل جمع السنن بالمدينة من لدن عمرة والقاسم ، والرواة عن الصحابة ، قد لقيت استجابة عنده فأحدث التدوين المرجو . وسواء أسامه أبو بكر أم لم يسلمه لعمر أو سامه ولكن لم تتسامه الأمة بعده ، فإن مدوناته قد آلت إلى ولديه كما آل علمه وجمعه إلى علماء المدينة وبخاصة مالك .

وهكذا يدخل مالك بن أنس التاريخ بموطئه كما دخله بحلقته ، في المدينة ،

(١) أبو الرجال : محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حارثة بن النعمان ، وكانت لحارثة منازل قرب منازل الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان كلما أحدث رسول الله أهلاً تحول له حارثة عن منزل . قال عليه الصلاة والسلام : لقد استحييت من حارثة مما يتحول لنا عن منازل .

يتفياً أفياء الصديق أبي بكر وعائشة وبنى المنكدر وآلهم . وآلاء عمر وآل عمر . وابن عوف وعلى وآخرين من الصحابة . والرواة عنهم . من مواليتهم أو من أنفسهم ، لكن أثر عمر بن عبد العزيز في موطأ مالك من أظهر الأثر . فهو الذي أمر بالجمع أو بالتعليم في سائر الأمصار . وهو الذي هيا له الزهري ووالى المدينة وعالمها أبا بكر بن حزم .

ولقد بدأ عمر جمع العلم لنفسه منذ كان يتعلم في المدينة ليصير من فقهاء المعدودين . تعهد العلم والعلماء وهو أمير عليها . ثم استأنف الجمع من أجل الأمة وهو أمير للمؤمنين (٩٩ - ١٠١) واستطرد يعلم الأمة فبعث إلى الأمصار من يعلمونهم السنن كما بعث نافعاً إلى مصر وكلف الزهري بالجمع . وعهد إلى أبي بكر بن حزم (١٢٠) بمتابعة ما أهمه لظروف أبي بكر المواتية بالمدينة .

ومات أبو بكر سنة ١٢٠ - ولحقه ابنه محمد سنة ١٣٢ ثم ابنه عبد الله في ١٣٥ ، وكان مالك بن أنس يرأس حلقة لنفسه منذ نحو عشرين عاماً . جاء في الموطأ « أخبرنا مالك ، أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سننه أو حديث عمر أو نحوه فاكتبه لي . فإني قد خفت دروس العلم وذهاب العلماء » .

وفي رواية محمد بن الحسن تعليق محمد « وبه نأخذ . لا نرى بكتابة العلم بأساً » وظاهر ذلك أن اتجاه عمر لم يكن لتدوين الأحاديث وحدها بل لتدوين السنة بمعناها العام ، وهذا يبدو من خوفه دروس العلم ومن نصه على حديث رسول الله وسننه وحديث عمر أو نحوه أي الفقه بمعناه الأعم ، وهذا هو ما فهمه محمد بن الحسن .

* * *

ومالك يعمل بالحديث إذا صح أو حسن ولا يشترط فيه التواتر أو الاشتهار . وطريقته للصحة والحسن عمل أهل المدينة إذا اتفق عملهم مع علم علمائهم .

ويقدم هذا الاتفاق الإجماعي على القياس وعلى الحديث « لأنه يراه عندئذ قد نسخ » فإذا لم يكن العمل إجماعياً ، بل كان عمل أكثرهم ، قدمه على خبر الواحد لأن العمل بمنزلة الرواية فعمل الأكثر بمنزلة رواية الأكثر . فإذا جاء خبر الواحد يخالفهم كان الراجح أنه منسوخ . ومن أجل هذا لم يحدث مالك بكثير من أحاديث أستاذه ابن شهاب . . إذ ليس عليها العمل .

ولا يقف مالك في التحري عن الحديث عند حدود فيعلن « لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين - ويشير إلى أساطين مسجد الرسول - فما أخذت عنهم شيئاً وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أميناً . إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » فهم النوع الرابع من قوله « لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سواهم : لا يؤخذ من سفيه ولا من صاحب هوى يدعو إلى بدعة ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس ، وإن كان لا يهتم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به » .

أما عن الأحاديث يقدم فيها ويؤخر والمعنى واحد فهو يقول : « أما ما كان من لفظ النبي فلا ينبغى للمرء أن يقول إلا كما جاء ، وأما لفظ غيره فإذا كان المعنى واحداً فلا بأس به . قيل له فحديث رسول الله يزداد فيه الواو والألف والمعنى واحد فقال : أرجو أن يكون خفيفاً » .

والإجماع على المنقول عن النبي حجة في المذهب . مثل نقل الأذان والإقامة .

وقد نقل مالك إجماع أهل المدينة في نيف وأربعين مسألة في الموطأ . والنبي يقول : « خير القرون قرني^(١) ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . ثم يفشو الكذب » . فهذان جيل النبي والصحابة وجيل التابعين يتقدم أولهما على ثانيهما في الخير . لكن الجيل الثالث يفشو بعده الكذب . فحق على مالك أن يكون

(١) القرن مدة طبقة من أهل العلم . فدة الصحابة قرن . ثم مدة التابعين قرن . ثم الذين يتبعونهم قرن .

أشد الرجال انتقاء للرجال كما وصفه سفيان بن عيينة .

اهتم مالك كل الاهتمام بدراسة الرجال والمتون في الوقت ذاته . فانداحت بعمله موجة التعديل والجرح للرواة أى كونهم عدولاً أو مجرحين لتنتهى إلى إقامة علوم الحديث . وقيام أصحاب المسانيد والصحاح بجمع مسانيدهم وصحاحهم . وعظيم احتياط المسلمين لدينهم لأن هذا العلم دين كما يقول مالك . لنجد في إبان هذه الحقبة على بن المدينى يُسأل عن أبيه بين الرواة فيقول « سلوا عنه غيرى » فأعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه وقال « هذا الدين : إنه ضعيف » ونجد يحيى بن معين (٢٣٣) المحدث الكبير يقول « إنا لنطعن على أقوام قد حطوا رحالهم في الجنة منذ نحو من مائتى عام » .

يقول المستشرق الألمانى « شيرنجر » : « لم يكن فيما مضى أمة من الأمم السابقة كما لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذى يتناول أسماء خمسمائة ألف رجل وشئونهم » .

الموطأ — منهجه :

والموطأ كتاب فقه يتميز بين جميع كتب الفقه بأنه يشتمل على السنة القولية والفعلية أساساً ، وعلى اتباع هذه السنة اتباعاً متواتراً جيلاً بعد جيل . والسنة تتبدى في أحاديث يرويها عن النبىؐ وفي أخبار وآثار عنه — وعن الصحابة والتابعين إذ عملوا بها . والأحاديث جميعها مرددة في الصحاح ، وجوامع السنة أو الكتب الستة بنصها أو بمثله أو بمعناه . ويستوى في ذلك الأحاديث المسندة أو المرسلة^(١) التى ينقطع فيها راو أو أكثر أو البلاغات التى

(١) الحديث المرسل هو الذى يسقط من روايته المسحابة والمنقطع هو الذى يسقط منه راو أو أكثر والبلاغات هى التى يقال فيها : بلغنى أو عن الثقة . والمعلقات هى التى لا يذكر فيها السند من أوله كأن يقول القائل في القرن الثالث الذى لم ير ابن عمر عن ابن عمر . والموقوفات هى التى تخص الصحابة وينتهى فيها القول إلى الصحابة فلا يذكر فيها فعل أو قول للنبي . والمقطوعات هى التى ينتهى فيها القول إلى من دون الصحابة كالتابعى

يقول فيها بلغنى . وقد راجع العلماء مراسلات الموطأ فوجدوها موصولة أو تقويها أحاديث موصولة . كما وجدوا البلاغات صحيحة . وهذا ما يعنيه الأئمة بقولهم « بلاغات مالك صحيحة » . وقولهم : « مراسيل مالك أصبح من مراسيل ابن المسيب » ، والشافعى الذى لا يأخذ بالمرسل يستثنى مراسلات سعيد بن المسيب لأنها امتحنت فوجدت صحيحة . ويقول سفيان فى بلاغات مالك : « إذا قال مالك بلغنى فهو إسناد قوى » .

ولما قال ابن عبد البر إن أربعة أحاديث لا توجد فى غير الموطأ قال إن الأربعة ليس فيها منكر واحد أو واحد يدفعه أصل . وهو بهذا يتلاقى مع ابن الصلاح الذى وصلها . وشرح ابن عبد البر للموطأ ، ويسمى التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ، هو الذى يقول فيه ابن حزم الأندلسى : « لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه » .

ذكروا أن مالكا لم يكن يضع فى الموطأ إلا المجمع عليه . ولما عرضه عليه تلاميذه فى أربعين يوماً قال : « كتاب ألفته فى أربعين سنة أخذتموه فى أربعين يوماً ! قل ما تتفقهون فيه » .

وهذه الصيغة مسلمة للموطأ مع أن ثلث أحاديثه مرسل أو منقطع^(١) . والموطأ مدونة للسنن قاصرة على الفقه . وهو بمقارنته بكتب الحديث كتاب سنة أكثر منه كتاب حديث . ومع ذلك فمن فقهاء المغرب من يضعون الموطأ بجوار كتب السنة الصحاح وهى مقتصرة على الحديث .

* * *

(١) كان الزهرى كثير الإرسال . وقد ظهرت عادته فى موطأ مالك تلميذه .

قال الحسن : متى قلت لكم حدثنى فلان فهو حديثه . ومتى قلت قال رسول الله فمن سبى .

وكان الشافعى يأخذ بمرسل سعيد بن المسيب . ولا يأخذ بمرسلات الزهرى مع إجلاله له . وسعيد بالمدينة يعدل فى الكوفة إبراهيم النخعى أستاذ مدرسة بى حنيفة . وكان يكثر إرسال الحديث ويقول : « إذا حدثتكم عن رجل فهو الذى سمعت . وإذا قلتم قال عبد الله فهو عن غير واحد عن عبد الله » فهو بهذا يبين أن إرساله لا يكون إلا عن متواتر أو مشهور لأنه لم يلق عبد الله بن مسعود .

أعد مالك للأمر عدته مذ رأى لعبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة
الماجشون موطأ بغير حديث فقال ما أحسن علمه ولو كنت أنا لبدأت بالآثار
ثم سددت ذلك بالكلام .
فوضع موطأه كما تمنى وكما آل إلينا ^(١) .

(١) ظل مالك ينقص أحاديث الموطأ ، حتى انتهى إلى الصورة الأخيرة ، وبهذا القدر المتيقن
أقره علماء المدينة وتابعهم عليه المسلمون كافة . فصار مصدراً جامعاً يتميز بجمدة الطريقة وشمول التبويب
للمعروف من أبواب الفقه . وهو أول كتاب فقهي متكامل آل إلى أهل السنة وهو أول مجموع سنن في
مستواه آل إلى المسلمين .

ولئن كان أبو حنيفة قد بدأ تدوين الفقه وتبويبه في حلقة في العشرينات من القرن ذاته إن ما آل
إلينا من كتبه ليس إلا كتابات في العقيدة . وهي الفقه الأكبر والأوسط ورسالة في الإرجاء منه إلى
عثمان البتي . أما كتابات حلقة فطلانها كتابات قليلة نسبياً لأبي يوسف وتآليف محمد بن الحسن الضافية
وكلها كتبت بعد الموطأ بزمان ومن بعد ذلك كله كتب الشافعي كتبه التي جمعتها كتب الأم أو المبسوط
التي رواها تلامذته .

ويقع الموطأ في نحو ألف صفحة كبيرة . تسع كتب الفقه من عبادات - ومعاملات ومن شئون الجهاد
وما إليها . وينحون نحو الكتب المصرية في الشرح للمتون . حيث الحديث أو الخبر هو المتن . أما
الشرح فهو رأى مالك أو رأى الصحابي أو التابعي ، وعمل أهل المدينة . وهو مقسم إلى ثلاثة وستين كتاباً
وفي كل كتاب أبواب . أو عشرات أبواب .

خذ مثلاً كتاب الحج يقع وحده في ثلاثة وثمانين باباً . وكتاب البيوع في ستة وأربعين وكتاب
الأقضية في واحد وأربعين - وكتاب الطلاق في خمسة وثلاثين . فيها فروع بالعشرات .
ومالك يعمل ويفسر ويبدى اختياره أو يعرض ما عليه السنة أو عمل الصحابة أو عمل أهل المدينة .
يقول أحياناً « وهذا الأمر هو الذي أدركت عليه الناس وأهل العلم يلدنا » أو يقول « الأمر عندنا » أو
يقول بعد استعراض الآراء . « وقول فلان أحب ما سمعت إل في ذلك » أو يقول « السنة التي لا اختلاف
فيها عندنا » أو « قصت السنة عندنا » أو « ليس العمل على كذا » .

وبهذا ظهر في الكتاب كثير من عرف المدينة في البياعات وسائر المعاملات .

وهو أحياناً يروي آراء الجماعة من الصحابة في المسألة الواحدة مثل عمر وعثمان وعلى والزبير معاً .
وأحياناً يسأل ويحجب أو يحسن الرأي فيقول : هذا حسن وليس بواجب أو ينضم لرأى غيره .
وكثيراً ما يقول : أرى أو يقول أرى والله أعلم . وكثيراً ما يروي آراء مالك من إنشائه أو تفسيره أو
بيانها لما يكره . وأحياناً لا يذكر مالك في الباب بتمامه حديثاً واحداً بل يذكر فتاوى لأئمة معتبرين في
مسألة موحدة أو مفروضة ليستنتج منها أو يثبت عملاً لأهل المدينة فيها أو أمراً مجتمعا عليه منهم . =

وفي الموطأ روايات عن علي وابن عباس ، أو عن أحفاد علي ، وروايات عن جعفر الصادق . فلا وجه لما روى من أن الرشيد أو أبا جعفر سأل مالكا عن عدم إيراد أحاديث عن علي وابن عباس وأنه أجاب بقوله إنهما لم يكونا ببلدى . فإن كانت الأحاديث المشار إليها أدرجت بعد السؤال . فمالك كان لا يفتأ يراجع كتابه عاماً فعاماً ينقص منه وربما زاد .

وهكذا نجد الموطأ كتاب فقه في الدرجة الأولى وإن كان كتاب سنة من الدرجة الأولى ، ونجده أسبق الكتب الفقهية التي آلت إلينا من أئمة السنة . ويظهرنا الموطأ على أن اتباع مالك للذين سبقوه لا ينفي استقلاله ولهذا الاستقلال نسبوا إلى الليث بن سعد أنه قال : «أحصيت على مالك سبعين مسألة قالها برأيه وكلها مخالفة لسنة رسول الله» بل إن مالكا وقد ذكر له الموطأ قال : فيه حديث رسول الله وقول الصحابة والتابعين وقد تكلمت برأى على الاجتهاد وعلى ما أدركت عليه أهل العلم ببلدنا ولم أخرج من جملتهم إلى غيره .

قال يحيى بن معين شيخ المحدثين . إن مالكا لم يكن صاحب حديث وكان صاحب رأى بل قال ابن رشد فيما بعد «مالك أمير المؤمنين في الرأى والقياس» أما عن موافقة رأيه للسنة فقد أعلنها الإمام أحمد بن حنبل ، يوم سئل

وتماز النسخة التي يرويها محمد بن الحسن بمجموعة من الخصائص منها أن محمدا يروي روايات أخرى غير روايات مالك وخصوصاً روايات العراقيين . وكثيراً ما يعلق برأيه . وبرأى أبي حنيفة . وبرأى العامة من الفقهاء حتى ليعلم البعض أن هذا الموطأ جدير بتسميته موطأ محمد لا موطأ مالك . ولو ذكرنا أن الموطأ مجموعة فقهية غير قاصرة على الحديث لزال التناقض . فمحمد يعلق على مجموعة فقهية هي الموطأ . وإن كثر ما يرويه عن غير مالك أو كثرت اجتهادات محمد وتعليقاته بأراء فقهاء العراق والحجاز مثل أقواله : وبه نأخذ . أو عليه الفتوى . أو وهو قول أبي حنيفة أو وهو الصحيح ؛ أو يذكر : وفي هذا آثار كثيرة أو يقول وهو قول أبي حنيفة والعامة أى جماعة الفقهاء - أو : وهذا الحديث أرفق بالناس أو قد جاء ما هو أرخص من هذا وهو . . . وأحياناً - يذكر خلافاً للأئمة ويناقش مالكا وأبا حنيفة .

ورواية محمد على هذا الوجه - مجموعة تسكر البصر من الفقه المقارن فيها سلاسل الكوفة والحجاز وآراء مدرسة أبي حنيفة والمحدثين في العراق والحجاز وهي دلالة صادقة على أن فقه السنة في مجموعه واحد . وإن تعددت أسانيده أو طرقه .

حديث من نأخذ ورأى من نأخذ ؟ فقال حديث مالك ورأى مالك .
يقول ابن حنبل : « فأتى مالك . فأخلف الله على سفيان بن عيينة » وسفيان
شيخ المحدثين بمكة . وشيخ الشافعي في الحديث . فمالك عند ابن حنبل محدث
لا يحل محله إلا شيخ المحدثين بمكة . وابن حنبل صاحب المسند الأعظم .
والمرورى عنهم في الموطأ كلهم من المدينة إلا ستة : اثنان من البصرة وواحد
من كل من مكة والجزيرة وخراسان والشام .

« : »

ويروى إسماعيل بن أويس عن مالك قوله : « أما أكثر ما في الكتاب فرأى
لعمرى ما هو برأى ولكنه سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل . والأئمة
المهتدى بهم الذين أخذت عنهم وهم الذين كانوا يتقون الله تعالى : فكثرت على
فقلت رأيت إذ كان رأى الصحابة الذين أدركوهم عليه وأدركتهم أنا على ذلك .
فهذا وراثته توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا . وما كان رأياً فهو رأى جماعة ممن
تقدم من الأئمة . وما كان فيه الأمر المجتمع عليه فهو ما اجتمع عليه من قول
أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه . وما قلت الأمر عندنا فهو ما عمل الناس به عندنا
وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم . وكذلك ما قلت فيه ببلدنا فهو شيء
استحسنه من قول العلماء .

وأما ما لم أسمع منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع
ذلك موقع الحق أو قريباً منه حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم .
فنسبت الرأى إلى بعد الاجتهاد مع السنة . وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى
بهم . والأمر المعمول به عندنا من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة
الراشدين »

الموطأ — مع الخلفاء :

اقرن وضع الموطأ بمناسبات في لقاءات الخلفاء تبدأ بزيارة أبي جعفر للمدينة

عندما لقبه أبو جعفر ، وتستمر عندما شاوره المهدي وتنتهى عندما زاره الرشيد^(١) .
 روى ابن سعد عن الواقدي أنه سمع مالكا يقول : لا حج أبو جعفر دعاني
 فدخلت عليه فحدثته وسألني فأجبتة فقال إني عزم أن أمر بكتابك الذي
 وضعته ، يعني الموطأ . فينسخ نسخاً ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين
 بنسخة وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدونه إلى غيره ، ويدعوا ما سوى ذلك من
 العلم المحدث . فإني رأيت أهل العلم رواة أهل المدينة وعالمهم . فقلت يا أمير
 المؤمنين لا تفعل هذا . فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا
 روايات . وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس
 وغيره . وإن ردهم عما اعتقدوه شديد . فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل
 كل بلد منهم لأنفسهم فقال : لعمرى لو طاوعتني على ذلك لأمرت .

كان أبو جعفر يعمل جاهداً ليقارب أصحاب السنن وكان في فرع من
 الشيعة . كما كان من كبار فقهاء جيله من بني هاشم . يقول عنه مالك : « ثم
 فاتحني فيمن مضى من الساف والعلماء فوجدته أعلم الناس بالناس . ثم فاتحني
 في العلم والفقه فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه . وأعرفهم بما اختلفوا فيه ،
 حافظاً لما روى ، واعياً لما سمع » .

وكان ابن المقفع (١٤٣) في بداية أيام أبي جعفر ، ونهاية أيام ابن المقفع -
 قد أشار في رسالة « الصمحية » إلى تناقض الأقضية في البلدان فقال : « . . لورأى
 أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب . ويرفع
 معها ما يحتاج به كل قوم من سنة أو قياس ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك ،
 وأمضى في كل قضية رأيته الذي يلهمه الله . ويعزم له عليه . وينهى عن القضاء
 بخلافه ، وكتب بذلك كتاباً جامعاً وعزماً . لرجوت أن يجعل الله هذه الأحكام
 المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً . ورجونا أن يكون اجتماع السير

(١) ولأبو جعفر الخلافة من سنة ١٣٦ إلى سنة ١٥٨ ووليها المهدي بعده حتى سنة ١٦٩
 فالهادي فالرشيد (١٧٠ - ١٩٣) وأمر أبو جعفر على المدينة إسماعيل بن عبد الله . وأخاه عبد الصمد
 وجعفر بن سليمان بن علي الذي أمر بضرب مالك بن أنس .

قربة لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك إلى آخر الدهر .

فابن المقفع أراد إمضاء رأى الخليفة . أى إصدار تشريع من وضع الخليفة ، شأن الملوك فى فارس وسواها . وكان فارسياً تعرب ، فأحسن أدب العرب . أما الذى أراد أبو جعفر فأمر آخر رفضه مالك — وإن أمر له فى آخر الأمر بألف دينار ولابنه بألف .

وفى رواية عن مالك أن المهدي طلب ذلك فقال له : « يا أمير المؤمنين أما هذا الصقع ”وأشار إلى المغرب“ فقد كفيتكه . وأما الشام ففيهم الرجل الذى علمته ”يعنى الأوزاعى“ وأما أهل العراق ففيهم أهل العراق » .

وفى رواية عبد الله بن عبد الحكم — أنه سمع مالكا يقول شاورنى هرون الرشيد فى ثلاث . فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة . ويحمل الناس على ما هم فيه . وفى أن ينقض منبر الرسول ويجعله من جوهر من ذهب وفضة . وفى أن يقوم نافع بن نعيم إماماً يصلى بالناس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ فى الكعبة فإن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم اختافوا فى الفروع فافترقوا فى البلدان وكل عند نفسه مصيب . وأما نقض المنبر فلا أرى أن تحرم الناس أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما تقديمك نافعاً يصلى بالناس فإن نافعاً إمام فى القراءة لا يؤمن أن تبدر منه فى المحراب بادرة فتحفظ عليه . فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله .

والروايات الشتى عن اللقاءات الأخرى مع هؤلاء الخلفاء تثبت بيقين لقاء مالك وأبي جعفر واستنساخه الموطأ ليزداع فى الأصقاع وطابى المهدي والرشيد . وبهذا يسوغ فى الذهن أن اللقاءات وسعت محاولات للاستفادة بعلم أهل المدينة من إمام المدينة الذى يمثل الاتباع الكامل للسنة ولنهج الصحابة والتابعين . وهى صيحة الحرب التى أوجعت الدولة الجديدة . ومالك ومنهاجه طريقها المثلى إلى القلوب . ورد مالك على الخلفاء الثلاثة يظهرنا على عمق نظره إلى اختلاف الفقهاء ودقة رأيه فى أن كتابه كتاب فقه قبل أن يكون كتاب سنن . ولأناس أن يختلفوا

في الفقه فلا يلزمون بفقه بعيد عنهم ، دون فقه أصاح الله به بالهم . وفي موقفه تقدير لمعارضة مخالفه له واحترام لاجتهادهم . وهو إلى ذلك يسير بأبي جعفر المنصور وبنيه من القسر والعسر إلى اليسر كدأب أهل المدينة . وإلى الاجتهاد وعدم التقليد كدأب أصحاب الرأي من الأئمة .

وفي رد مالك على الرشيد من عدم نقض منبر الرسول ، درء لمفسدة وسمو بالتعبير عن ملامة الرشيد على معنى وضع الجوهر في المنبر . واتباع أو استمساك بالآثر وبالأمر الأول .

وأبو جعفر خصم لفقه الشيعة . النابع من نظريتهم السياسية في أن الإمامة لعل وبنيه وهولا يرتاح إلى أبي حنيفة لمجانبة أبي حنيفة له ، وربما لاتهم أبي حنيفة بالتشيع وكان في أخريات أيامه يملأ الأفق . وتضؤل إلى جوار حلقته كل الحلق . وأبو جعفر يعرف مقداره فيحاول أن يفيد لدولته منه ، مثلما حاول أن يفيد لها من مالك فيدعو أبا حنيفة ليلي القضاء ببغداد . ويأبى الإمام أن يجلس لأبي جعفر مجلس القضاء .

وفقه العراق شركة بين الشعبين — اللذين يؤلفانه من عرب الأصول وغيرهم . وإمامه الأعظم النعمان بن ثابت « أبو حنيفة » أبوه ثابت وجده زوطى . ولقد قتل المنصور أبا مسلم الخراساني الذي أقام دولته ودمر الرشيد الدولة الفارسية التي تحكمه داخل دولته ! نغنى البرامكة ، وكلاهما كان بحاجة إلى الرجوع إلى أهل الحجاز وإلى فقه كله من دار الهجرة أو مكة أو الطائف . حيث كان جدهما عبد الله بن عباس قرين عبد الله بن عمر الإمام الآخر لفقهاء السنة . وكان المهدي يحارب الزنادقة في بغداد والكوفة . ممن أسلموا واستعربوا ، فما كان أحوج الخلفاء إلى سلاح السنة . يشهرونه في وجه أعداء الدين . ليربطوا الدولة بأصولها التاريخية بالحجاز .

الفصل الثالث العمل بالمصلحة

« ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه ؟ »
« من لم يقتط الناس من رحمة الله »
« ولم يرخص لهم في معاصي الله . »
« ولم يؤمنهم من مكر الله »
« على بن أبي طالب »

الإمام مالك فقيه عملي يتغيا فقهه تيسير السعي في الحياة ، دون تعقيد .
أو التزام قيود — إذا وجد نصاً قاس . وإلا لم يجهد نصاً . ولم يجهض علة .
واستدل بالمعنى المقطوع به من تضافر النصوص . فإذا عوملت بهذا الأصل
وقائع الحياة ، أخذ بما يلائم الأصل دون تكلف . ورد ما لا يناسبه دون حرج .
وهو فقيه عصرى أبداً ، لا تصرفه الصيغة عن المضمون . ولا الشكل عن
الموضوع . ولا العبارة الظاهرة عن المعنى الحقيقي . ويحتفل بأعراف الناس . متبعاً
في كل ذلك روح المدينة وروحها . ومجتهداً في آرائه ليجعل الحياة الواقعة
يسيرة على الناس . والتكاليف مقدوراً عليها .

والإسلام يسر وسماحة .

اقتصرت نصوص المشرع الإسلامي على ما يمكن أن نطلق عليه « أساسيات » .
منهجها تقليل التكاليف ورفع الحرج وهي جميعاً تصدر عن مقصود شامل للشارع
هو التيسير . لا يكلف نفساً إلا وسعها . يقول جل ثناؤه : (وما جعل عليكم في الدين
من حرج)^(١) . (يريد الله أن يخفف عنكم ويخلق الإنسان ضعيفاً) ، والنبي
عليه السلام يقول « بعثت بالحنيفية السمحة » .

ويشجلى تقايل التكاليف في العبادات فهي قليلة مقدور عليها . حتى الجليل
الذي عاصر الرسول يسر عليه بالتدرج في حالات كثيرة مثل النهي عن الخمر .

(١) الحرج ما لا يخرج له . جاء رجل في فاس من قومه إلى ابن عباس فسأله عن الحرج فقال :
أولستم العرب ؟ ثم قال : ادع إلى رجلاً من هذيل . فقال له ما الحرج فيكم ؟ قال : الحرجة من الشجر
ما ليس له مخرج . قال ابن عباس : ذلك الحرج ما ليس له مخرج .

والميسر، أشار أولاً إلى إثمهما وإلى كونه أكبر من نفعهما . والفاقهون يستنبطون الحرمة من غلبة الإثم على المنفعة . ثم أشار إلى هذه الحرمة في النهي عن الصلاة والمصلون سكارى مما يستنبطونه أن ما تحرم به الصلاة حرام . فلما تهيأت أنفسهم حرمت الخمر والميسر نهائياً . بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

وقرر المشرع . درء الحدود بالشبهات أخذاً بالرفق؛ فقال عايه السلام : « ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم . فإن كان له مخرج فخاوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في توقيع العقوبة » .

وقال النبي للمسلمين « خذوا من العمل ما تطيقون » . قال رجل : والله يا رسول الله إنى لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطول بنا . قال : فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في موعظة أشد غضباً منه يومئذ ثم قال « إن منكم منفرين » . ورأى ذات يوم رجلاً يصلي فقرأه ساعة ثم قال : « أترأه يصلي صادقاً » ؟ قالوا : هذا أكثر أهل المدينة صلاة . قال « لا تسمعه فتهلكه » . وقال « إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر » وقال عمن أصابهم الإعياء من الصيام في السفر ولا يفطرون استعمالاً للرخصة : « أولئك العصاة . أولئك العصاة » وقال : « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

وكان عايه الصلاة والسلام رحمة مهداة يقول « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

وتوارث الفقه الإسلامي كله تعريف على بن أبي طالب للفقيه « ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه ؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يؤمنهم من مكر الله » .

* * *

والشريعة تجري في التكليف على الوسط الخير أو الأعدل آخذة من الطرفين

بقسط ليس فيه ميل فإذا كان التشريع من أجل انحراف الناس رد التشريع الناس إلى الوسط الأعدل .

واقعد أقر النبي الصمحابة على التمتع بالحللال ولم يزهدهم في الدنيا إلا أن يظهر حرص منهم على متاعها ، ببعدهم عن الوسط العادل الذي نزلت به الشريعة . وهو ينذر ويرهب لمقاومة الانحللال ويرغب ويرخص لمقاومة الحرج أو الشدة؛ فإذا لم يكن انحلال أو شدة فخير الأمور الوسط .

أما المقصد الشامل للشريعة فهو المحافظة على ضروريات الحياة . وحاجياتها وما يحسنها . فالضروريات هي حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال لاتجرى مصالح الدنيا على استقامة إلا بها وتنفوت النجاة في الآخرة من دونها . . أما الحاجيات فهي كل ما يدفع الحرج والمشقة فهي تتمم الضروريات ، وتجعل العمل للمحافظة عليها ممكناً بغير حرج . وأما التحسينيات فتجمل المصالح الضرورية والحاجية بمحاسن العادات ومكارم الأخلاق . ومثلها في العبادات ستر العورة . وفي المعاملات آداب الطعام والشراب . ولا كمال بغير الستر والأدب .

وقد يختل الضروري ، بوجه ما ، إذا اختل الحاجي ولذلك ينبغي المحافظة على الحاجي . وإذا ثبت أن التحسيني يخدم الحاجي فينبغي المحافظة على التحسيني فكلا التحسيني والحاجي يخدم الضروري . وإذا كان منها أمر قد يختل باختلال مكملاته كانت المحافظة عليها مطلوبة لأجله . . وهكذا ترابطت الوسائل الشرعية لتهيئة مرافق الحياة في خدمة بني الإنسان وتكاملت لديهم المناهج ليلبغوا بها مقاصد الشارع في إسعادهم .

وحرص الفقه على المصلحة الأصلية في شأن ما يكمل ويكمل أو يدفع الحرج فاشتراط عدم التعارض الذي يترتب عليه إلغاء الأصل . مثل أن عدم تناول النجس إذا ترتب عليه إزهاق النفس يكون قد أبطل ضرورة حفظ النفس . ولذلك يلزم تعاطي النجس عندئذ .

ومثل كون الولاية على الجماعة ضرورة لحفظها وبقائها . فإذا لم توجد العدالة

في الولاية لم تلغ الولاية . ونزيرين للرعية البقاء بلا وال ، فتقيم الفتنة . . . وثمة أمل دائم في الصلاح بالمشورة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاعتصام بحبل الله .

* * *

وللشرع أصول من الكليات المنصوصة في الكتاب والسنة . مثل (ألا تزر وازرة وزر أخرى) ومثل : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) ومثل : « لا ضرر ولا ضرار » ومثل : « من بات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » . ومثل : « إنما الأعمال بالنيات » .

والكتاب والسنة والإجماع والقياس تسمى أصولاً من باب أنها أدلة الشريعة على الأحكام .

وكليات الشريعة عموماً مبنية إما على أصول عقلية مستندة إلى النصوص وإما على استقراء أصل كلي من الأدلة . وقد لا يشهد للفرع أصل معين ولكن يشهد له أصل كلي .

وكل أصل شرعي لم يشهد له نص معين ، وكان ملائماً لتصرفات الشرع ومأخوذاً معناه من أدلة الشرع فهو صحيح يبنى عليه ويرجع إليه ما دام مقطوعاً به . ويدخل تحت هذا الضرب من الاستدلال « المصالح المرسلة » والتشريع كله يبتغى مصالح البشر .

والأصول الكلية تنماز من الفروع بأن الفروع مستندة إلى آحاد الأدلة وإلى مأخذ معينة ، بخلاف الأصول ، فهي مأخوذة من مقتضيات الأدلة بإطلاق ولا تقتصر على آحاد الأدلة الخاصة .

فأصل رفع الحرج مثلاً نتيجة جزئيات كثيرة جداً في النصوص القرآنية والسنة . ولذلك يحكم به في الأبواب كلها كأنه نص عام لأن الجزئيات تتضمن المعنى العام فيفهم من تعددها وتنوعها أن حكمها ليس للخصوصيات المنصوص عايتها وحدها . فإذا وجدت نازلة لا نص يحكمها أو تقاس عليه ألزمتها الحكم الذي يأمر به هذا المعنى العام .

وقد نبه الله سبحانه وتعالى عباده على الاجتهاد لاستنباط آياته وآلائه

لينظروا في ملكوت السموات والأرض وفي اختلاف الليل والنهار ويعملوا عقولهم في تحصيل حكمته وأحكامها . وحضر على العلم ورفع أصحابه درجات . وجعل ما يستنبط من الكتاب عاماً . والمصير إليه فرضاً .

قال سبحانه : (ولو رده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعامه الذين يستنبطونه منهم) .

ومن أجل الاجتهاد فرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة . روى أن ابن وهب كان جالساً إلى مالك فقام ابن وهب يصلي فقال له مالك . ما الذي قمت إليه بأوجب عليك مما قمت عنه . وربما أراد مالك أن الصلاة . كان لها وقت باق . وتسجيل علم . يخشى فواته . أكد عليه وفي الوقت سعة . . .

* * *

خرج عمر^(١) إلى الشام بالصحابة وبلغه في الطريق وقوع الوباء بها . استشار المهاجرين فمنهم من قال : إن الوباء لا يغير من قدر الله . ومنهم من

(١) من المراجع الأولى في القضاء والاستخلاص والاجتهاد ما روى من كتاب عمر إلى قاضيه أبي موسى الأشعري (بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . سلام عليك . أما بعد . القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يياس ضعيف من عدلك . البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً .

من ادعى حقاً غائباً أو بيئة فاضرب له أمراً ينتهي إليه فإن بيته أعطيته . ولا يمنحك قضاء قضيته اليوم - فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق . فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التماهى في الباطل .

والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجرباً عليه شهادة زور . أو مجلوداً في حد . أو ظنياً في ولاء ، أو قرابة . فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان . ثم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة . ثم قاييس الأمور عند ذلك .

واعرف الأمثال .. ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله . وأشبهها بالحق . وإياك والغضب والقلق والعجز والتأذى بالناس . والفكر عند الخصومة . فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر .

ومن تزين بما ليس في نفسه شانه الله فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً . فاظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام عليك ورحمة الله . »

قال له لا تقدم ببقية أصحاب رسول الله على هذا الوباء . فدعا الأنصار فاختلفوا نفس الاختلاف . فدعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلفوا عليه وأمره بالرجوع — ولم يكن فيهم من ذكر له آية من الكتاب أو حديثاً لرسول — فقال عمر : « إني مصبح على ظهر » أى راكب في الصباح .

قال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟

قال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله . رأيت لو كانت لك إبل في واد له عدوتان — إحداهما خصبة والأخرى جربة أليس إن رعيها الجربة رعيها بقدر الله وإن رعيت الخصبة رعيها بقدر الله ؟ هكذا استشار عمر واعترض أبو عبيدة باجتهاده ورد عليه عمر بالرأى المبني على القياس ولم يحتج أحد بالكتاب أو السنة أو إجماع الصحابة لأنهم مأمورون بأن يعتبروا ويفقهوا^(١) .

ويعمى الصحابة على سنة الاجتهاد . فيرسل عمر إلى شريح يقول له إن لم يجد سنة عن الرسول ليقضى .. بما يتبين له من قضاء الأئمة المهديين والصالحين فإن لم يكن فهو بالخيار . ويقول : « إن شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك . وإن شئت أن تؤامرني — ولا أرى مؤامرتك إياي إلا خيراً لك والسلام » . ويضرب عمر الأمثال على التطور . ويستحدث للحوادث الأحكام . كان

(١) قال تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار) والاعتبار منه القياس . بل إن من علماء اللغة من يرى الاعتبار هو القياس . روى عن ثعلب (٢٠٠-٢٩١) وهو من يعمل عليه في اللغة الأصلية . والنقل عن العرب . وله كتابان في غريب القرآن الكريم ومعاني القرآن روى عنه ، في تفسير قوله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار) أن الاعتبار هو القياس . وقال تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ومؤدى ذلك أن علينا أن نقيس على ما فيه من نصوص . أو كليات .

فالقياس أداة علم في القرآن قال تعالى : (ولقد علمت النشأة الأولى فلولا تذكرون) فهو يلومهم على إنكار النشأة الثانية مع أن لهم طريقاً إلى معرفتها وهو النشأة الأولى . ومثل ذلك قوله تعالى : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟) ولما أرسل النبي معاذ بن جبل للقضاء باليمن . قال له بم تحكم ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيي قال عليه الصلاة والسلام : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسوله » .

الصناع على عهد النبوة أكثر الناس أمانة وحرصاً على إعادة الأشياء المسلمة إليهم سليمة . مقابل أجرهم على العمل . فإذا هالكت العين عندهم لم يكن عليهم ضمان فاما تغير الناس واتسع المجتمع ، رأى عمر أن يضمن الصناع . ليتسع نطاق الاستصناع .

ويصنع في الديارات صنيعاً فيه كل دلائل التطور . فرضتها السنة في الإبل لنفسها أو ما تساويه من المال فجعلتها ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم . وجعلتها على عاقلة المهتم تسهلاً عليه وتيسيراً للمستحقين فلما استخلف عمر خطب الناس قائلاً إن الإبل غلت . ثم نظر فوجد أن حصرها في الإبل فيه تضيق . فجعلها على أهل الذهب ألني دينار وعلى أهل البقر مائتي بقرة . وعلى أهل الشاة ألني شاة . وعلى أهل الحلال مائتي حلة . وكتب الناس فجعلهم كأهل قبيلة واحدة . وأحل أهل الديوان محل العاقلة « من أهل القاتل » في الالتزام بالدية ... أي أصبحت خزانة الدولة مسئولة عن توفير التعويض لمستحقه . . وهذا طراز من تقرير المسئولية تحاول لتبلغه جاهدة أعظم النظريات الفقهية والاجتماعية تقدماً في القرن العشرين .

أما في الحدود فيعتبر من يسرق مال الدولة يسرق نفسه لأن له حتماً في بيت المال ولا يقطع يد السارق فثمة شبهة . والرسول يقول ادرعوا الحدود بالشبهات ما استطعتم . ويدراً عمر الحدود بالشبهات في الرجم . وفي قطع اليد عام المجاعة . ويقبس على عدم قطع اليد حداً آخر هو الجلد . والرسول يقول : « لا تقطع الأيدي في السفر » وعمر يكتب إلى واليه : « ألا لا يجلدن أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع على الدرب لئلا يحمله الشيطان أن يلحق بالكفار » ، ولم ينفذ حد السرقة في عام المجاعة ، وترك التغريب في الزنا بعد أن لحق أحد المغربين بالروم وتنصر . ويجهد — بمجلس الشورى — في حد آخر . يوم جاءه رسول خالد بن الوليد أبوويرة الكابي . وهو القاتل بعد : « أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر رضي الله عنه . فأتيته ومعه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وعلى وطلحة والزبير رضي الله عنهم . وهم معتكفون في المسجد . فقلت إن خالد بن الوليد يقرئك السلام . ويقول إن

الناس قد انهمكوا في الخمر . وتحاقروا الحد والعقوبة فيه . فقال عمر : هؤلاء هم عندك فاسألم . فقال علي : إذا سكر هذى . وإذا هذى افترى . وعلى المفترى ثمانون . فقال عمر : بلغ صاحبك ما قالوا . وفي رواية سلفت وافق علياً عبد الرحمن بن عوف .

وكان التطوير وفقاً للمصلحة . سن عطاء لكل طفل بعد الفطام ، ففطم الناس الأطفال قبل الأوان ليبلغوا العطاء ، فغير التشريع فجعل العطاء لكل حتى للرضيع .

روى عبد الله بن عمر أن ركباً من التجار كانوا في اتجاههم إلى المدينة فدخل عليهم المساء . فحطوا رحالهم خارجها . وعلم بذلك عمر فقال لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن تسهر عليهم لتحرسهم . وترعاهم ؟ . فباتا يحرسان الناس ويصليان وسمع عمر بكاء طفل فتوجه نحوه أمه وقال لها : اتقى الله وأحسنى إلى طفلك . ثم عاد مكانه فعاد الطفل إلى بكائه فعاد عمر ينهها وعاد إلى مكانه . فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فقال لها ويحك : إني لأراك أم سوء . مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة !! .

قالت وهي لا تعرف من تحدث : يا عبد الله قد أبرمتنى طول الليل . إني أعجله على الفطام فيأبى إلا رضاعاً .

قال : لم ؟

قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم .

قال : وكم لابنك من العمر ؟

قالت كذا شهراً .

قال : ويحك لا تعجله .

فلما انتهى عمر من صلاته قال يا بؤساً لعمر ! كم قتل من أولاد المسلمين . ثم أمر منادياً فنادى لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام . وكتب بذلك في الآفاق .

عمل عمر عظام الأعمال دون بحث عن نصوص تشهد لها إلا كليات الشريعة

في المصلحة . استخلف النفر الذين مات رسول الله وهو عنهم راض . ومنع كبار الصحابة مغادرة المدينة إلى حيث يملكون الضياع الواسعة . واتخذ الحبس . ونظم الجيش وجعل له أرزاقاً في بيت المال ؛ وربط أرزاق الولاة والقضاة . وضرب الدراهم . ووضع التاريخ الهجري ؛ وفصل القضاء عن الولاية العامة .

وجعل الطلاق الثلاث بكامة واحدة ثلاثاً بعد أن كان واحدة في عهد النبي وعهد أبي بكر وصدرأً من إمارة عمر ؛ ونهى عن زواج الكتابيات وشاطر الولاة أموالهم . ولم ينس أبناؤه :

قال عبد الله بن عمر . اشتريت إبلأً وارتجعتها إلى الحمى فلما سمعت قدمت بها فدخل عمر السوق وكان يراقبها بنفسه . وكان خبيراً في الإبل . رعاها في شبابه لأبيه . فرأى إبلأً سمناً فقال : لمن هذه ؟ قيل لعبد الله بن عمر . فجعل يقول : يا عبد الله بخ . بخ . ابن أمير المؤمنين ! فجثته أسعى فقلت مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ما هذه الإبل ؟ . فقلت إبل أنضاء « هزيلة » اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغى ما يستغى المسلمون . فقال : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ! ! يا عبد الله — أغد على رأس مالك . واجعل باقيه في بيت مال المسلمين .

وكل أولئك أمثلة على اجتهاد عمر في اتباعه بنصوص أو في هدى نصوص لتحقيق المصلحة — وهو القائل لركن الكعبة عندما استلمه : « أما والله إنى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع . ولكنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استلمك . وأنا أستلمك » .

* * *

آل منهج عمر إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود . فصار منهجاً للفقهاء في أقطارهم الثلاثة : مكة والمدينة والكوفة .

أما عبد الله بن عباس ابن عم النبي فكان في فتاء السن . وكان عمر يحبه ويسامره . ويطلب إليه آراءه . ولما طعن عمر قال له : أتشهد لي يا ابن عباس ؟ . وابن عباس أستاذ مدرسة مكة التي انتهى علمها إلى محمد بن إدريس الشافعي .

وأما عبد الله بن عمر . فأستاذ مدرسة المدينة التي انتهى علمها إلى مالك . ابن أنس .

. وأما عبد الله بن مسعود فأستاذ في مدرسة المدينة . وأستاذ أول لمدرسة الكوفة . وكان إبراهيم النخعي . أستاذ حماد شيخ أبي حنيفة . لا يعدل بقول عمر وابن مسعود إذا اجتماعا فإن اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه كان أطف . وكان أحب الناس إلى ابن مسعود عمر^(١) وكان يجتهد رأيه . فعلم الكوفة أن تجتهد، كما تعاملت مدرسة المدينة على عمر أن تجتهد . فصار سعيد بن المسيب ، راوية عمر ، يلقب بالجرىء ؛ وربيعة بن أبي عبد الرحمن يلقب بريعة الرأي ؛ ومالك بن أنس واحداً من أئمة الرأي والاجتهاد .

ولم يكن من ذلك بد . فالنصوص متناهية لكنها قواعد تحكم ما لا يتناهى من الوقائع . والقرآن جامع لأن المجموع فيه أمور كليات . والنصوص لا تفصل إلا علاقات العبد بربه من عقائد وعبادات ، وما يلحق بها من أحوال شخصية ومواريث . فلا مجال في التعبد إلا للطاعة . والمصالح التي تتضمنها المواريث والأحوال الشخصية لا تتغير مع الزمن .

أما علاقات الناس في أموالهم ، وسياسة دولتهم وأمانهم في سربهم ودرهم ، مما تنظمه القواعد المدنية والجنائية والدستورية والدولية وما إليها ، فقد اقتضت النصوص فيها على قواعد عامة لها ، يهتدى الناس بهداها ، حسب الحضارات والمجتمعات .

* * *

وتنوعت دلالة النصوص من نصوص قطعية قليلة العدد ، كآيات المواريث والزكاة والحدود إلى ظنية تحتل أكثر من معنى وهي جميعاً توجب إعمال

(١) يقول عبد الله بن عتبة أبو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة « أحد الفقهاء السبعة بالمدينة » . لما مات أبي - عتبة بن مسعود الهذلي - بكى ابن مسعود وقال : أخى وصاحبى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحب الناس إلى ما كان من عمر .
والزهري أستاذ مالك يقول : « ما ابن مسعود عندنا بأعلى من أخيه عتبة » . ولولده عبد الله إدراك وصحة ورواية حديث .

الفكر في العبادات والمعاملات على أساس أن النص لازم لتحريم أمر ، وفيما عداه تكون التصرفات مباحة في حدود مقاصد الشريعة لحماية المصالح الشرعية . فالمحرّمات معدودات . قال عليه السلام : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها » . وبهذا صار الأصل حرية وسعة في ابتغاء المصلحة .

ومن أجل الرحمة ورفع الحرج شرع الاستثناء والرخص عند الضرورة . ذلك قوله تعالى : (إلا ما اضطررتم إليه) . وهذا كلى من كليات الشريعة فهو مبدأ عام ترك التفصيل فيه للناس حسب أوقاتهم وحالاتهم . وعلى هذا الأصل جرت استثناءات الضرورة .

والغزالي وابن تيمية وابن قدامة يقولون : إذا وجد معنى يجمع بين هذا المشتبى وغيره جاز قياس غيره عليه سواء أكان الاستثناء بنص أو قياس . وهذا توسيع جديد في التوسعة ومتابعة للرحمة والمصلحة .

وإذا عللت النصوص الكثير من الأحكام فقد أرشدتنا إلى أن تغيير المصلحة بحيث يصبح النص غير محقق لمقصود الشارع من الحكم يجعله غير جائز التطبيق وأنه إذا ترتب على المباح نقيض ما أراده الشارع تزول إباحته حتى لا تحدث مفسدة تفوق المصلحة المرجاة وأن المصالح عموماً قاعدة الاجتهاد سواء أكانت منصوبة أو كانت مرسلة .

ويقول إمام الحرمين « الجويني » الشافعي : إن من تتبع أعمال الصحابة الذين هم القدوة في كل شيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير لواحد منهم في مجالس الاستشارة تمهيد أصل واستشارة معنى ثم بناء الواقعة عليه . ولكن يخوضون في وجوه الرأي من غير التفات إلى الأصول كانت أو لم تكن . .

وذلك ما يؤكد القرافي المالكي حيث يقول : « وما يؤكد العمل بالمصلحة المرسلة أن الصحابة عملوا أموراً لمطلق المصلحة لا لتقديم شاهد بالاعتبار نحو كتابة المصحف . وولاية العهد من أبي بكر لعمر . وترك الخلافة شورى بين سنه .

وتدوين الدواوين . وعمل السكة للمسلمين واتخاذ السجن . وغير ذلك مما عمله الصحابة لمطلق المصلحة .

وظاهر أن أهل الحجاز وبخاصة في المدينة أخذوا إخذ عمر . يستحدثون في الفقه أموراً لا تذكرها نصوص الشرع ولا تنكرها . ويعقلها المسلمون بفهمهم لأصل الإباحة التي شرعت لهم ، ما دام فيها مصلحة حقيقية وعامة وملائمة أو مناسبة لمقاصد الإسلام لا غريبة عنها ، ولا وهمية ولا خاصة بصاحبها بل تحقق نفعاً لأكثر عدد ، ولا خارجة عن إطار الخيرية السمحة وسجاياها .

ومن أمثال ذلك ما رواه الزهري في أواخر عهد التابعين بالمدينة من أنه لم يكن ينهم ساف المسلمين الصالح في شهادة الوالد لولده ولا الولد لوالده ولا الأخ لأخيه ولا الزوج لامرأته — ثم ظهرت أمور حمات الولاة على الاتهام فتركت شهادة من يتهم إذا كانت من قرابة ، وصار ذلك من الوالد والوالد والأخ والزوجة والمرأة — لم يتهم إلا هؤلاء في آخر الزمان . وأمسي سعيد بن المسيب ويحيى ابن سعيد الأنصاري وربيع بن أبي عبد الرحمن يفتون بجواز التسعير بعد أن رفضه النبي وقال : « بل الله يرفع وينخفض وإنى لأرجو أن ألقى الله عز وجل وليس لأحد عندي مظلمة » وإنما صار أهل المدينة إلى ذلك آخذين بالمصلحة كما تعلموا على الصحابة . وربيع وسعيد ويحيى والزهري أساتذة مالك وفي مدرسة مالك ازدهرت نظرية المصلحة المرسل : نظرية جلب مصلحة أودرء مفسدة إذا سكنت النصوص .

وتعاصر عمل المسلمين بالمصلحة حيث لا نص ، وعملهم بالقياس حيث يوجد نص صالح للقياس بمعناه الفني « إلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص في الحكم المنصوص عليه لاتحاد العلة بينهما » . من أجل أن الأمرين معاً فرعان متوازيان للاستدلال^(١) .

(١) والقياس يكون على أصل ثابت بالقرآن أو بالسنة أو بالإجماع كقياس العقود كلها على البيع المنصوص على تحريمه يوم الجمعة ، إذا نوى للصلاة (إذا نوى للصلاة من يوم الجمعة فاسموا إلى ذكر الله وذروا البيع) .

وقياس الموصى له على الوارث في قول الرسول : « القاتل لا يرث » . ولقد يشترط البعض أن تدخل المصلحة في القياس حتى تنضبط انضباط القياس . لكن المالكية =

وتبارى الفقهاء في استنباط الأحكام للمعاني الدقيقة وأفتوا بالمصلحة آخذين بالحكمة التي شرعت لها الأحكام .

والشافعي يقول : « كل ما نزل بمسلم فقيه حكم لازم أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة . وعليه إذا كان فيه بعينه حكم اتباعه ، وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد . والاجتهاد القياس ، وتاميزه إمام الحرمين يقول : « ذهب الشافعي ومعظم أصحاب أبي حنيفة إلى اعتقاد الاستدلال وإن لم يستند إلى حكم متفق عليه في أصل ولكنه لا يستجير البعد والنأي والإفراط ، وإنما يسوغ تعليق الأحكام بمصالح شبيهة بالمصالح المعتبرة وفاقاً . وبالمصالح المستندة إلى أحكام ثابتة الأصول قارة في الشريعة . . والمذهب . . المعروف من مذهب الشافعي التمسك بالمعنى وإن لم يستند إلى أصل على شرط قربه من معاني الأصول الثابتة » .

* * *

وأصل المصلحة يستمد من فحوى نصوص جزئيات كثيرة يتجلى بها مقصود الشارع وهو الذي استعمله الصحابة في كثير من فتاواهم مثل ما أسلفنا من أعمال عمر ، ومبشطرة الولاة أموالهم ، وإراقة اللبن المغشوش . وقتل الجماعة بالواحد وتوحيد المصحف .

وقد جعل مالك المصلحة أصلاً قائماً بذاته لأن الشريعة كاملة تتضمن مصالح البشر سواء بالنصوص الضريحة في الأحكام أو بعمومات المبادئ في النصوص العامة والأصول العامة .

وهو الذي استعمله مالك : « إذ أجاز أن يوظف على الأغنياء نفقات للمصلحة العامة » وأفتى بالجهاد مع أئمة الجور . قال : « لو ترك ذلك لكان ضرراً »

= ينونها على مجرد المصلحة دون أن يتكلفوا لها البحث عن أصل معين . يقيسون عليه . واشتهر ذلك عنهم وعن الحنابلة . فقل إنها بذلك صارت دليلاً مستقلاً . وابن العربي يرى أن « العموم إذا استمر والقياس إذا اطرده . فإن مالكا وأبا حنيفة يخصان العموم بأي دليل كان . من ظاهر أو معنى ويستحسن مالك أن يخص بالمصلحة » .

على المسلمين . وأجاز تعاطي ما يسد الحاجة لمن وجد في أرض لا يستطيع تغيير ما فيها من الحرام . ولا يستطيع الانتقال منها مثلما يأكل المضطر الميتة والدم ولحم الخنزير . ورفض ما طلبه المهدي من هدم الكعبة وإعادة بنائها على ما بناها إبراهيم مخافة أن يتخذها الحلفاء فيما بعد سنة لهم .

فالك يستدل على الحكم بالنص مثل (لا تفتلوا النفس) أو بمعقول نص بعينه مثل تحريم النبيذ من معنى تحريم الخمر . أو بمعقول مجموعة نصوص . وفي الحالة الأخيرة لا يفيد نص واحد المعنى المطلوب . وإنما تجتمع نصوص كثيرة فتنتج المعنى فيكون أصلاً كلياً قطعياً هو من مقاصد الشارع . فيطبق مباشرة على جزئيات لم يرد فيها بعينها . فهو مقصود الشارع قد تضافرت في إنتاجه النصوص . وهو بهذا يعادل الأصل المنصوص عليه في الكتاب والسنة تماماً لأنه فحوى نصوصهما .

والأصل الشرعي كالنص الشرعي – ويقول الشاطبي : « العموم إذا ثبت فلا يلزم أن يثبت من جهة صيغ العموم فقط . بل له طريقان أحدهما الصيغ إذا وردت وهو المشهور في كلام أهل الأصول والثاني استقراء مواقع المعنى حتى يحصل في الذهن أمر كلي عام فيجري في الحكم مجرى العموم المستفاد من الصيغ . ومثال ذلك قاعدة رفع الحرج في الدين نستفيده من نوازل متعددة . خاصة مختلفة الجهات متفقة في أصل رفع الحرج » .

فهذا الاستدلال لا يرجع لنص خاص . بل يعتمد على معنى معقول هو أصل عام ملائم لتصرفات الشارع . فيطبق الأصل العام كأنه لفظ عام تدرج تحته الواقعة .

والمصلحة المرسله التي لم يرد فيها أو في تحريمها نص – كثيرة . ولما قال مالك : الاستحسان تسعة أعشار العلم ، فلعله كان يقصد الاستحسان المترتب على كليات الشريعة .

والشاطبي يزيد توضيح المعنى . إذ يقول عن الأدلة المستعملة في أصول الفقه إنما هي الأدلة الاستقرائية المحصلة بمجموعها القطع بالحكم وأنه « إذا ذكر العموم في أصول الفقه فالمراد به العموم المعنوي ، كانت له صيغة أم لا . . » .

فليس التعويل على نص بذاته هو الأساس ، لا غيره ، لاستنباط الأحكام فالنصوص قليلة وبقلة تضيق دائرة القياس ، على القياسين . ومن الناحية الأخرى فتحميل نص معين مسئوليات إنتاج أحكام ، قريبة أو مقربة إليه ، إغراق خطر . وأقرب منه إلى صميم الفقه التعويل على الأصول العامة المؤكدة . وربما عني مالك ذلك أو نحوه عندما قال : « إن المغرق في القياس يكاد يفارق السنة » .

ولقد جمع فأوعى تفاريق الكلام في الاستدلال المرسل قول الشاطبي من مذهب مالك « كل أصل شرعي لم يشهد له نص معين ، وكان ملائماً لتصرفات الشرع وبأخوذاً معناه من أدلته فهو صحيح يبنى عليه ويرجع إليه . إذا كان ذلك الأصل قد صار بمجموع أدلته مقطوعاً به . لأن الأدلة لا يلزم أن تدل على القطع بالحكم بانفرادها دون انضمام غيرها إليها . . . ويدخل تحت هذا ضرب الاستدلال المرسل الذي اعتمده مالك والشافعي . فإنه وإن لم يشهد للفرع أصل معين فقد شهد له أصل كلي . والأصل الكلي إذا كان قطعياً قد يساوي الأصل المعين . وقد يربى عليه بحسب قوة الأصل المعين وضعفه . وكذلك أصل الاستحسان على رأى مالك لأن معناه تقديم الاستدلال المرسل على القياس » .

ولا تعارض المصلحة نصاً قطعياً لأنه حكم الشرع . قد أفصح عنه ولوجود النص ضعف الفقهاء فتوى يحيى بن يحيى حين أفتى الملك المفطر بوقاع جاريته أن يصوم شهرين متتابعين ، فالنص صريح بعق رقبة أو بصيام شهرين متتابعين . والنص يحمل على أن له أن يختار . وقد بدأ بالعق .

* * *

ودفع الحرج وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ودفع أشد الضررين والمحافظة على النفس . أمثال أربعة — على قوة الأصل الكلي المستنبط من مجموع

النصوص . إذا استعمل في مقابله نص آخر . فالأصل الكلى في الواقع يمثل
نصوصاً شتى تضافرت في إنتاجه .

فأصل رفع الحرج مثلاً مستنبط من نصوص عدة كالتيتم لمشقة الحصول
على الماء وقصر الصلاة في السفر ، والفطر في السفر ، وجمع الصلاة في المرض
والسفر والمطر . وإباحة الميتة وغيرها من خوف التاف . والصلاة إلى أى جهة
عند تعسر معرفة القبلة وغير ذلك من جزئيات كثيرة .

وأصل تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة مستنبط من مجموعة
أحكام تنغياهمصاحبة الجماعة . منها تحريم الاحتكار وتحريم تلقى الركبان الوافدين
بالسلع خارج السوق ، حفظاً لمصلحة أهل السوق . حتى لا يكسب المتلقى وحده
وتضار الجماعة فيما تحتاجه . وتريس أبي طلحة (١) على الرسول حفظاً لحياته
فشلت يده ونجا الرسول عليه السلام ، ومنع المسلمين أبا بكر من التحرف
والتجارة تقديماً لمصلحة المسلمين عامة على مصلحته خاصة ليعمل لهم لا لكسب
قوته . وهو خليفة ، والحجر على السفينة تقديماً للمصلحة العامة بحفظ مال
الجماعة على حرية التصرف في المال .

وأصل دفع أشد الضررين مأخوذ من جزئيات متعددة منها شرع الجهاد
وفيه إتلاف للنفس لكنه ضرر خاص يتحمل للدفع ضرر عام . ومنها قتل مانعي
الزكاة ولكنه أخف من الفتنة . ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن
تعرض فيه الفاعل للهلاك لكنه أخف من الضرر الكبير .

وأصل المحافظة على النفس عموماً مأخوذ من جملة نصوص بطريق الاستقراء
منها نهى الشارع عن قتل النفس . ومنها جعل القتل موجباً للقصاص . ومنها إقامة
الأجناد لقتال من تحدثه نفسه بقتل الآخرين . ومنها إباحة المحرم عند الاضطرار
مثل أكل الميتة .

(١) كان أبو طلحة « زيد بن سهل بن الأسود » بين يدي الرسول والرسول يرفع رأسه من خلفه
ينظر إلى مواقع نبله وهو يرى وكان من أمهر رماة الإسلام فيتطاول أبو طلحة بصدرة يتي الرسول ويقول ا
يا رسول الله نحري دون نحرى . رواه الإمام أحمد . مات أبو طلحة سنة ٣٤ عن سبعين عاماً وهو من
شهداء بيعة العقبة .

وهذه أمثال لكثير غيرها توضح لنا كيف يستنبط الأصل القطعى من اجتماع كثير من الأحكام وإن لم ينتجها شاملاً قاطعاً حكم واحد لكن مجموعها ينتج معناه قاطعاً شاملاً . وهذه الأمثال توضح كذلك اتساع أصل الاستدلال المرسل فيتبدى به الشرع الإسلامى شرع الكمال لشموله وشموه . ولاقتداره على أن يسهل أى تطور للناس فى عصورهم المختلفة مع التيسير عليهم ما داموا فى إطار الحنيفية السمحة . وحدوده بعيدة تسع كل أبعاد جديدة . تتفق مع مقاصد الإسلام . ومن ثمة وسع الإطار كل تطور إلى خير الناس فى دنياهم . والشرعية نزلت للدنيا كلها لا لجيل ولا لقبيل .

* * *

وإنك ترى - بادية الرأى - أن استنباط الكلمات من مجاميع الأدلة وتحصيل المقاصد من الجزئيات . عمل فكرى فى منطقة عالية كل العلوفى أفقها الدينى واللغوى والعلمى ، الذى يستلزمه استخراج الفحوى من خصائص الآى والسنن . وهو من أقصد السبل إلى صميم الدين . أو خلاصة الفقه فى الدين . ولا يقدر على استعماله إلا كبار الفقهين والمؤصلين ممن سبروا أغوار الشريعة . وإنه لأفعل فى النفوس أن تستخدم مجاميع النصوص ويُستعمل المستقر المقطوع به من فحواها . فهذا هو لباب الفقه . وملاك الأمر فى شرع المصالح . تجارى فيه الأئمة الكبراء والصحابة الذين حملوا مسئولية التقدم الإسلامى وتطور الفقه وتابعهم أعلام التابعين وتابعوهم الذين يتصدرهم مالك كما يتصدر اللاحقين .

وإنما شق مالك الطريق فى هذه المنطقة العليا من فكر البشر بالاتباع الكامل للأمر الأول الذى نبت فى تربته وأرست على أساسه قواعده . فهو يعمل بالنصوص المسعفة وبروح المدينة الميسرة معاً ، ولا يقبل الدليل العقلى مجرداً من الدليل الثقلى . فى الشرع كفاية للبشر .

ولو أطلق العنان للعقل يفكر وحيداً أو بعيداً لكان هذا هو التشهى بعينه

أو التلذذ كما عبر الشافعي فيما بعد عن ضروب الاستحسان التي لا تنهض بها الأدلة الشرعية .

ذلك وأدلة الشريعة مصداق خصائصها من العالمية والأبدية والسمو والشمول . فهي عالمية لكل العالم في كل مصر . وهي أبدية منزلة لكل عصر . وهي سامية عن المستوى الذي يخلد فيه الناس إلى الحياة الصغيرة . ترفعهم دائماً إلى مثل عال . وتشدهم إلى الخير من النواميس والأفعال . وهي شاملة لأحكام في كل ما ينزل بهم . وعلى المجتهد طلب الأحكام منها لا بمجرد العقل أو المنطق وإنما بهما وبالنصوص الشرعية .

وكما يقول الشاطبي : « إذا تعاضد العقل والنقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعاً ويتأخر العقل فيكون تابعاً . فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بمقدار ما يسرحه النقل » .

ومع أن استعمال أصل المصالح يفتح الأبواب واسعة لبلوغ أغراض الشريعة لتحقيق مصالح الناس . فالعلماء يقاربونه حذرين لأسباب : منها أنه لا يقدر عليه إلا كبار المستنبطين كما ساف القول . ومنها أن هذا العلم دين كما يقول مالك . والورع يقتضي الفقيه أن يتوقف عند حدود اليقين . ومنها كما يقول القرافي : « وإنما فر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريراً صريحاً مع اعتبار كلهم له . خوفاً من اتخاذ أئمة الجور إياه حجة لاتباع أهوائهم . وإرضاء استبدادهم في أموال الناس ودمائهم . فرأوا أن يتقوا ذلك بإرجاع جميع الأحكام إلى النصوص . ولو بضروب من الأقيسة الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلات من أدق مسالك العلة في القياس . ولم ينيطوها باجتهاد الحكام والأمراء . وهذا الخوف في محله . ولكن لم يبق الأمة من أهواء الحكام كما ينبغي . إذ كان يوجد في عهد كل الحكام من علماء السوء من يمهّد له ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى » .

* * *

وليست المصلحة أموراً ضرورية أو ما يجزئ مجزأها : فحسب بل ثمة مصلحة

فما يرفع الحرج والمشقة أو يمتنع الناس بالحياة وطيباتها وبمعانيها الجميلة وبمكارم الأخلاق . فما يحتاجه الناس من حاجى وتحسينى ، كثيراً ما يكون مكملًا للضرورى لهم . وبهذا فتح فقه المصالح أنعم الله واسعة لعباده لا يقيدوها إلا بمقاصد الشريعة . ولا يشترط إلا أن تدخل المصلحة تحت جنس اعتبره الشارع صريحاً أو مأخوذاً بالاستقراء المفيد للقطع من نصوص الشريعة . فتخرج كل مصلحة غريبة عن مقاصد الشريعة . وتدخل كل مصلحة ملائمة مناسبة لمقصد من مقاصدها ، لا يناقضها نص .

يقول الشافعى : كل حكم لله ولرسوله وجدت عليه دلالة فيه أو فى غيره . . . بأنه حكم فيه لمعنى من المعانى فتزلت وزلة ليس فيها نص حكم ، حكم فيها حكم النازلة المحكوم فيها . إذا كانت فى معناها .

والشاطبى يقول : « إن للأصوليين قاعدة . . . هى أن المعنى المناسب إذا كان سابقاً للفهم عند ذكر النص صح تحكيم هذا المعنى فى التخصيص له والزيادة عليه ومثلوا لذلك بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » فنعموا لأجل التشويش القضاء مع جميع المشوشات . وأجازوه مع ما لا يشوش من الغضب .

فإذا لم يوجد جنس معتبر للمصلحة . فهذه ليست مصلحة شرعية بل هى مصلحة غريبة أو هى بدع فى الشرع يجمع على طرحها إذ الشرع كامل .

خرجت مدرسة مالك على هذه الأصول العامة أعظم التخريجات : فى فقه « أصل المحافظة على النفس » أبيع قتل الجماعة بالواحد إذا تماثلوا عليه وأجيز للناس أن يتناولوا مقدار حاجاتهم من المحرم إذا طبق الحرام أرضاً هم فيها . دون ترفه أو تنعم . وفى إجازتهم مقدار الحاجة لا يقتصرون على الضرورى وإلا هلك المسلمون أو هزلوا فى حين يصح غير المسلمين .

وفى فقه « أصل دفع أشد الضررين » أباح مالك توظيف الخراج على الناس إذا خلا بيت المال مما يبنى بحاجة الجند . وأجاز انعقاد الإمامة الكبرى لمن قصر عن رتبة الاجتهاد . فأصل الإمامة مصلحة ضرورية واشتراط الاجتهاد مكمل .

وإذا تعارضت الضرورات مع التكميليات كانت الأولى أولى . كما أجاز بيعة المفضل مع وجود من هو أفضل منه خوف الفتنة .

وفي « أصل تقديم المصلحة العامة على الخاصة » ضمن مالك الصناع الأشياء التي تسلم إليهم ليصنعوها إلا أن يثبتوا أن الهلاك من فعل غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون ، لأن يد الصانع يد أمين . فلما غلبت الحياة وضعف سلطان الدين قضى الصحابة بتضمنهم وقال على بن أبي طالب : « لا يصلح الناس إلا ذاك » وإذا كان بعض الصناع لا يخونون ، فإنما هي قلة تتقدم عليها مصلحة الجماعة من أرباب السلع .

يقول مالك : « هو ضامن حتى يعلم أن النار من غير سببه . أو سيل يأتي . أو يهدم البيت » . فالقرينة في صالح رب السلعة . حتى يثبت الصانع العكس . وعلى أصل تقديم المصلحة العامة أفتى مالك بجواز سجن المتهم لتبلغ العدالة غرضها . .

يذهب بعض الفقهاء المالكية إلى جواز سجن المتهم وضربه ليقر . أما مالك فلم يثبت عنه أنه قال بالضرب . بل بالمشهور في مذهب مالك أن الإقرار بعد الضرب لا يؤخذ به . ولم يخالف ذلك إلا سحنون . قال : إن أقر في حبس سلطان يعدل لزمه إقراره . وكيف ينبغي إذا حبس أهل الظنة ومن يستوجب الحبس وأقر في حبسه أنه لا يلزمه ؟ قال : وإنما يعرف هذا من ابتلى بالقضاء . وسحنون كان قاضياً يأمر بضرب الخصوم في مجلسه إذا أخطأوا في حق بعضهم بكلام .

والسلطان العادل لا يحبس بمجرد التهمة أو الظنة ولكن بعد دلائل . وعلى الأساس ذاته أفتى مالك بجواز التسعير على الناس بعد أن رفضه النبي حينما غلا السعر في المدينة فقال الناس : يا رسول الله سعر لنا : فقال : إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق . إني لأرجو أن ألتق الله وليس أحد فيكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال .

ولما ظلم التجار الناس رأى مالك أن مناط الامتناع عن التسعير كان ظلم

المسعر للتجار . فحكم الامتناع عن التسعير لم يعد يجد مجالاً لتطبيقه . وهو باق على حاله لم يتغير . وإنما أماننا واقعة أخرى . محتاجة لحكم من نوعها يعالج ظلم التجار للناس .

وعلى الأساس ذاته أجاز مالك الأكل من الغنائم قبل قسمها .

قال : « لا أرى بأساً أن يأكل المسلمون إذا دخلوا أرض العدو من طعامهم ما وجدوا من ذلك كله قبل أن تقع المقاسم . وفي الصحيح عن ابن عمر كنا نصيب في مغازينا العسل والعنب . فنأكله ولا نرفضه » ، فذهب الجمهور إلى جواز أكل الأقوات إذ الطعام يعز في دار الحرب فأبيح للضرورة وإن لم تكن ناجزة قال مالك : « وإنما أرى الإبل والبقر والغنم بمنزلة الطعام يأكل منه المسلمون إذا دخلوا أرض العدو كما يأكلون الطعام بجامع أن كلا مأكول فيجوز ذبحه للأكل بشرط الحاجة » .

وعلى الأساس ذاته جاز تلقى الركبان . فلقد جاء النهى عن تلقى الركبان خارج السوق ليهبطوا السوق بسلعهم . واختلف في المناط : هل ليعرفوا سعرها أو يسدوا حاجتها : أو يتوفروا الضروري من السلع ؟ واختلفوا في الحكم قدر ما اختلفوا في المناط فأباح البعض التلقى لو علم الراكب سعر المثل وباع به . وأباح البعض تلقى ما لا يرغب فيه العامة من الناس في السوق : وأباح البعض الشراء خارج السوق إذا كثرت السلع . كل حسب مناطه .

ومن أجل المصلحة العامة بحفظ أموال المسامين . أجاز مالك الحجر على السفينة .

أما المدين فتصرفاته بعد الدين . دون حاجة لقضاء القاضى . موقوفة غير نافذة ما دامت تضر دائنيه . لهم إبطالها أو إجازتها .

وعلى قاعدة المصلحة العامة الغالبة أفتى مالك بعدم قبول توبة الزنديق المستسر للكفر إلا إذا أقبل يعلن التوبة قبل الاطلاع عليه . فتقبل منه التوبة عندئذ .

قال عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » .

والشافعي يقبل التوبة من الزنديق ولكن مالكاً لا يقبلها . ولأبي حنيفة قولان في المسألة هما هذان الرأيان .

ومذهب مالك يقوم على الآية (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) وهي تخصص إطلاق من يعلن الإسلام فينجو بأن يكون ذلك قبل أن يرى البأس . وليس مجرد إعلان الشهادة في مقام التماس النجاة توبة — أو كما يقول الغزالي : « والمعنى بتوبته تركه الدين الباطل . والزنديق بالنطق بكلمة التوبة ليس تاركاً لدينه الباطل بل هو حكم من أحكام دينه وموجب دين الزنديق عند شهادته أنه يستعمل دينه » . فالحديث يحمل على الكفار الذين يعتقدون أن الشهادة ترك لدينهم بخلاف الزنادقة فمن قواعد دينهم الإيهام بالشهادة ذاتها . ويقول الغزالي : « فهذا لو قضيت به في أصله استعمال مصلحة في تخصيص عموم . . وهذا لا ينكره أحد » .

وعلى أصل حفظ الدماء أفتى مالك بقبول شهادة الصبيان فيما بينهم من الجرح بالمصلحة الملائمة لجنس تصرفات الشارع فهي داخلة تحت أصل حفظ الدماء وقد اعتبره الشارع بجملة نصوص ومجموع أدلة . تفيد القطع . وهذه المصلحة من الضروريات لحفظ البقاء وصون الدماء بين الصبيان الذين لا يشهد نعيم سواهم فلا يمكن أن يؤدي شهادة العيان غيرهم .

سد الذرائع :

حكم مالك قاعدة سد الذرائع في أكثر أبواب الفقه . لأن الذريعة في حقيقتها توسل بما هو « مصلحة » إلى مفسدة . وهذه القاعدة في جملتها منع أمر مباح لما يترتب على فعله من مفسدة . أي جعل الوسيلة التي تؤدي إلى ممنوع ممنوعة . ولذلك يسمى سداً للذريعة . مثل قوله تعالى : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) . ومثل منع النبي المتصدق عن شراء صدقته ونهيه عن قطع يد السارق في الغزو .

والرسول يقول لأم المؤمنين عائشة: «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم بنيت على أساس إبراهيم» وسيتبعه في ذلك مالك عندما يستفتيه الرشيد في معالجة منبر الرسول .

ولما منع الصحابة أبا بكر من التحرف والتجارة . حتى يتفرغ لشئون الخلافة كانوا يتوسلون إلى مصلحة . ويدفعون مفسدة . ويسدون ذريعة مؤدية لشغله عن واجب الخلافة .

وكثر قول مالك بهذا الأصل عن غيره . يقول القرافي ، وهو من أئمة المالكية : فليس سد الذرائع خاصاً بمالك رحمه الله بل قال بها هو أكثر من غيره . وأصل سدها مجمع عايه .

وعلى أساس سد الذريعة بنى كثير من الأحكام . مثل المنع من بيع السلاح وقت الفتنة أو للعدو أو لإباحة أخذ الهدية لمن يلي وظيفة عامة . أو شهادة عدو على عدوه . أو تقديم خصم في مجلس القضاء على خصمه . أو قضاء القاضي بعلمه أو الزواج من الأجنبية . أو خروج النساء إلى المسجد في الليل .

ومذهب مالك واضح في إباحة تحديد الأسعار على التجار وفي الإبقاء على الإمام المفضل مع وجود الأفضل منه حقناً للدماء .

وكتحديد الأسعار تنظيم الاستهلاك . من باب سد الذرائع .

وهذا قابل للتغيير بتغيير سببه لأنه منع مباح .

ولا يصحح مالك العقد بمجرد صحة شكله لو كان غرضه محظوراً ، كمثل بيع السلاح إذا عرف البائع أنه سيعطى لأهل الفتنة أو العدو ، وكمثل بيع العصير ممن يتخذه خمرًا ، أو الإجارة على حمل الخمر لمن يشربها . أو إجارة الدار لمن يتخذها نادياً للقمار . يقول الشاطبي : « كل من ابتغى في تكايف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة . ومن ناقضها فعمله في المناقضة باطل » ؛ فمالك لا يأخذ بالإرادة الظاهرة فيصحح بها إرادة باطنة .

ومن هذا النوع زواج المحلل . يتزوج رجل — وسيط — المرأة ليحلها لزوجها

الأول بعد طلاقها ثلاثاً — فهذا غرض غير مشروع يفسد به العقد عند مالك ويعاقب الزوجان عليه ويعاقب الشهود إن علموا .

أما الشافعي فيبيحه دون بحث عن النية . فالظاهر أمامه عقد صحيح . ويبطله إذا حوى شرط العودة فهذا نص صريح يوضح الغاية من العقد وهي باطلة . وأما أبو حنيفة فيبيحه وإن نص فيه على أنه عقد لتحليل المرأة لزوجها الأول . فأمامه عقد صحيح معه شرط فاسد لا يفسد الزواج وأبويوسف يراه فاسداً . ومحمد يرى العقد صحيحاً ولا ترجع الزوجة إلى زوجها أى يلزم به المحلل .

وفى الوقت ذاته يحل مالك — للمصلحة — الوسيلة غير المنهى عنها من جهة الأصل — فالمنهى عنها من جهة الأصل محرمة بذاتها — أما غير المنهى عنها فتباح إذا أدت إلى مصلحة مثل دفع المال لمحارب حتى لا يقتل دافع المال . فدفع المال وسيلة إلى معصية هي أكل المال بالباطل . لكنه يؤدي إلى مصلحة .

* * *

وعلى أساس التعاون بين الجماعة وسد الطريق إلى المضارة بنى كثير من الفقه . منع عمر أكل اللحوم يومين متتاليين من كل أسبوع . عندما قلت حتى أصبحت لا تكفى المدينة . وراقب ذلك بنفسه فكان يذهب إلى مجزة الزبير ابن العوام ولم يكن بالمدينة سواها . وكان يضرب بالدرة من يخرج على هذا المنع ويقول له : « هلا طويت بطنك يومين ! ! » ، ومنع الفقهاء الاحتكار . وسوء الجوار . وسوء استعمال الحق بتجاوزه حدوده .

فصدر الحقوق كلها هو الله الذى منحها وشرع الوسائل لحمايتها وبين طرائق استعمالها ووجوه الانتفاع بها فى حدود مقاصد الشارع . ومن المحال أن يشرع للناس ما يضرهم . قال الرسول عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » فاستعمال الحقوق مقيد ابتداء بعدم الإضرار بالجماعة : فإذا أحدث ضرراً فاحشاً بالغير منع . درءاً لأشد الضررين .

وفى ذلك سارت الشريعة إلى أبعد مدى . والشرائع المعاصرة تحاول أن تبلغ شأوها .

والحق يستعمل استعمالاً سيئاً: إذا لم يقصد باستعماله إلا الإضرار بالغير .
أو إذا تعارض مع مصلحة عامة . أو حقق مصلحة قليلة الأهمية لصاحب الحق
لا تتناسب ألينة مع مصلحة الغير . أو أصاب الغير ضرر عظيم محتمل غير نادر
الوقوع . وإذا كان باستطاعة صاحب الحق بلوغ غرضه . بطريق آخر لا يحدث
ضرراً فاحشاً بالغير . ومالك سباق في كل أولئك . آخذ بأداب الإسلام ومعانيها
التي تجعل المسلمين كالجسد الواحد .

ويقول الشاطبي في ذلك : « الشريعة مبنية على الاحتياط والأخذ بالحزم .
والتحرز عما عسى أن يكون طريقاً لمفسدة » ...

العرف :

نهى النبي عليه السلام عن أشياء ثم استثنى موضع العادة وخصص فيه .
مثل نهيه عن بيع ما ليس عند الإنسان ثم ترخيصه في بيع السلم . إذ كان من
عرف المدينة أن يسلفوا في الثمار فنظمه لهم بقوله : « من أسلف فليسلف في كيل
معلوم . ووزن معلوم إلى أجل معلوم » .

والقرافي - المالكي - يقول : « كل ما في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم
فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة .. وليس تجديداً من المجتهدين
حتى تشترط فيه أهلية الاجتهاد . بل هذه قاعدة اجتهاد العلماء فيها وأجمعوا عليها ؛
فنحن نثبتهم فيها من غير استئناف اجتهاد » ويقول : « فلهما تجديد العرف اعتبره .
ومهما سقط أسقطه . ولاد تجمد على المسطور في الكتب طول عمره . بل إذا
جاءك أحد من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك وأسأله عن
عرف بلده وأجره عليه . وأفته به دون عرف بلدك ، والمقرر في كتبك ، فهذا هو الحق
الواضح والحمود على المنقولات . أبداً ضلال في الدين . وجهل لمقاصد علماء
المسلمين والسلف الماضين » ...

أمَّا العرف الذي يخالف الشريعة . من أي وجه . فعرف فاسد كشراب الخمر
والزنا وما يبعث النساء الفاضحة ..

ويشترط السرخسى فى المبسوط أن يكون المجتهد مصيباً فى القياس علماً بعرف الناس . فالعرف شرط للاجتهاد ذاته .

ولقد أقر الشارع كثيراً من أعراف الجاهلية بعد أن نظمها فى الطراز الإسلامى كالبيوع والإجارة والزواج والقصاص والديات على عاقلة القاتل فقيل : العادة محكمة والمعروف عرفاً كالشروط شرطاً والثابت بالعرف كالثابت بالنص واختلفت الأقضية عند الناس باختلاف الأعراف والظروف والعصور وهو ما يقال عنه اختلاف زمان ومكان لا اختلاف حجة وبرهان .

وكان القضاة يتجارون مع الأحداث فى الأقضية . روى ابن سعد أن أبا البختري جاء شريحاً فقال له : ما الذى أحدثت فى القضاء ؟ فقال شريح : إن الناس أحدثوا فأحدثت .

واختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد ليس فى الحقيقة باختلاف فى أصل الخطاب . لأن الشرع موضوع على أنه أبدى دأماً . وإنما معنى الخلاف أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى أصل شرعى يحكم به عليها . كالحكم بعد الدخول بأن القول قول الزوج فى دفع الصداق بناء على العادة، وبأن القول قول الزوجة بعد الدخول أيضاً بناء على نسخ تلك العادة . فالحكم جرى مجرى العادة فى الأولى والثانية .

ومن أمثلة تغير الزمان قبض الأجرة الآن على تعليم القرآن والإمامة والأذان وقدماً كان اللون الأسود مذموماً فى عهد أبى حنيفة فى أيام بنى أمية، فرأى أن صبغ ثوب باللون الأسود ينقص قيمته . فلما صار السواد شعار دولة بنى العباس رأى صاحباً أبى حنيفة أن صبغ الثوب باللون الأسود يزيد قيمته .

والشاطبي يقرر فى الموافقات أن كشف الرأس قبيح لذوى المروءات فى بلدان المشرق فىكون قادحاً فى العدالة وغير قبيح فى بلدان المغرب ، وهذا يتغير .

ومالك يأخذ بالعرف فى مقابل الدليل العام . كمثله ما يرد الأيمان للعرف . فلو حلف امرؤ لا يدخل بيتاً فإن القياس يقتضى الحنث بالدخول فى كل ما يسمى

بيتاً ولو كان مسجداً . لكن مالكاً يخصص العموم الاستفادة من اللغة بالعرف والعادة المستعملة ، لأن الناس لا تعتبر المسجد بيتاً فلا يرد عليه اليمين .

ويترك المالكية القياس إذا خالفه العرف . والعرف عندهم يقيد المطلق ويخصص العام . وهم يرون فيه ضرباً من ضروب المصلحة . وأجاز المالكية على أساس العرف دخول الحمام دون تقدير الأجرة أو المدة أو الماء المستعمل إذ الناس قد تعارفوا ذلك .

وإذ كان نبي الغرر جملةً ، في العقود غير مقدور عليه ، فقد أجاز مالك أن يستأجر الأجير بطعامه . إذ قد تعارف على ذلك الناس . والغرر فيه يسير . كذلك الغرر في الأجل عنده يسير ، لكنه في الثمن لا يكون يسيراً . فقال متابعاً لعرف الناس : يجوز شراء السلعة إلى الحصاد ، وبعدم جواز بيع سلعة « بما يقارب » الدرهم .

وقال تعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن) . وأفتى مالك بأن الشريعة التي تنصّر بالإرضاع لا يجب عليها الإرضاع معتمداً العرف كتفسير لعقد الزواج . قال قوم إن مالكاً خصص النص بالمصلحة . وقال آخرون إنها مصلحة كمالية . أو حاجية لا تصل إلى مرتبة الضرورة . لأنها المحافظة على الحمل أو دفع أذى التعبير . وقال آخرون إنها مخالفة للنص (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) وخرج البعض من هذا أن مالكاً يقدم رعاية المصلحة على نصوص الكتاب والسنة !

والملاحظة الأولى على هذه الأقوال هي أن ما يزعمونه مصلحة هو مصلحة غريبة غير ملائمة لقصد الشارع الإسلامي ، فالناس سواسية في الإسلام ، سواء أصحاب الجمال أو أصحاب الكبرياء . ولا تمييز بين الشريفة والمشروفة يسقط الحقوق أو يعنى من الواجبات .

والحق أن مالكاً يفتى في حدود عرف المدينة في عهده . وقبل عهده . وكان العرف يقضى بأن الإرضاع ومعالجة الأطفال والخدمة في المنزل لا يلزم الشريعة . فإن قامت به فلها الأجر عليه . وأما غيرها فإن قامت به فلا أجر لها . فحكم

مالك هذا العرف في عقد هو عقد الزواج وفي أمر مالي هو الأجر المستحق^(١)
 وذهب المالكية والحنابلة والمتأخرون من الحنفية إلى تقييد الجار بألا يضر
 جاره ضرراً بيناً غير معتاد . والاعتقاد مرجعه إلى أعراف البلاد . فهذا نتيجة
 قاعدة لا ضرر ولا ضرار .

وأبو حنيفة : يرى عدم تقييد المالك في ما يملكه . من أجل جاره . يفتح ما يشاء
 من نوافذ أطلت على الجار أو لم تغل . ويعلى بناءه كما يشاء . ويحول داره إلى
 مصنع أو متجر وإلى هذا ذهب الشافعي ، وأحمد في بعض الروايات .
 وجوز مالك البيع بالمعاطاة تبعاً للعرف الذي يجري عليه الناس بالأفعال
 دون الأقوال . وزاد مالك على ذلك قال : « كل ما عده الناس بيعاً فهو بيع » ،

(١) وقوله تعالى : (والوالدات يرضعن) لا يؤدي إلى وجوب الإرضاع على الكل دون استثناء
 بعضهم . ومن المفسرين - الطبري - من يقول إن الآية تقصد أجل الرضاع (حولين) والشيرازي لا يرى
 إيجاباً لقوله تعالى : (فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن) ولو وجب الإرضاع ما استحققت أجراً .
 وقوله تعالى (وإن تغاسرتم فسترضعن له أخرى) مؤداه أن الإرضاع على سبيل الندب . وابن كثير يراه
 إرشاداً وقال - الجصاص - إنه يراد به إثبات حق الرضاع للأم وتقرير النفقة عنه على الأب . وقال
 آخرون هو على الأم عند موت الأب أو إذا لم يقبل غيرها أو في حال الزوجية . وقال ابن حبان في البحر
 المحيط : فوجوب الإرضاع إنما هو على الأب . لا على الأم . وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت
 الأم بإرضاعه وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه فإذا لم يقبل غيرها أو يوجد له ظئر وعجز الأب
 عن الاستئجار وجب عليها إرضاعه فعل هذا يكون الأمر للوجوب في بعض الوالدات .
 ومذهب مالك « أنه - أي الإرضاع - حق على الزوجة لأنه كالشرط إلا أن تكون شريفة ذات
 نسب فعرفها ألا ترضع » والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً .

وفقهاء المالكية يقولون مقالة ابن رشد - الحفيد - « وأما من فرق بين الدنيئة والشريفة . فاعتبر في
 ذلك العرف والمادة » ويقول ابن رشد « الجدة » ويستحب للأم أن ترضع ولدها فإنه روى أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم قال : « ليس لبن يرضع به الصبي أعظم بركة عليه من لبن أمه » .
 وفي المدونة « وسألت مالكا عن المرأة ذات الزوج أيلزمها رضاع ابنها ؟ قال نعم . يلزمها إرضاع
 ابنها . على ما أحببت أو كرهت . إلا أن تكون ممن لا تكلف ذلك قلت لمالك ومن أتى لا تكلف ذلك ؟
 قال : المرأة ذات الشرف واليسار . التي ليس « مثلها » ترضع وتعالج الصبيان فأرى ذلك على أيه وإن
 كان لها لبن » .

فقوله إلا « التي ليس مثلها ترضع » معناه أن العرف يجعل للبعض شأناً دون بعض آخر .

والكلام والإشارة والكتابة التي تنعقد بها العقود ما هي إلا أفعال في حقيقتها . وإن كان العقد لا يكون ملزماً حتى يوجد القبض من الجانب الآخر فيلزم العقد . ومن هذا النوع ما تعارفه الناس من شراء الأطعمة المعروضة وغيرها . . يدفعون الثمن . ويأخذون دون مقاولات .

وينخضع للعرف عند مالك . خيار الشرط وهو أن يشترط العاقد لنفسه الحق في إمضاء العقد أو فسخه في مدة معلومة . وأصله أن حبان بن منقذ كان يغبن في البياعات فطالب أهله إلى الرسول أن يحجر عليه فيمنعه من البيع والشراء . لكنه عاين السلام قال : « إذا بايعت فقل . لا خلافة ولي الخيار ثلاثة أيام » . والنص صريح في المدة ووجوب الاشتراط .

فأبو حنيفة والشافعي يجعلانها ثلاثة أيام والخيار عندهما لا يثبت إلا بالشرط . لكن مالكا يرى أن المدة تخالف باختلاف الساع . فلا تقيد بالأيام الثلاثة بل ترجع إلى كل سلعة وظروفها لأن الخيار مشروع للتروى حتى سمي خيار التروية . ثم هو يذهب إلى أن الخيار يثبت بالشرط ويثبت بالعادة والعرف . بمعنى أن العادة إذا جرت بثبوت الخيار في سلعة من السلع ثبت الخيار فيها من غير شرط .

وإذا لم يعمل أهل المدينة بخيار المجلس ، لم يثبت لمالك حديث ابن عمر عنه . روى ابن عمر عن الرسول « البيعان كل واحد منهما على صاحبه بالخيار . ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار » . وقال عنه مالك في الموطأ رواية يحيى : ليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به أي لم يعلم له حد . ولا عمل به . ولعملهم بالمدينة كل القوة في أصوله (١) .

(١) هو يرى أن البيع كلام . فإذا أوجبا البيع بالكلام وجب البيع ولم يكن لأحدهما أن يمتنع بما قد لزمه . . . وكما يقول أشهب تلميذ مالك . الذي اجتمع عليه أهل العلم من أهل الحجاز أن البيعين إذا أوجبا بينهما فقد لزم ولا خيار لواحد منهما إلا أن يكون أحدهما اشترط الخيار فيكون ذلك لمشترط الخيار على صاحبه وليس العمل على الحديث الذي جاء « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » قال أشهب : ونرى أنه منسوخ بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلمون عند شروطهم » ولقوله « إذا اختلف البيعان استخلف البائع » فلو كان الخيار بينهما ما كلف البائع باليمين .

الغرر :

وأكثر أسباب فساد العقود في الفقه ترجع إلى الغرر . وهو مجال جد فسيح لتطبيقات العرف وحاجات الناس . يقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) ويقول : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) . فكل تعامل واجب وفاؤه وكل تجارة أكل فيها أموال الغير بالباطل حرام . والنبي نهى عن الغرر نهياً صريحاً فالشارع الإسلامي يريد عقوداً جادة يتقابل فيها الأداءات دون مجازفة بما لا علم به للمتعاقدين . وفي حين تسوغ القوانين الوضعية أكثر العقود الاحتمالية ، تجعل الشريعة الإسلامية الغرر قيداً على قيام التعاقد فترتفع بالمجتمع إلى أعلى مستوى خاتمي في المعاملات .

روى مالك وابن جريج والليث بن سعد ويحيى بن سعيد وغيرهم عن نافع عن ابن عمر « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » والشافعي رضى الله عنه يقول : « لا أدري هل أتهم مالك نفسه أو نافعاً وأعظم أن أقول ابن عمر » ! بل كان ابن أبي ذئب يقول يستتاب مالك في تركه لهذا الحديث .

ويحتج آخرون له بأقوال منها أن الخيار يكون قبل إبرام العقد في إبرامه أو تركه . وأن من التفرق التفرق بالقول لا بالأبدان

ويقول آخرون : إن البيعين هما المتشاعلان بالبيع المتراضان فيه . فإذا تم العقد بينهما صارا متعاقدين فهما بالخيار قبل العقد لا بعده .

وكان عمر نفسه يقول : « البيع صفقة أو خيار » فالبيع الذي لا يشترط فيه الخيار يتم صفقة لتقصير مدة الخيار فيه . أما الذي يشترط فيه الخيار فذلك بيع بشرط .

وجاء في الموطأ رواية محمد :

أخبرنا نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا . إلا بيع الخيار » قال محمد وبهذا نأخذ « وتفسيره عندنا على ما بلغنا عن إبراهيم النخعي أنه قال : المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا . قال ما لم يتفرقا عن منطلق البيع إذا قال البائع قد بعثك فله أن يرجع ما لم يقل الآخر قد اشتريت . وإذا قال المشتري قد اشتريت بكذا وكذا فله أن يرجع ما لم يقل البائع قد بعث . وهو قول أبي حنيفة والعمامة من فقهاءنا » وفي هامشه تعليق يقول قال مالك في رواية يحيى وليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به .

قال ابن عبد البر وهو - مالكي - أجمع العلماء على ثبوت هذا الحديث . وقال به أكثرهم ورده مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . ونوزع مالك في إجماع أهل المدينة على رد هذا الحديث .

وتجعل الدين من ضوابطها^(١) أما القوانين الوضعية فالأصل فيها إطلاق التعاقد بغرر اللهم إلا بعض استثناءات منصوص عايتها مثل بيع الحقوق في تركة إنسان على قيد الحياة ولو برضاه ومثل المقامرة والرهان .

وتحريم المجازفة بتحريم لاستغلال الإنسان للإنسان لحاجته أو ضعفه أو فساد رأيه أو طمعه أو مقامرته والتحريم وتوسيع مدى التحريم دلالتان على أن الشارع الحكيم ينشر على عباده جناح الرحمة . فينتدhem من قسوة الغير ون أنفسهم .

والغرر في الفقه الأمر المجهول العاقبة أو ما خفيت عاقبته وطويت مغيبته . والمتعاقد إذ يجهل عاقبته المستورة عنه لا يكون مجرد مخدوع فالخداع عيب يفسخ لأجله التصرف . أما الغرر فلا ينعقد به التصرف أصلاً . فإذا نقلنا تعريف فقهاء القانون الوضعي للعقود الاحتمالية التي يسميها القانون الوضعي عقود الغرر ، وهو أنها عقود لا يستطيع كل من العاقدين فيها أن يحدد في وقت تمام العقد القدر الذي أخذ أو القدر الذي أعطى . فإننا ندرك مقدار ما تتسع دائرة الغرر ، في الفقه الإسلامي ، فتضبط المعاملات عند الناس ، فيكون الكل على بينة مما أعطى صاحب العقد أو أخذ . وهو مكاف ديناً بالوفاء به .

ويمتاز الفقه المالكي بالتوسع في الحديث عن الغرر وحسبنا مثلاً على ذلك تقسيمات الغرر من حيث الجهالة عند الفياصوف الإسلامي والعالم المالكي ابن رشد في «بداية المجتهد» على أرجح : في المعقود عليه ، وفي العقد ، وفي الثمن والمثمن . ثم يستطرد للتفصيل فيقول إن من البيوع التي توجد فيها هذه الضروب من الغرر

(١) عن زيد بن ثابت . كان الناس في عهد الرسول عليه السلام يتبايعون الثمار فإذا جذ الناس وحضر تقاضيه قال المبتاع إنه أصاب التمر اللسان . أصابه مراض . أصابه قشام ، عاهات يحتجون بها . فقال لما كثرت عنده الحصومة في ذلك . فإمالة - فلا تتبايعوا حتى يبدو صلاح التمر . كالمشورة يشير بها لكثرة خصوصتهم . . . ولم يكن زيد يبيع ثمار أرضه حتى يتبين الأصفر من الأحمر (اللمان فساد الطلع والمراض الأمراض . والقشام أن ينتقص التمر قبل أن يصير بلحا . فإمالة لا . فإن كان لا .

بيوعاً منطوقاً بها وبيوعاً مسكوتاً عنها ، ويضرب الأمثال للمنطوق بها ثلاثة عشر بيعاً كبيراً ما لم يخفق وبيع الثمار حتى تزهى وبيع السنبل حتى يبيض والغنم حتى يسود . كما يضرب الأمثال للمسكوت عنها ثلاثة عشر بيعاً أخرى كبيراً الخزاف . وبيع السمك في الغدير وبيع الغائب .

وتحدث مالك عن الغرر في الموطأ تحت أبواب البيوع والتجارات والسلم في واحد وثلاثين باباً . . . وهذا التفصيل آية على خطر الموضوع عنده واتساع تطبيقاته .

وجوز مالك كراء الأرض بأجر معلوم أما المزارعة ففيها عنده غرر . قال : فأما الرجل يعطى أرضه البيضاء بالثلث والربع مما يخرج منها فذلك مما يدخله الغرر ؛ لأن الزرع يقل مرة وربما هلك رأساً فيكون صاحب الأرض قد ترك كراء معلوماً يصلح أن يكرى أرضه به وأخذ أمراً غرراً لا يدرى أيتم أو لا . . . فهذا مكروه وإنما مثل ذلك رجل استأجر أجيراً لسفر بشيء معلوم وقال الذي استأجر الأجير هل لك أن أعطيك عشر ما أربح في سفرى هذا إجارة لك ؟ فهذا لا يحل ولا ينبغي . . .

هذا مع أن الإجارة ، وقد جوزها ، قد لا تعطى منافع . ومع أن الناس كانوا يتعاطون المزارعة لحاجتهم إليها ! وكهينة مالك لم يجوز أبو حنيفة المزارعة . وكمثل الجمهور جوزها بعده صاحباه ^(١) .

وجوز مالك الإجارة على المنفعة المظنون حصولها كالوعد بجائزة يبذله الإمام

(١) قال أبو يوسف : إذا أعطى الرجل أرضاً مزارعة بالنصف أو بالثلث أو الربع فإن أبا حنيفة يقول : هذا كله باطل . . لأنه استأجر بشيء مجهول . أرأيت لو لم يخرج من ذلك شيء ؟ أليس كان عمله ذلك بغير أجر ؟ وكان ابن أبي ليلى يقول : ذلك كله جائز . بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أعطى خيبر بالنصف فكانت كذلك حتى قبض وخلافة أبي بكر رضى الله عنه وعامة خلافة عمر وبه نأخذ وإنما قياس هذا عندنا مع الأثر . ألا ترى الرجل يعطى الرجل مالا مضاربة بالنصف ولا بأس بذلك وقد بلغنا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعن عبد الله بن مسعود وعن عثمان ابن عفان رضى الله عنهما . . أنهم أعطوا مالا مضاربة ، وبلغنا عن سعد بن أبي وقاص وعن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يعطيان أرضهما بالربع والثلث .

لمن يدلّه على ما فيه مصلحة عامة، وكالإجارة على البلاغ. وهو اصطلاح للمالكية في بلوغ النتيجة كما يقول الفقهاء الغربيون. كبرء المريض وحفظ القرآن واستنباط الماء.

والمضاربة من الضرب في الأرض للتجارة - شركة يدفع فيها صاحب مال ماله إلى الغير ليتجربه والربح بينهما حسبما يتفقان. ويسمى أهل الحجاز القراض والمقارضة. ويقول ابن رشد: إنما رخص في المضاربة لموضع الرفق بالناس ووجه صحتها أن الدنانير فيها لا تزكو إلا بالعمل. فالمضاربة مشاركة كما يقول ابن تيمية يشارك فيها العامل بنفع عماله وصاحب المال بنفع ماله وما قسم الله بينهما من الربح على الإشاعة.

* * *

وإذ شرعت العقود لحاجة الناس وما جعل الله عليهم في الدين من حرج - فقد شرط الفقهاء لتأثير الغرر في العقود شرطاً عملياً حقاً: هو ألا يكون الناس بحاجة إلى ذلك النوع من العقود. فعقد السلم تدعو إليه الحاجة لأن المزارع قد يحتاج للمال لإصلاح أرضه وزرعه إلى أن يدرك وقد لا يجد من يقرضه ومن أجل ذلك أبيع السام. والحاجة دون الضرورة، بل إن الضرورة هي خوف الهلاك لا الهلاك نفسه. وعلى ذلك يعرف السيوطي الحاجة تعريف اليسر الإسلامي في كتابه الأشباه والنظائر فيقول: «هي أن يصل المرء إلى حالة بحيث لو لم يتناول الممنوع يكون في جهد ومشقة. ولكنه لا يهلك». .

ويقول مقولة تدل على اقتدار الفقه على التطاور «القياس يقتضي منع الإجارة. لأنها عقد يرد على منافع معدومة. وإنما شرعت لعموم الحاجة إليها. والحاجة إذا عمت كانت كالضرورة»..

ويقول ابن تيمية: «ومفسدة الغرر أنل من الربا. فلذلك رخص فيما تدعو إليه الحاجة منه فإن تحريمه أشد ضرراً من كونه غرراً مثل بيع العقار جملة. وإن لم يعلم دواخل الحيطان».

البَابُ السَّادِسُ

إمام المدينة والسلطان

« إذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق »
« العلم فاذا ذكر ذلك ، مع طاعتك »
« إياه ، فإن يده أقوى من يدك »
« أبو حنيفة »

كانت المدينة مصدر الخطر على خلفاء الدولتين الأموية والعباسية . ومنها خرج على الخلافة آل البيت من أبناء علي رضي الله تعالى عنهم . وكان رضاها أملاً لأولى الأمر . ورضي إمامها أول الأمل . وفقه مالك فقه الحياض في الفتن . وطاعة ولي الأمر — وكان مالك أموي الهوى لأكثر من سبب . فلما غلبت الدولة العباسية على الأمر ، توسل به أبو جعفر إلى المدينة وإلى الأمة . ومع ذلك لم يسلم مالك من أذى أميره على المدينة وابن عمه . ولم ينقطع الخلفاء عن الجلوس إلى مالك هم وأولياء عهدهم على ما سنين في الفصاين التاليين .

الفصل الأول

طاعة الإمام

جاءت الدولة العباسية وليدة تطور مكنت له انتصارات الجند الوافد من خراسان لنصرة الرضى من أهل البيت ، فلما نصرهم الله ولى قائدهم أبو مسلم الخراساني الأمور وجهة عباسية ، فبايع أبا العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وأخات دمشق المكان للكوفة . واستبدل أهل المدينة قسوة تستغلظ وتتأجج بقسوة كانت قد فترت . . وأنزلت الدولة الجديدة صعقاتها ببني أمية . فلم يكذب أبو العباس أملاً للشاعر سديف عندما ناداه .

ارفع السيف وامنع العفو حتى لا ترى فوق وجهها أمويًا

استأمنه سليمان بن هشام بن عبد الملك وابناه في نحو ثمانين رجلاً من بني أمية . فأمنهم . ثم أعمل السيوف فيهم . فقتلوا جميعاً ! وقتل عبد الله ابن علي عدة آلاف ، منهم من قتلوا وهم يطعمون طعامهم ! وهرب من المذبحة غلام لمعاوية بن هشام اسمه عبد الرحمن ، فوصل في مهربه إلى الأندلس فملكه أهلها فقامت دولة كبرى لبني أمية ، تقدم في عواصمها وبخاصة قرطبة . حضارة الإسلام لكل أوربة . وتبذر بذور نهضة أوربة في الحضارة المعاصرة . وتجعل مذهب مالك المذهب الوحيد الذي تعترف دول الأندلس به في كل تاريخها . وتؤدي له العون ، من كل وجه ، برجالها ووسائلها ، حتى غربت شمس العرب من أسبانيا . وبقيت فيها حضارتهم .

وكانت البطشات في دمشق والشام تحدث الأصدقاء في كل الأرجاء . فتتلاقى في دار الهجرة التي تصدر عنها تعاليم السنة وأولها التسامح والعفو وتفقد إليها الأنبياء دُفْقاً مع القوافل ، أو في المؤتمر العام الذي يعقده المسلمون في موسم الحج كل عام .

ولقبت الأمة الخليفة الجديد بالسفاح ونعتت بذلك عمه عبد الله بن علي .

استدعى عبد الله بن علي الأوزاعي إمام الشام (١٥٧) وعبد الله في جنده
شاكي السلاح فتحاورا حوار الفقه والبطش بين الحديد والدم .

قال : ما تقول في دم بني أمية ؟

قال : قد كانت بينك وبينهم عهود . وكان ينبغي أن تفوا بها .

قال عبد الله : ويحك . اجعلني وإياهم لا عهد بيننا . ويقول الأوزاعي .
« فأجهشت نفسي . وكرهت القتل . فذكرت مقامى بين يدي الله . فلفظتها
« دماؤهم عليك حرام » فغضب وانتفخت عيناه وأوداجه .

فقال : ويحك لم ؟

قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى
ثلاث . ثيب زان . ونفس بنفس . وتارك لدينه » .

قال : ويحك : أوليس الأمر لنا ديانة ؟

أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى ؟
قلت لو أوصى إليه ما حكم الحكمين .

فسكت . وقد اجتمع غضباً وجعلت أنوقع رأسي يسقط بين يدي فقال . . .
أخرجوه ؛ فخرجت .

كان أبو جعفر أخا السفاح الأكبر . لكن أمه لم تكن عربية ، فولى السفاح
الخليفة ، وعمل المنصور لأخيه في سباق البطش بإخلاص ! أعطى أماناً ليزيد
ابن هبيرة الوالي السابق لبني أمية فلما استسلم لم يابث أن قتله بأمر أبي العباس !
وأسرعت المنية بالسفاح إلى باريته يوفيه حسابه . فتولى المنصور نيافاً وعشرين عاماً
وضع فيها أساس الدولة الجديدة وشاد بغداد .

ودارت دائرة السوء على عبد الله فخرج على أبي جعفر فحبس ليخر عليه
البيت ويقتل .

ودارت دائرة أبي جعفر على قائده المظفر ، أبي مسلم الخراساني بعد أن
أمنه ، فقتله ! !

وخرج عيسى بن زيد « بن علي بن الحسين » فقتل بين الكوفة وبغداد .

* * *

أدرك أبو جعفر « المنصور » غايان مراحيل المدينة . وقصد إليها في موسم الحج سنة ١٤٤ . فلم يأتته محمد بن عبد الله بن . الحسن بن علي الذي سمته الأمة بالنفس الزكية . ولم يأت أخوه إبراهيم . فوضع عليهما العيون فأعجزاه هربا . فبعث إلى أبيهما مالك بن أنس واحداً من سفيرين طالبيين أن يسلم محمداً وإبراهيم وكان سودان المدينة قد ثاروا في شوال سنة ١٤٤ لما ينزله الولاة بالمدينة من قسوة . وهرب الوالى وترضاهم . واليهم . الذين ثاروا لهم . مخافة النقمة المنتظرة من أبي جعفر .

ولم تفلح سفارة مالك عند عبد الله بن الحسن بل هو رفض مبدأ المفاوضة مع السفراء قال : لا . والله لا أرد عليكما حرفاً . إن أحب أن يأذن لي فألقاه فليفعل .

ورفض اللقاء أبو جعفر . فاقد كانت في عنقه بيعة لمحمد .

في أواخر أيام بني أمية . اجتمع إبراهيم بن محمد بن علي وأبو جعفر . وصالح بن علي ، ممثلين لبني العباس . مع عبد الله بن الحسن وابنيه محمد وإبراهيم ممثلين لبني علي ، ليختاروا من يبايعون . فبايعوا محمداً . وأبو جعفر يومئذ أشد الناس حماساً ، وكان يلبس قباء أصفر . يوم ذاك . فلقبه الناس صاحب القباء الأصفر . وحج مع محمد . وتقدم بمسك ركابه ويقول : هذا مهدينا أهل البيت .

ولما ولى السفاح قرّب عبد الله بن الحسن ودعاه إلى الكوفة . أما أبو جعفر فكانت في عنقه بيعة فنقضها . وحبس عبد الله وبقية أهله في بيت وطين عليهم ليموتوا بداخله بعد .

خرج محمد النفس الزكية في رجب سنة ١٤٥ من المدينة على أبي جعفر . وتبعه أعيان المدينة . وعزل عنها عثمان بن رباح أميرها من قبل المنصور . وشده . وفتح أبواب السجون . وعين على المدينة عاملاً وقاضياً . وخرج معه ابن هرمز

وهو شيخ هرم . قيل له : والله ما فيك شيء ! قال ، على ما يروى عنه تأحيذه مالك : قد علمت ولكن يرانى جاهل فيقتدى بي .

وكتب أبو جعفر إلى محمد يقول : « ولك على عهد الله وميثاقه وذمة الله وذمة رسوله . إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وأسوئك ما أصبت من دم ومال وما سألت من الحوائج . . . وأطلق من في حبسى من أهل بيتك » . وكتب إليه محمد : « وأنا أعرض عليك من الأمان مثلما عرضت على . فإن الحق حقنا . . وأنا أولى بالأمر منك وأرفى بالعهد . لأنك أعطيتني من الأمان والعهد ما أعطيت رجلاً قبلى . فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة . أو أمان عمك عبد الله . أو أمان أبى مسلم ؟ »

ونخرج إبراهيم أخو محمد فاستولى على البصرة . ومادت الأرض تحت أقدام أبى جعفر . لكن النصر حالف أعلامه . فقتل محمد فى ١٤ رمضان سنة ١٤٥ وأرسل المنصور رأسه إلى المدينة يطاف بها على طبق . وقتل إبراهيم عند باخرى فى ذى القعدة . فقال شعبة بن الحجاج — الملقب بأمر المؤمنين فى الحديث — عن وقعة باخرى : والله لهى عندى بدر الصغرى . وجىء بابن هرمز إلى عيسى بن موسى قائد الجيوش المنتصرة فقال له : يا شيخ — أما وزعك فقهك عن الخروج ؟ قال : كانت فتنة شملت الناس فشلتنا . . . فعفا عنه .

ورجع إلى المدينة مائة من المهزمين فقتلوا وإليها الذى أوثقه محمد . واشتعلت نيران الكراهية فى أهلها . . سألت امرأة عن أخيها الذى لم يرجع من هذه الحرب ، فقيل لها : قتل . فخزت ساجدة . قيل : أتسجدين أن قتل أخوك ؟ قالت : أليس لم يفر ولم يؤسر ؟ وألبس أبو جعفر المدينة لباس الجوع والفرع . فأمر بالبحر فأقفل عابهم . فلم يحمل عليهم من ناحية البحار شيء من التجارة أو الطعام . حتى كان المهدي ففتح وأذن بالحمل إليهم . فكان قوت المدينة قبل ذلك يجيئها من الصحراء .

واستحكمت بينها وبين أبى جعفر أزمة الثقة . فقاربها مقارنة سياسية بتولية الحسن بن زيد بن الحسن بن على عليها راح يقاربها مقارنة علمية ،

وسياسية معاً . عند مالك بن أنس ، سفيره السابق للسلام .

* * *

لكن ريب الليالى كان لمالك بالمرصاد ، فلم يكن من طبائع الأمور أن تمر به الأحداث كلمى . دون أن يصيبه منها أذى ، ولو يسير ، أو أزمة مع الدولة . ولو محلية . والحلقة عاملة ناصبة لا تكف عن القيام بدورها في التحديث بحديث الرسول وسننه . فرفع الوشاة عنها إلى والى المدينة جعفر بن سليمان « ابن عم أبى جعفر المنصور » أن شيخها لا يرى أيمان بيعتكم بشيء — لأنه يحدث بحديث « طلاق المكره لا يجوز » .

ودس الوالى إلى الحلقة من يسأل الشيخ في مجلس الدرس فحدث على رءوس الأشهاد أن « رفع عن أمى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . وأن « ليس على مكره يمين » وهو أصل من الأصول لا يتزعزع واقرنت الفتوى في الأذهان بخروج محمد وإبراهيم ونقض الناس بيعتهم لأبى جعفر .

روى الطبرى عن الواقعة « أن مالك بن أنس استفتى في الخروج مع محمد ابن عبد الله بن الحسن وقيل له إن في أعناقنا بيعة لأبى جعفر فقال : ” إنما بايعتم مكرهين . وليس على مكره يمين “ . فأسرع الناس إلى محمد ولزم مالك بيته » . وأمسى سهلاً على الكارهين لمالك أن يدسوا . وعلى الخائفين من أبى جعفر أن يتوهموا . وعلى الأمير الوافد من الميدان . تراقص في خياله رؤى الحرب . مع محمد وإبراهيم ، وكان الأمير من قواد جيش عيسى بن موسى ، أن تتناهى به سورة البطش ونشوة الظفر . فيرى التحديث بهذا الأصل الدينى مسوغاً عند الناس لنقض بيعة أخذت منهم بالأيمان المغلظة وبالفزع الأكبر . فدعا بمالك . فجرد وضرب بالسياط ، أوجع ضرب . من ثلاثين إلى مائة سوط . حتى انخلعت كتفه .

قال ابن وهب : وحمل على بعير للتشهير . فكان يقول : ألا من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا مالك بن أنس بن أبى عامر . الأصمى . وأنا أقول : طلاق المكره ليس بشيء . . فباغ ذلك الأمير . فقال : أدركوه . أنزلوه .

وتأثرت يد مالك بالضرب . فبقى لا يستطيع أن يرفعها . ولا أن يسوى رداءه .
قال الدراوردي : سمعته يقول حين ضربه : اللهم اغفر لهم . فإنهم لا يعلمون .
لكنه كما يعبر ابن قتيبة تعبيره . العصري أبدا . لم يزل بعد هذا الضرب
في علو ورفعة . وكأنما كانت هذه الشياطين حلياً حلياً به !

ولا جرم إن من العمل في الدين أن يؤذى المرء في سبيل دينه . أو الإمام من
أجل تعاليمه . وكان احتمال الأذى درساً من دروس مالك للأمة والأئمة .

وليس غريباً أن يصفح الأمير عيسى بن موسى عن ابن هرون أو يصفح
جعفر بن سليمان عن محمد بن عجلان الذي خرج فعلاً مع محمد إذ قيل له
عن علمه وورعه إنه في المدينة كالحسن البصري في البصرة ، في حين يضرب
مالك ، فضرب مالك أريد به إيقاع الرعب في القلوب ، والرعب لا يبلغ غرضه
إلا بضرب الرؤوس . ومالك هو الإمام والزعيم ، جدير في شرعة البطش بأن
يضرب حتى إذا لم يخرج بل واو كان الحديث حقيقة علمية لا يتماهى فيها
اثنان .

وليس غريباً كذلك أن يبقى مالك . فلا يخرج مع محمد . فإلزام ابن
أبي ذئب (٨٠ - ١٥٩) « محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن
أبي ذئب » دأبه فلم يخرج وكان من أشد العلماء في نصيح الخلفاء .

وأبرد البريد إلى أمير المؤمنين في بغداد فجزع لأن مقاربتة لمالك في السنوات
العشر المنصرمة على بدء خلافته قد أصابها ابن عم فيه حمق . ومالك دعامة الاستقرار
في المدينة . ورضاه عن حكمه حجة له . فبعث إلى مالك . ليلقاه بمنى في موسم
الحج . فلقاه . واعتذر له بكل أنواع الاعتذار . ولم يزل يستدنيه حتى أجلسه
وقد لصقت ركبتا مالك بركبته . وحلف له أنه ما أمر بالذي كان . ولا علمه قبل
أن يكون . ولا رضيه إذ علمه . وهنا حمد مالك ربه على كل حال وصلى على
الرسول ونزه الخليفة عن الأمر بذلك أو الرضا به .

وواصل المنصور كلامه : يا أبا عبد الله ما يزال أهل الحرمين بخير ما كنت
بين أظهرهم . وإني أخالك أماناً لهم من عذاب الله وسطوته . ولقد رفع الله بك

وقعة عظيمة . فإنهم أسرع الناس إلى الفتن . وأضعفهم عنها . قاتلهم الله أنى
يؤفكون . وقد أمرت أن يزكى بجعفر من المدينة على قتب . وأمرت بضيق محبسه
وامتهانه . ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه .

ورد مالك : عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه . قد عفوت عنه لقربته
لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقربته منك .
ورد المنصور : وأنت عفا الله عنك ووصلك .

* * *

ولو أفنى مالك بالخروج لكان من الثوار . ولحققت عليه العقوبة التى نزلت
به . بل ربما استحق أكثر . من خائفة كان يخطب فيقول : « إنما أنا سلطان الله
فى الأرض أسوسكم بتوفيقه وتسديده . وتأيبده . وحارسه على ماله . أعمل فيه
بمشيئته وإرادته » . فأى شىء لا يشمله بطشه .

لكن أبا جعفر بحنكته السياسية . لم يزد المسألة قيمة كما فعل واليه .
ولم ينقصها . فیسكت عن خطيئته . بل بين فى لقياءه لما لك أنه يعطيه القود منه .
وأن مالكا فى المدينة عمدته كأداة للهداية والاستقرار .

وازداد الخائفة إليه زلى . فراح يخاطب شغاف قلبه بمقاربتة فى فكره وإيمانه
بفقهاءه . فأعلن له حاجته إلى أن يجعل الموطن كتاباً للمسلمين أجمعين . فاتباع
الأئمة إيمان بخصائصهم وفيه ، من أبى جعفر . باسم المسلمين قاطبة ، قصارى
المودة .

ولم يجزع الشيخ لما جرى به قدره . ولقد كان يروى للمسلمين وللأئمة موعظة
أعيمش بنى تيم القاسم بن محمد بن أبى بكر عن جيل الصحابة « أدركت الناس
وما يعجبهم القول . إنما يعجبهم العمل » بل يروى قول عمر بن عبد العزيز :
لا تغبطوا أحداً لم يصبه فى هذا الأمر أذى . وإذا كان مالك وجيهاً عند الله والناس ،
فقد صار بعد ضربه أوجه . وكان العلم العظيم بحاجة إلى العمل العظيم . يكمل به
مجده — فرزه الله الفرصة ليكون إماماً للأئمة ، وليتم به اتباعه للسابقين . وإنما كان
يعجبهم العمل .

وأعطى مالك المسلمين وخلفاءهم وولاتهم ، درساً جديداً بالعفو — والعفو أقرب للتقوى — مثل درسه في احتمال الأذى ودرسه في حديث رسول الله عن الإكراه . فعلم الشافعي وابن حنبل الصمود عند المحنة فيما تعاماه .
وسبق مالك أبا حنيفة في أذى بني العباس . إذ يموت أبو حنيفة في سنة ١٥٠ بسجن أبي جعفر . بعد ضرب ، أو من غير ضرب . وفي العمل الجليل الواحد عظام لا تعد .

* * *

ولا يرد على الذهن أن ضرب مالك كان بأمر من أبي جعفر . إلا أن يجمل المرء حقائق الرجل .
فمالك لم يصنع شيئاً ضده . والتحديث العلمي بحديث للرسول في الحلقة . ليس خطيئة . ولا يستطيع الخليفة أن يمنع منه الإمام إلا أن تكون سنة الرسول ضد الخليفة . وبهذا يفقده غضبه على مالك حجته على الأمة .
وأبو جعفر فقيه محدث يعرف هذا الحديث . وفقهه . وله دراسات في إيمان البيعة بطبيعة الحال . ورأيه فيها نقيض لرأى جده الأعلى عبد الله بن عباس (١) .

(١) كانت إيمان البيعة في السبعينات من القرن الأول عندما أخذ الحجاج البيعة لعبد الملك ابن مروان ، وفي الثلاثينات من القرن الثاني عند البيعة لأبي جعفر مشغلة الخلفاء . في صيغها وإحكام عباراتها . نخذ مثلاً لإحدى المبايعات « فإن أنتم بدلتم من ذلك شيئاً أو غيرتم أو نكثتم أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين واشترط عليكم في كتابه هذا . فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وذم المؤمنين والمسلمين . وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين . وعلى كل رجل منكم المشى إلى بيت الله الحرام الذي بمكة . خمسين حجة نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك . وكل ملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة فهو حر . وكل امرأة له فهي طالق ثلاثاً البتة ، طلاق الحرج لا مشنوية فيها » .
ومثلاً آخر :

« فإن غيرت — فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً . وكل امرأة هي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج » .

حارب الأئمة هذه الأيمان . مالك يقول ليس على مكروه يمين . وداود سيقول إن اليمين بغير الله =

يقول الجاحظ عنه : « كان مقدماً في علم الكلام ومكثراً من كتاب الآثار .
ولكلامه كتاب يدور في أيدي العارفين والوراقين . معروف عندهم » . ومالك
يقول فيه : « . . ثم فاتحني في العلم والفقه ، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه
وأعرفهم بما اختلفوا فيه . حافظاً لما روى . واعياً لما سمع » .

وأبو جعفر بن خبل ، كل البخل . بالمال . مقل كل الإقلال في سفك الدم .
لا يضع السيف حيث ينفع الندى . إذا سخا سخا بقدر . وإذا بطش فحيث
البطش ضرورة

ولقد دعا الإمام جعفر الصادق في زيارته للمدينة ، عامئذ ، يروعه . فجعل
الصادق الخالق سبحانه بينه وبينه . وطالبه ببعض ما صادره من أموال أهل بيته .
وذكره مسئوليته أمام بارئه .

قال أبو جعفر . إياي تهدد بهذا الكلام ؟ والله لأزهقن نفسك .

قال الصادق : لا تعجل ؛ فقد بلغت ثلاثاً وستين وفيها مات أبي وجدى .

قال المنصور : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربى . قد هممت أن
أبعث إليهم من يغور عليهم ويحمر نخلهم .

قال الصادق : يا أمير المؤمنين : إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى

= لا قيمة لها ولا تأثير . والشافعى يقول : إن طلاق امرأة لم يتزوجها الإنسان لا تأثير له .

وآخرون يقولون إنه يجوز لمن حلف أن يستثنى من يمينه ولو بعد أيام . فيقول بعد أن يحلف
إن شاء الله فلا تكون لليمين قيمة ، أم أبو حنيفة فلا يحجز الاستثناء إلا متصلاً . ولما حاول الربيع بن يونس
حاجب أبي جعفر أن يوقع بينه وبين أبي حنيفة . نسب إليه في مجلس الخليفة أنه يخالف ابن عباس جد
أبي جعفر . في قول ابن عباس بتجوز الاستثناء عن اليمين . استثناء منفصلاً . بعد يوم أو يومين إلى سنة
في قول . وإلى غير حد في قول آخر . وأبو حنيفة لا يحجز الاستثناء إلا متصلاً باليمين . ولا يصح إذا كان
القول باتاً في المجلس . فلم تأخذ أبا حنيفة مفاجأة الربيع فقال : يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه
ليس لك في رقاب جندك بيعة . قال كيف ؟ قال أبو حنيفة يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم
فيستثنون فيبطل أيمانهم . . . وبهت الربيع وضحك أبو جعفر وقال : يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة .
فلقد كان أبو جعفر يتلمس البيعة من كل مكان .

فصبر . وإن يوسف قدر فغفر . فاقتد بأيهم شئت . وقد جعلك الله من نسل
الذين يعفون ويصفحون .

وتعالى المنصور على الموعظة قال : إن أحداً لا يعلمنا الحلم ولا يعرفنا العلم .
ولمنا قلت هممت . ولم ترني فعلت . وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من
الإساءة إليهم .

وأبو جعفر في دخيلة نفسه يريد ليقارب المدينة . ويتمنى لو رضى عنه
أهل البيت . وأنى زلنى كمثّل التقرب إلى النبي فيهم ! وأى رضى نفسى إذا لقي
ذكرى للنبي . كانت دار « الأرقم » على الصفا بمكة هي الدار التي استتر فيها
عليه السلام . ودعا الناس إلى الإسلام . وقد تصدق بها الأرقم على ولده . فلم يزل
المنصور يرغبهم بالمال حتى باعوه إياها .

* * *

وكما كان أبو جعفر عالماً بالحديث . كان لا يخشى النقدة . . بل يقبل
النصح العنيف والجدل العاصف — ما دام فيه إخلاص .
قصد إليه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري . من القيروان . وكان
زميلاً له في طلب العلم . فعرض عليه المقام ببغداد . وقال له : كيف رأيت
ما وراء بابنا ؟ قال : رأيت ظلاماً فاشياً وأمرأ قبيحاً . قال لعله فيما بعد من بابي .
فقال : بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ . قال ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا
وقولك مقبول عندنا ؟ قال : رأيت السلطان سوقاً وإنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق
فيها . قال كأنك كرهت صحبتنا ؟ قال ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم .
ولكني تركت عجوزاً . وإني أحب مطالعتها .

بل دخل عليه سفيان الثوري (١٦١) ، وهو من أتراب مالك ، فقال له :
اتق الله فقد ملأت الأرض ظلاماً وجوراً . فطأطأ رأسه ثم رفعه وقال : ارفع إلينا
حاجتك .

فقال : إنما أنزلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين والأنصار . وأبناؤهم يموتون
جوعاً . فطأطأ رأسه ثم رفعه وقال : ارفع حاجتك .

فقال : حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال للخازن كم أنفقت فقال : بضعة عشر درهماً . وأرى هنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها . ثم خرج .
ولما راجعه حاجبه فى شأن سفيان . قال له : اسكت يا أنوك (أحمق) .
لم يبق على الأرض من يستحى منه غير « مالك » وسفيان .

وذات يوم قال له عمرو بن عبيد : ببابك ألف مظلمة . اردد منها شيئاً
نعلم أنك صادق .

ولما دخل عليه عمرو بعد الخلافة . وأراد الانصراف قال له : سل حاجتك .
قال : حاجتى ألا تبعث إلى حنى آتيك ، وألا تعطينى حتى أسألك .
وسئلى بعد موافقه من ابن أبى ذئب وابن طاووس .

ولم يك أبو جعفر ليخاف التبعة — لو أمر بضرب مالك . فكم تحمل
أبو جعفر من تبعات . أمام الله والناس ! لقد قتل عبيده أبا مسلم فى مجلسه
بتدبير منه ! وقتل ابن هبيرة بعد الأمان الذى أعطاه إياه . وحبس عمه ليخر
عليه البيت بعد أمان . أعطاه إياه^(١) وفى محبسه فى العلويون المحبوسون !
وسيجبس أبا حنيفة فيموت فى سجنه .

إنما كان أبو جعفر بحاجة إلى الهدوء فى الإمبراطورية التى يحكمها . وفى
المدينة التى يخرج منها أصحاب الحق فى الخلافة . ومن أجل ذلك احتاج لمالك .
ولقد باغ بمودته كل السلام ، الذى نشده . فلم يخرج منها أحد حتى سنة
١٦٩ بعد موته بعشر سنين . ولما خرج يومذاك الحسين بن . . . على ، فقتل عند
فخ . خرج مغاضباً لأهلها . يقول : « يا أهل المدينة لا أخاف الله عليكم بخير »
ويقولون : « بل أنت — لا أخلف الله عليك ولا ردك » .

* * *

(١) خرج عبد الله بن على بن أخيه « أبو جعفر المنصور » وأرسل إليه المنصور جيشاً
بقيادة أبي مسلم . وفر عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى فتوسلا له لدى المنصور . فقبل شفاعتهما واتفقوا
على أن يكتبوا له أماناً من المنصور . فكتب عبد الله بن المقفع — وكان كاتباً لعيسى — أماناً فيه
« متى غدر أمير المؤمنين بعنه عبد الله بن على فساؤه طوائق . ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون
فى حل من بيعته » وشقت العبارة على أبي جعفر . فأسرهما فى نفسه ، فلما قتله والى أبي جعفر سفيان بن
معاوية مر أبو جعفر . وكان عمر ابن المقفع ٣٦ سنة .

أما عمه عبد الله فحسسه سنة ١٣٨ وخر عليه البيت فقتل سنة ١٤٧ .

الفتنة أشد من القتل :

الحق أن مالكاً كان مغنياً للدولة الجديدة . لكثير من الأسباب . فهو إلى ما مضى كان أموى الهوى . فوادعته للدولة الجديدة ثبت يجدارتها أكثر من الدولة القديمة ، التى لم تعد إلا ذكريات .

وهو إمام السنة . فإذا واجهه معه أبو جعفر الأمة واجهها والسنة معه — ومن ثمة أمر ألا يفنى غيره فى المدينة . أو أن يفنى هو أو ابن أبى ذؤيب . كما كلف ولايته بابتغاء إقراره لعملهم . وذات يوم رفع أبو جعفر صوته فى المسجد . فبهاء مالك فأنهى .

وهذه الأسباب جميعاً يسبقها أمر له المنزلة الأولى هو فقه مالك ذاته . فى طاعة السلطان . فمالك لا يرى الخروج على الإمام الجائر كما يرى الخوارج . ولا يرى سل السيف فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كما يرى المعتزلة . ومالك يسد الدرائع إلى الفتنة . ويرى أن الدنيا يصلحها السلام .

وعندما سأله واحد من ولد عمر بن الخطاب عنبيعة أهل الحرمين للسائل بدلاً من أبى جعفر . قال له : « أتدرى ما الذى منع عمر بن عبد العزيز أن يولى رجلاً صالحاً بعده ؟ قال : لا — قال مالك : كانت البيعة ليزيد بن عبد الملك فخاف عمر إن بايع لغيره أن يقوم ويقا تل الناس فيفسد ما لا يصلح » .

ومالك يحمل لواء ابن عمر فى « الاتباع » — روى البخارى عن ابن عمر أنه أتاه فى فتنة ابن الزبير رجلان فقالا : إن الناس قد صنعوا . وأنت ابن عمر . وصاحب النبى صلى الله عليه وسلم . فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : « يمنعنى أن الله حرم دم أخى » قال ألم يقل : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) . قال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله . وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله .

ويقول ابن عمر كذلك . عن الرسول عليه السلام : « السمع والطاعة على المسلم فيما أحب أو كره . ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

أما الخبر أو البحر الذي كان يرجع إليه ابن عمر . فعنى عبد الله بن عباس ؛ فيقول عن النبي : « من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية » .

وهذا الحديث يرويه البخارى عن ابن عباس . والبخارى — زعيم المحدثين — يرى عدم الخروج على أئمة الجور لأن الخروج أكثر ضرراً . وأن هناك دائماً فرصة ليصلح الوالى من شأنه .

قال عبادة بن الصامت « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا . وأثرة علينا . وأن لا ننازع الأمر أهله . قال إلا أن تكون كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » .

ومالك يرى أن علياً . وسعدا . وابن مسعود . وأبا ذر . وعمارا قد أطاعوا عثمان . ولم يخرجوا عليه وإن ناقضوه . والبيعة إنما تكون على الطاعة . والفتنة أشد من القتل . وصلاح الأمر مأمول مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشورى . ومالك يميز خلافة المفضول مع وجود من هو أفضل منه . ويشترط عليه أن يعدل . فمالك يغير المنكر بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . لكنه لا يحمل السيف ولا يجمع لحملة الآخرين .

ذلك كله وأمر آخر . فمالك لم يكن متشيعاً ولا فيه شبهة تشيع . وتلك كانت مشكلة الساعة — قضية الحرب والسلام للدولة — أو الموت والحياة لأبى جعفر ، وأولاده . ولعل أبا جعفر قرب من مالك لبعد مالك من العلويين .

ومذهب مالك معروف مذاع على الملأ من سنين وربما عشرات سنين وهو حياد الفقيه مع ولائه للسلطة . سأل سائل عن جواز محاربة الخارجين على السلطان . قال مالك : إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم .

قال السائل : فإن لم يكونوا مثاه ؟

فأجاب : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم . ثم ينتقم من كليهما . وعمر بن عبد العزيز لا يتكرر . فمالك يفتى بالحياد أبداً . . لأنه يأمل

صلاح الحكام بالموعظة الحسنة . والذي لا يخرج مع محمد بن الحسن وله بيعة من الخليفة ذاته . لا يخرج مع أحد .

وليس تغيير النظم السياسية عمل الفقيه وإنما عماله بيان حدود الله وحقوق المسلمين .

وأبو حنيفة في العصر ذاته يعلم أبا يوسف معاملة السلطان فيقول : « وإذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق العلم فاذكر ذلك مع طاعتك إياه فإن يده أقوى من يدك » . ثم يعلمه موعظة السلطان في يسر ولين .

* * *

أما أن هوى مالك مع بني أمية — فيدل عليه تاريخه كله حتى قبل أن يولد — من جده الذي شجع الشجاعة الكبرى بالمشاركة في دفن عثمان بليل وقتلته آخذون بخناق المدينة ، وكان يدخل على عمر بن عبد العزيز ، إلى عمه أبي سهيل الذي يتردد ذكره في الموطأ بما يشبه الافتخار . وكان يتردد على عمر بن عبد العزيز كذلك ويسأله في العلم .

يسأله عن القدرية — كما يروى الموطأ — فيرى أن يستأبوا . فيقول عمر هذا رأي . ويعاق مالك في الموطأ بقوله « وهذا رأي » فيلتقي رأيه — ورأى عمه — مع رأي خامس الراشدين وهو من بني مروان ، من بني أمية . ولقد كانت صلة مالك بعمر بن عبد العزيز . وفكره وورعه . مجدداً للمالك ، وكان يهتز طرباً إذا ذكر كلماته .

وكما ارتبط فكر مالك بعمر . من كل وجه ، ارتبطت آماله للدين والدنيا . بمثال آخر لبني مروان بالأندلس . . يوم سأل عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك . فقالوا له : إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف . ويجاهد في سبيل الله . فقال : ليت أن الله زين حرمنا بمثله . وبلغ هذا المقال عبد الرحمن فسر له .

ولقد كانت حفاوة الأمويين وبخاصة هشام بن عبد الرحمن في الأندلس

بمذهب مالك وفقهه بعض مظاهر الظفر للمذهب . في كل أوربة . إذ تعصبوا له تعصباً بقي على الأجيال قروناً في أوربة . بعد موت مالك . وتعصبوا له في حياة مالك — شعاراً لاستقلالهم عن دار الخلافة ببغداد . وارتباطهم بدار الهجرة . وهي تحية فكرية تأسر القلوب وافدة من بعيد .

وإذا كان تأثيره بابن شهاب ومروياته من أبرز المظاهر في علمه فتأثره بأبي بكر بن حزم عن طريق ولديه ظاهرة لا تقل بروزاً . وكلا الرجلين ، ابن شهاب ، وابن حزم ، كان أموي الهوى ، الأول علمهم والثاني عمل لهم . وكان كلاهما مقدماً في العلم والعمل بالمدينة . وهذان أساس فكر مالك . . وطريقته . كل ذلك إلى جوار ما يرويه مالك ويستمسك به من حديث النبي عن اختصاصه معاوية بسفرجات يلقاه بهن في الجنة كما سرى بعد . ومعاوية رأس الأسرة . وهو أساس الدولة . وهو كاتب النبي وصهره . وكان نابغة يسر وتسامح . ومالك هو اليسر والتسامح .

الفصل الثاني الحلفاء في الحلقة

« ما رأيت في العلماء أهيب »
« من مالك »
« هرون الرشيد »

طلب أبو جعفر إلى مالك أن يصحبه إلى عاصمته . وأجاب في طاعة للخليفة . واعتزاز بمنهجه . وبالمدينة . قال : إن تكن عزمة من أمير المؤمنين فلا سبيل إلى مخالفته . وإن تكن غير ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

ولم يكن ولاء مالك للسلطة محل شك . عند أبي جعفر . في حين كان يبادل غيره الرجاء الحذر . لكن مالكا نفسه لم يكن يأمن غدر أبي جعفر . أو هكذا يظهر من فهم المقاربين في العصر لمواقف أبي جعفر . وهم يروون عن مالك أنه قال :

لما ولي أبو جعفر الخلافة ورقى إليه الملاقون المشاءون بالنخيلة . . فأتاني رسوله ليلاً قال : أجب أمير المؤمنين . . . فلم أشك أنه القتل ففرغت من عهدي واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفى . وتحنطت ثم نهضت فدخلت عليه في السرادق . والشمع يحترق بين يديه ، وابن أبي ذؤيب ، وابن سمعان ، قاعدان . . فلما قعدت وسكن روعي رفعت رأسي أنظر تلقائي . فإذا أنا بواقف وعليه درع وبيده سيف . . ثم التفت إلينا قال : أما بعد معشر الفقهاء فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أخشن صدره وضاق به ذرعه . وكنتم أحق الناس بالكف من السنكم . . قال مالك : يا أمير المؤمنين قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم

فاسق نبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)
قال أبو جعفر : على ذلكم . أى الرجال أنا ؟ أمن أئمة العدل أم من أئمة
البحر ؟

قال مالك : قلت يا أمير المؤمنين أنا متوسل إليك بالله تعالى وأتشفع إليك
بمحمد صلى الله عليه وسلم . وبقرابتك منه إلا ما أعفيتني من الكلام في هذا .
قال : قد أعفاك أمير المؤمنين . ثم التفت إلى ابن سمعان وقال : أيها القاضي . . .
أى الرجال أنا عندك ؟ قال : أنت والله خير الرجال يا أمير المؤمنين تحج بيت الله
الحرام . وتجاهد العدو وتؤمن السبل . ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوى ؛ فأنت
خير الرجال وأعدل الأئمة . ثم التفت إلى ابن أبي ذؤيب وقال . . . أى الرجال
أنا عندك ؟ قال : أنت والله عندى شر الرجال . استأثرت بمال الله ورسوله وسهم
ذوى القربى واليتامى والمساكين . وأهلك الضعيف وأتعبت القوى وأمسكت
أموالهم — فما حجتك غداً بين بدى الله ؟ قال أبو جعفر ويحك : ما تقول :
قال : نعم قد رأيت أسيفاً وإنما هو الموت ولا بد منه عاجله خير من آجله .
ثم خرجا وجلسا .

قال : أجد رائحة الحنوط عليك ! قلت أجل . لما نمت إليك عني ما نمتي
وجاءني رسولك ظننت أنه القتل . . قال : أو ما تراني أسعى في أود الإسلام
وإعزاز الدين عائداً بالله . . . يا أبا عبد الله . انصرف إلى مصرك راشداً
مهدياً . وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحداً . قلت إن يجبرني
على ذلك أمير المؤمنين فسمعا وطاعة . وإن يخيرني أمير المؤمنين اخترت العافية
قال : انصرف إلى أهلك معافى مكلوئاً . .

فلما أصبحنا أمر أبو جعفر بصهر دنانير في كل صرة خمسة آلاف دينار
ثم دعا برجل من شرطته فقال له : تدفع لكل رجل منهم صرة . أما مالك إن
أخذها فبسيبيله وإن ردها فلا جناح عليه . وإن أخذها ابن أبي ذؤيب . فائتني
برأسه . وإن ردها عليك فبسيبيله . وإن يكن ابن سمعان ردها فائتني برأسه . وإن

أخذها فهي عافيته .

قال مالك : فأما ابن سمعان فأخذها فسلم . وأما ابن أبي ذؤيب فردها فسلم . وأما أنا فكنت والله محتاجاً إليها فأخذتها . ثم رحل أبو جعفر متوجهاً إلى العراق .

وذات يوم استدعى أبو جعفر مالكا وعبيد الله بن طاووس بن كيسان - وكان عبيد الله من أحسن الناس ، قال له : حدثني عن أبيك : وكان أبوه تلميذاً لابن عباس - قال : حدثني أبي أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه . . قال مالك : فضمنت ثيابي خوفاً من أن يصيبني دمه . ثم قال له المنصور : ناولني تلك الدواة . ثلاث مرات . فلم يفعل وقال أبو جعفر : لم لا تناولني ؟ قال : أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها . قال : قوما عني . ذلك ما كنا نبغي . قال مالك فما زلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم .

* * *

مع العلويين :

لم يك هوى مالك مع العلويين ، وكان ذلك حسبه عند أبي جعفر . وتاريخ مالك وفقهه دلائل على ذلك . فمالك لم يأخذ عن علماء الشيعة إلا ما أخذه عن جعفر الصادق . وعظم ما أخذه عن هذا الإمام سماحته وحياده ومسالمة السلطة والناس .

ولاء مالك لحلف أسلافه أو ولأئمتهم لبنى نعيم يجمع جنوده كلها عند علمائهم أو زعمائهم الأعيان . ولقد سلف علينا الأمر في بداية تعليمه وفي أساتذته منهم . أما زعمائهم فمنهم طلحة بن عبيد الله^(١) ، شهيد موقعة الجمل ، وقد أظفر الله فيها أمير المؤمنين على . وبنو تميم رهط أبي بكر . والشيعة تعنف

(١) يروى مالك في الحلقة ما يرويه عنه الشافعي في الرسالة ويرويه هو في الموطأ : عن عمه أبي سهيل عن جده عن طلحة بن عبيد الله .

العنف كله على أبي بكر وعمر . إلا فرقة زيد بن علي « زين العابدين » بن الحسين بن علي . فقد كان يحسن القول في الشيخين : « أبي بكر وعمر » . كل أولئك ومالك فقيه المدينة — وفقه المدينة هو فقه أبي بكر وعمر وأبنائهما في المقام الأول . حتى أستاذه جعفر الصادق إمام الشيعة — ولده أبو بكر مرتين !

والمذهب الشيعي لا يقبل إلا السنة التي يرويها رجاله ، وهو منحنى مناقض تماماً لمنهاج أهل المدينة . وكثاته في شدة المناقضة الرأي في الخلافة والخلفاء

فإذا انضاف إلى ذلك صاة مالك بعثان — وبني مروان ، تاريخياً وعلمياً ومن أجل السنة ، فلا عجب أن ينسب راو إلى مالك أنه سئل عن خير الناس فقال : أبو بكر قيل فمن ؟ قال : فعمر . وفي رواية أنه قيل فمن ؟ قال : فعثمان ، وفي رواية أخرى أنه قال : الخليفة المقتول ظالماً عثمان . وفي رواية أخرى أن أحد السائين مرة كان عاوياً فلما قال ذلك قام وقال : لا أجالسك أبداً . وأن مالكا قال له : فالحيار لك .

ولا تقف الروايات في هذا الاتجاه ، فثمة روايات مبعدة منها : أنه بعد أن ذكر عثمان كان يقول : هنا وقف الناس . . بل إن منها هو أبعد : أنه كان يعلل ذلك بقوله : وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه .

ومناقشة هذه الروايات في صدد على رضى الله عنه — بحجة أو مفصلة ليست مناقشة للمالك ، إلا أن تصح الروايات عنه . أو تسلم واحدة منها ، فتجدر بالجلد .

ومن المسلمات أن بيعة عثمان كانت بترشيح عمر فبايعه المسلمون . وعلى في الطليعة . فهو اختيار إسلامي شامل . فيه بطل الإسلام على . . .

أما القول بأن من طلب الأمر ليس كمن لم يطلبه . فكلمة حق يراد بها باطل . فعلى قد طلب الأمر وحارب عليه قياماً بواجب الدين . بعد إذ صار أميراً للمؤمنين ، عليه أن يرجع إلى الجماعة من خرجوا عايتها . وهم بنو أمية ، الشاغبون عن غير فهم ، أو عن طموح ، أو عنهما معاً . وطلحة والزبير بعد إذ بايعاه . وأما قبل تمام البيعة لعثمان فقد كان الستة مرشحين وليسوا طالبين بالمعنى

الذى يؤخذ على أحد . فإنما كانوا الستة الذين مات النبي وهو عنهم راض ، وكلفهم عمر تكليفاً بتنصيب خليفة للمسلمين من بينهم . وكانوا على المهدي ، لا على الهوى ، أجمعين .

ولئن صار الأمر إلى معاوية فإنما صار إليه بعد أن قتلت الفئة الباغية من الخوارج أمير المؤمنين ، كما قتلت عمارا الفئة الباغية — كحديث الرسول — وكانت في جند معاوية في موقعة صفين . . أما وقد بويع لمعاوية ورضى الجمهور فهو خليفة بويع له . وكان حكمه ، فيما عدا بعض اجتماعه بما صنعه لأجل دولته ووراثة الملك ، حكماً في مصالحة الأمة . ومعاوية هو معاوية : واحد من الكبار . . كاتب النبي وصهره . وعامل عمر وعثمان ، رضى الله عنهما وعنه . وذلك كله لم يمنع الشاعر : أو غيره ، أن يقول بحق : وأين معاوية من على !

كل أولئك جدل في الروايات ، أما جدال مالك نفسه في المسلم من فقهه . وفقهه هو فقه عمر بن عبد العزيز الذى يقول : « تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أحب أن أخضب بها لساني » .

وإنما خضب بها لسانهم قوم عموا وصموا . سعيّاً وراء السلطة ، ولى بعضهم الخلافة بانتسابهم إلى أهل البيت . ولقد تولى كبره من بينهم أبو جعفر في كتابه إلى محمد بن عبد الله بن الحسن :

« وأما ما فخرت به من على وسابقته فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة . ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه . وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها . ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن فقدم عايه عثمان . وقتل عثمان وهو له منهم . وقاتله طلحة والزبير . وأبى سعد بيعته . وأغلق دونه بابه . ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه » .

مع المهدي :

في سنة ١٥٨ هـ حج أبو جعفر فمات عند بئر ميمون بمكة وتولى المهدي الخلافة

(١٥٨ — ١٦٩) .

ورث المهدي عن أبيه علمه . لكنه امتاز عنه بالسخاء والسخاحة . وكان المهدي يزور مالكا . ويقعد في حلقته . ويبعث ولديه الهادي والرشد « موسى وهرون » لیسما كتبه . وأمر واليه على المدينة كمثل ما أمره أبوه أن يكون مالك مرجعه . وكان المنصور قد بعث إلى مالك يقول : « إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد عمال الحجاز في ذاتك . أو ذات غيرك . أو سوء سيرة في الرعية ، فاكتب إلي . فأنت خالقي أن تطاع ويسمع منك » فصار مالك بين الحين والحين يقضى ويفتي في المشاكل . ويجلس عند الوالي فيعرض عاياه السجن فيقول : اقطع هذا واضرب هذا مائة . وهذا مائتين . واصلب هذا . . .

وصى مالك المهدي يوماً فقال : « أوصيك بتقوى الله وحده والعطف على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجيرانه . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المدينة مهاجري . وبها قبري . وبها مبعثي . وأهلها جيرانني . وحقيق على أمتي حفظي في جيرانني فمن حفظهم كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » .

ووعظ والي المدينة بقوله : افتقد أمور الرعية فإنك مسئول عنهم قال عمر ابن الخطاب : « والذي نفسي بيده لو هلك حمل بشاطئ العراق ضياعاً لظننت أن الله يسألني عنه يوم القيامة » . ووعظ والياً آخر بقوله : « فلتكن رحمتنا الله وإياك فيما كتبه إليك وما استرعاك الله من رعيته فإنك المسئول عنهم صغيرهم وكبيرهم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " كاكم راع وكاكم مسئول عن رعيته " » . وذكروا أن مالكا لما أخذ في تدوين كتبه ووضع عامه قدم عاياه المهدي فأتاه بالموطأ ، فأمر المهدي بانتساخه . وقرئ على مالك . فلما تمت قراءته أمر له بأربعة آلاف دينار ولابنه بألف .

وفي سنة ١٦٠ فرق المهدي في الحجاز ثلاثين مليون درهم ووزع مائة وخمسين ألف ثوب .

ولا قدم المدينة زائراً قبر النبي سنة ١٦٧ دخل عليه مالك فحضره على الإحسان إلى أهلها . وحديثه بفضلها وفضائلهم . ويقول رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « أمرت بقرية تأكل القرى . يقولون يثرب . تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » . ثم قال يا أمير المؤمنين أفليس هؤلاء أهلاً أن يعانوا على الصبر عليها ، وعلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال المهدي : والله يا أبا عبد الله حتى لا أجد إلا مثل هذا « ومد يده ليأخذ من الأرض شيئاً فلم يجده » ثم قال صدقت وبررت وحضضت على الرشد فانت أهل أن يطاع أمرك ويسمع قولك . وأمر بخمسة أبيات مال « والبيت عندهم خمسمائة ألف » وأمر مالكا أن يختار من تلامذته رجالاً يقسمونها على أهل المدينة ويؤثرون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأهل بيت أبي بكر وعمر وعثمان . ثم أهل بيوت المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ففعل . فأغنى المدينة عامهم ذلك .

فإذا قدم مالك على المهدي لم يجلس بين الزحام بل ينادى يا أمير المؤمنين . أين يجلس شيخك مالك ؟ فيقول المهدي : عندي يا أبا عبد الله . فيتخطى الإمام الناس حتى يرفع المهدي ركبته اليمنى ويشركه في مجلسه . فإذا جاء الطعام طعم معه دون وضوء . لأن الوضوء قبل الأكل ليس من الأمر المعمول به في المدينة . فيقول أمير المؤمنين للغلام الذي جاء بالماء : ارفع يا غلام .

ويطلب مالك ماء فيجاء به في كوب له حلقة فضة . فيأبى أن يشرب . فجاء بكوز فخار فشرب . فأمر المهدي بالحلقة فخلعت .

ويجتهد المهدي ليقنعه بتقديم الموطن ليكون مرجعاً وحيداً للأمة فيها مالك فينتهى ، كمثل أبيه ، ويستمع إلى وصية مالك في البر بأهل الحجاز فيبلغ بها منتهى غايتها : أن يصهر إلى أهل المدينة ويتخذ لنفسه منها حرساً خاصاً .

كانت صلة مالك بالولاة والخلفاء حماية للمدينة ، من ظلم الولاة وإهمال الخلفاء . ولذلك لم يكف عن التدخل في أعمالهم . قيل له إنك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون . قال : « رحمك الله . وأين التكلم بالحق » . وكان يحمل على نفسه وهو مريض أو ضعيف فيذهب إلى الأمراء في حين يدع الخروج إلى المسجد . ويقول لمن يسأله في ذلك : « أما تركي الخروج إلى المسجد

فإني ضعفت عن ذلك وأما إتياني الأمراء فبالحمل مني على نفسي . فإنه ربما استشير بعض من لا يستشار .

ويقول عن الولاية : « لولا أني آتيهم ما رأيت للنبي صلى الله عليه وسلم في هذه المدينة سنة معمولاً بها » .

والرسول يقول : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

ومالك رضى الله عنه يقول : « على كل مسلم جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل إلى كل سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر . ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره . لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك فإذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل » .

* * *

ويعسى عمل مالك في إعظام مجلس العلم درساً للأمة . والفقهاء والأمراء فيتعلمون أن الفقيه في حلقة فوق الأمير . قال قائل : كنت عند شريك فأتاه بعض أولاد المهدي فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا . ثم عاد الأمير لمثل ذلك وقال : أتستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال شريك : لا . ولكن العلم أجل عند الله تعالى من أن أضعه . فجثا على ركبتيه . قال شريك : هكذا يطلب العلم .

مع الرشيد :

خلف المهدي الهادي ثم الرشيد — في ليلة مات فيها خليفة هو الهادي وولد فيها خليفة هو المأمون وتولى فيها خليفة هو الرشيد .

وجلس الرشيد في حلقة مالك هو وليا عهده الأمين والمأمون . . . واستفاد المأمون من مالك علماً وسماحة . قيل إنه صعد المنبر يوماً فأورد نحواً من ثلاثين حديثاً بسندها . ثم نزل وقال لقاضيه يحيى بن أكثم : كيف رأيت مجلسنا ؟ قال أجل مجلس . قال ما رأيت له حلاوة — إنما المجالس لأصحاب الحلق والمنابر . . . وكان يقول عن نفسه لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلى بالجرائم

ويصلي شكراً لله الذي رزقه العفو عن الفضل بن الربيع إذ كان معاوناً لأخيه الذي حاربه « الأمين » .

قال يحيى بن أكثم : « كان يحلم حتى يغيظنا » مر به ملاح فأشار وقال : أتظنون أن هذا نبيل وقد قتل أخاه الأمين ؟ فلم يزد المأمون على أن ابتسم قائلاً ما الحيلة حتى أنبل في عين هذا السيد الجليل ؟

وكان الرشيد يستفتي مالكا مع أن بين يديه أبا يوسف ومحمدا صاحبي أبي حنيفة ومع جلال شأنهما عنده . سأله في يمين حنث فيها فقال مالك : عليك صيام ثلاثة أيام : قال الرشيد : يقول تعالى : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) فهل أنا معدم ؟ وكان الفقهاء الآخرون قد أجمعوا رأيهم على أن عليه عتق رقبة . قال مالك : يا أمير المؤمنين كل ما في يدك ليس لك . فعليك صيام ثلاثة أيام . فصام .

والتسبيب ، على هذا الوجه — تذكير حسن التعبير للرشيد . للقصد في أموال المسلمين . وعطاياه أساطير التاريخ . وفيه في الوقت نفسه دروس للمفتين والواعظين ليبلغوا باللطف ما لا يبلغه العنف .

وينتقل الفقه الدقيق من مالك إلى تلاميذه فزرى يحيى بن يحيى في الأندلس يسير في الدرب . فيبعد ، فيفتي ملكها إذ وقع على جارية له في رمضان ، فأفطر ، بأن يصوم ستين يوماً متتابعة . ولم يفت بجواز العتق مع أن النص يجيزه للمفطر . فنقل يحيى الخيار بين العتق والصوم من المفطر إلى المفتي ! فلما نوقش قال : لو فتحنا له باب العتق لفعل كل يوم وعتق .

ولا يقلل الفقه في الفتوى حدة النقد لها . قال قوم إنه استعمل المصلحة ضد صريح النص . وقال آخرون : إنه يسد أبواب الترخيص . ودفع الحرج أصل قوى قوة النص وأيدها آخرون بأنه أفى بها تعزيراً للملك .

وفي جيل لاحق سيقول الخليفة الواثق (٢٣٢) لقاضيه أحمد بن ألى دؤاد : حنثت في يمين فما كفارتها ؟ فيقول مائة ألف دينار فيقول الوزير ابن الزيات :

ما سمعنا بهذا في الكفارات . ويقول القاضي : تلك كفارة مثله في بعد همته وجلالة قدره ... ويقول الخليفة : تحمل إلى أبي عبد الله « ابن أبي دؤاد » يتصدق بها .

* * *

كان مالك ينصح الرشيد بمثل قوله له : « لقد بلغني أن عمر بن الخطاب كان في فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة تحت القدور حتى يخرج الدخان تحت لحيته وقد رضى الله منكم بدون هذا » .

وأصدر الرشيد أمره من بداية عهده كأبيه وجده إلى واليه على المدينة ، سنة ١٧٣ ، محمد بن عبد الله بن سليمان ألا يقطع أمراً دون مالك .

وقدم المدينة وال جديد وأتاه مالك فيمن أتى . فاستدناه وأكرمه ؛ فلما نهض الإمام نهض الناس معه . قال الوالي : نهض يا أبا عبد الله دون وصية ؟ فقال له مالك - يعلمه الحلم والحيلة ويوصيه بالمشورة : إذا عرض لك أمر فيه كسرفاتئد . وعابر على نظرك بنظر غيرك . فإن العيار يذهب عيب الرأي كما تذهب النار عيب الذهب .

ومن قبل ذلك رأى مالك عبد الملك بن صالح والي المدينة يخرج إلى المسجد في رايات يوم العيد فنهاه لأنها ليست السنة . فأنهى .

لقد جاوز مالك الثمانين من حياة شهدت بضع عشرة خليفة ، ودولتين عظيمتين ، وواحداً من الخمسة الراشدين ، وأمسى مفخرة للأمة والدولة طوال حكم الخلفاء الثلاثة الذين لم يتتابع مثلهم ثلاثة في أي دولة . وفيهم يقول الحافظ الذهبي : « وأين مثل أبي جعفر - على ظلم فيه - في شجاعته ، وجرأته وكمال عقله وعلمه ومشاركته في الأدب . ووفور هيئته . ثم ابنه المهدي في سخائه وكثرة محاسبه وتبعه لاستئصال الزنادقة ، وولده الرشيد هرون في جهاده وحججه ، وعظمة سلطانه - على هو ولعب - لكن كان معظماً حرماً الدين قوى المشاركة في العلم نبيل الرأي محباً للسنن » .

أما الرشيد فيقول عن مالك : « ما رأيت في العلماء أهيب من مالك ولا أروع من الفضيل »^(١) .

هكذا يتجلى لنا إمام المدينة ، إماماً للفكر في الأمة كلها ، وحاكماً على الحكم في المدينة نفسها . في عهود الخلفاء الثلاثة العظماء قرابة نصف قرن ، نشر فيه ألوية السنن ، ورفع رأس العلم في وجه السلطة . وعلم فيه الولاة العدل . وحمل تراث المدينة المنورة وأهلها فجعلها منطلقاً للفقهاء . وجاء أهل الحجاز

(١) تآقت نفس الرشيد في إحدى حجاته إلى رؤية الفضل بن عياض (١٨٧) فقصد إليه مع عبد الله بن المبارك . قال عبد الله : إنه إن عرفك لم يأذن لك عليه . فقدم له على أنه رجل من قريش له مكانة من العلم والفقهاء . فتحدثوا ساعة ثم قال هذا هرون الرشيد أمير المؤمنين فنظر إليه الفضل ساعة ثم قال : هذا الوجه الجليل يسأل غداً عن أمة محمد ويؤاخذ بها . ثم جعل يعظم الرشيد حتى بكى . وراح الفضل يذكر مثالب الرشيد ومثالب بيته فقال الرشيد : يا أبا الحسن أما لك ذنوب تخاف أن تهلك بها إن لم يغفرها الله ؟ قال بلى . قال الرشيد : فما جعلك أحق مني بأن ترجو المغفرة ؟ ومع ذلك فإني والله ما كنت لأخير بين شيء وبين الله إلا اخترت الله تعالى على ما سواه .

ثم قام الرشيد للخروج . فقال الفضل : يا أمير المؤمنين إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قلبك كما ضاع عندنا . قال الرشيد : أجل إنه ما قلت .

وقدم الرشيد العراق فكان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها ليكتبوا : ١ - من التزم الأذان في ألف من العطاء - ٢ - ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم ، وعمر مجالس الأدب في ألف دينار من العطاء - ٣ - ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر في أربعة آلاف من العطاء . قال ابن المبارك فما رأيت عالماً ولا قارئاً ولا سابقاً للخيرات ولا حافظاً للحرمان في أيام بعد أيام الرسول عليه السلام وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد . لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين . ويستبحر في العلم والفقهاء ويروى الحديث ويجمع الدواوين وينظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وهذا العهد وما بعده هو الذي يقول فيه « نيكلسون » : وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها . أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل . حتى لقد بدا الناس جميعاً ، من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً ، طلاباً للعلم ، أو على الأقل أنصاراً للأدب ، وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يحبون ثلاث قارات سحياً وراء موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتفقهين . ثم يصنفون ، بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات . التي هي أشبه بدوائر المعارف والتي لها أكبر الفضل في إيصال العلوم المدنية إلينا . بصورة لم تكن متوقعة .

بأرزاقهم التي باغبت أكثرها في عهد المهدي والرشيدي^(١) فكان حقيقاً عليها وخليقاً به أن يحمل اسمها فيقال له إمام دار الهجرة .

* * *

ولما كانت سنة ١٧٤ خرج الرشيد حاجاً فقدم المدينة زائراً قبر النبي فسمع الموطأ من مالك ولم يتخلف أحد من فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن . إلا وقد حضر الموسم مع الرشيد وسمع من مالك موطأه .

قال مالك للرشيد في بعض مجالسه : « إن أباك يا أمير المؤمنين بعث إلى في هذا المجلس كما بعثت إلى . وحدثته بما حدثتك به في شأن أهل المدينة وما يصيرون إليه من البلاء وشدة الزمان وغلاء الأسعار صبراً على ذلك . واختياراً لجوار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم » .

قال هرون : ذلك أبي وأنا ابنه وسوف أفعل ما فعل . وأمر لأهل المدينة بعشرة أبيات مال ، أي ضعني ما أمر به المهدي .

قالوا : بعث الرشيد حاجبه الربيع بن يونس إلى مالك بكيس مختومة فيها ألف دينار ثم رجع إليه الربيع يقول : إن أمير المؤمنين يحب أن تعاد له إلى مدينة السلام . ويوجس خيفة مالك . ويقول : إن الكيس على حاله لم أحركه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وأرسل الرشيد إلى مالك : ما تقول في هذا المنبر ، فإنني أريد أن أنزع ما زاد فيه معاوية بن أبي سفيان . وأرده إلى الدرجات الثلاث التي كانت بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم . فقال مالك : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه من عود ضعيف قد تخر منه المسامير . فإن نقضته تفكك وذهب أكثره . ومع هذا إنه يا أمير المؤمنين لو أعدته إلى ثلاث درجات لم آمن عليه أن ينتقل عن المدينة . يأتي بعدك خليفة فيقول أو يقال له : ينبغي لمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون معك حيث كنت ، فإنما المنبر للخليفة : فبنتقل كما انتقل من المدينة كل

(١) في سنة ١٨٦ حج الرشيد وعلق في الكعبة كتاب ولاية العهد لبه الثلاثة . الأمين فالأمون ولؤمن وفرن ألف دينار وخمسين ألف دينار .

ما كان بها من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما أعلم أنه ترك له عليه الصلاة والسلام بها لا نعل ، ولا شعر ، ولا فراش ، ولا عصا ، ولا قدح ولا شيء مما كان هنا من آثاره إلا وقد انتقل . . . وأطاع الرشيد الإمام . وكان ذلك رحمة من الله للمدينة وأهلها . وتشبيهاً لمنبر الرسول بين أظهرهم .

وكان الرشيد يصحب أبا يوسف . فسأله أن يجمع بينهما ليحدثه في الفقه وأنف مالك وتنزه عن ذلك . وقال لهارون : ها هنا من فتیان قریش من يبلغ حاجة أمير المؤمنين ويخصمه فيما يتكلم به ويذهب إليه . وسر الرشيد أن يضاف ذلك إلى قریش . والرشيد منها . فقال : من هو؟ قال : المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي .

قال المغيرة لأبي يوسف : كلمني بما بدا لك أجابك .
قال أبو يوسف : يا أمير المؤمنين إن هؤلاء — يعني مالكا وأصحابه — يقضون بغير ما في كتاب الله . يقول الله عز وجل : (وأشهدوا ذوي عدل منكم) ، ويقول : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) وهؤلاء يقضون باليمين مع الشاهد . ولا نسمع أن الله تعالى ذكر إلا شاهدين . أو أربعة شهداء . ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قضى باليمين مع الشاهد .
قال المغيرة : قضى به النبي صلى الله عليه وسلم . وقضى به على بالكوفة .
قال أبو يوسف : أنا أكلمك بالقرآن وأنت تكلمني بأفعال الناس ؟ !
تعرفني بهذا وبما قضى به على وغيره ؟

قال المغيرة : فأنت كافر بنبي قضى باليمين مع الشاهد . أو مؤمن به ؟ فسكت أبو يوسف . وأمر الرشيد للمغيرة بألف دينار .

وربما عرض الرشيد ولاية قضاء المدينة على المغيرة في هذه المرة أو في زيارة تلت هذه الزيارة . ورفض المغيرة أن يلي القضاء . وجائزته أربعة آلاف دينار . قائلاً : يا أمير المؤمنين يخنقني الله أحب إلي من القضاء . فقبل رفضه وأجازه بألفي دينار .

كان الرشيد يحج عاماً ويفزو عاماً . وربما روعه الخطر الداخلى أو الخارجى فطلب - خوف الفتنة - إلى مالك الامتناع عن حديث معاوية والسفرجل . ونسى الرشيد أنه يطلب الكف عن تدريس السنة إلى إمام السنة . وهيات أن يمتنع . وكأنما أنسى الشيطان الرشيد أن السنة وإعلانها والدفاع عنها مهمة حياة إمام دار الهجرة . فكيف إذا نهته السلطة أو الخليفة ! إنه عندئذ يكون الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وليس مجرد علم أو تعليم .

قال يعيش بن هشام بن الحباور : كنت عند مالك إذ أتاه رسول الرشيد ينهاه أن يحدث بحديث معاوية في السفرجل . فتلا قوله تعالى : (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البيانات . . .) إلى آخر الآية ثم قال والله لأخبرن بها في هذه العرصة ،

وحدث في جهارة ودوى :

حدثنا نافع عن ابن عمر قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى إليه السفرجل فأعطى أصحابه واحدة واحدة . وأعطى معاوية رضى الله عنه ثلاث سفرجلات وقال : القنى بهن في الجنة .

ولو قد أصيب مالك كما أصيب قبل ، لما ضرّوه إلا أذى . والأذى بعض أبواب المغفرة . والرسول يقول : « ما من مسلم يصيبه أذى إلا تحاتت عنه خطاياهُ ، كما يتحات ورق الشجر » .

ويقول للصحابه وهم يتدارسون العلم بمسجد قباء : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا » وهو درس مطلوب أن يعلمه الإمام . وإنه لأبلغ تدريساً إذا جاهد الإمام أو أذى في سبيل علمه . وما أجل الدروس إذا علمها للخليفة .

في هذه الواقعة الأخيرة . يمكن تحصيل حياة مالك ومهمته في ثلاثة أرباع قرن في المدينة وفي الدنيا : لقد كان « حارس القلعة » التي يحتمى بها المسلمون أو « حامى المنارة » التي يستضيئون بها على مدار القرون .

البَابُ السَّابِعُ

إمام المسلمين

« إذا وجدته الرجل يفتن مالكا »

« فاعلم أنه مبتدع »

(أحمد بن حنبل)

بلغ إمام المسلمين في حياته أمله ، إذ وطأ العلم بالسنة ، وظهرت آثاره وهو حي ، في الأئمة . وانتشر الذين تلمذوا له انتشار الشعاع في شتى الأصقاع ، من شرق وغرب ، فمدوا أسباب فضله إلى الزمان كله .

والإمام يهdy بالقُدوة ، من حياته وصفاته ، وقوله وعمله . ولقد ملأت حلقة مالك وسيرته أرض الإسلام علماً وهداية . كما ملأتها تأليفه وفي طليعتها الموطأ . ورسائله إلى الليث بن سعد إمام مصر في عصر مالك . ورسائله في الرد على القدرية كتبها إلى ابن وهب بمصر أيضاً . وكتاب في النجوم وحساب مدار الزمن ومنازل القمر . ورسائله في الأقضية في عشرة أجزاء كتبها إلى بعض القضاة . ورسائله إلى أبي غسان محمد بن المطرف وهو ثقة من أهل المدينة . وكتابه في تفسير غريب القرآن يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن الخزومي . ومنها كتب أخرى . مثل ما ذكر عن أقواله في كتاب الاستيعاب لأقوال مالك ، أن أجزاء منه حملت إلى « الحكم » أمير الأندلس فأمر بتكتملها فصار الكتاب مائة جزء . فهو عمل من أعمال تلاميذه على أساس فقهه . ومنها ما نسب إليه مثل كتاب يسمى السير يرويه عنه ابن القاسم ، ومجموعة مسائل تحوى سبعين ألف مسألة في كتب كانت عند أبي العباس السراج النيسابوري . ومنها ما لم تسلم نسبته إليه مثل رسالته إلى هارون الرشيد في المواعظ والآداب . حدث بها كثيرون وأنكرها آخرون . وحلف أصبغ بن الفرج تلميذ ابن القاسم ، أنها ليست من وضع مالك .

على أن مؤلفات مالك ، بل موطأ مالك ، على جلال قدره ، واتساع نشره ، وشموله وسبقه ، بقرن أو أكثر ، على الكثير من صحاح السنن ومسانيدها ، وسبقه بيقين كتب الحنفية الأولى التي دوّنها محمد وأبو يوسف ، كل أولئك لم ينشر علم مالك قدر ما رفع اسمه ونشر علمه تلامذته بحلقائهم وتأليفهم وتأليف تلاميذهم الذين نقلوا عنهم .

والأئمة لا يقطعون كل أشواط العلم دأباً ولا ياتقون العلماء طرّاً . وإنما يشقون طرائق قدداً . ويفتحون العالم العلمي للناس . كالذين يكشفون أرض الله لعباده ويدعونها لهم يلتمسون فيها مراغماً وسعة .

وكان طبيعياً أن نلقى من الرواة عن مالك أكبر عدد من الرواة ، عن إمام ، لأن السنة الطهور مادته . والرواة يرتوون منها ويروون ، وكان مفهوماً كذلك أن ينفع مالك أساتذته بعلمه . فيكون أول إمام يروى عنه أساتذة له كابن شهاب وربيعه ويحيى بن سعيد الأنصاري . وموسى بن عقبة وهشام بن عروة . وأن يكثر الرواة عنه من قرنائه كأبي حنيفة . والشافعي . وأبي يوسف ومحمد . ويلتحق بهذين أتراب لهما مثل الحسن بن زياد ووكيع بن الجراح . ونوح بن مريم . تلاميذ أبي حنيفة المقربين . وأساتذة الحجاز كابن جريج — أستاذ مكة وأستاذ الأسود الزنجي شيخ الشافعي . وكابن أبي ذئب ، قرين مالك في المدينة ورقيب العصر . على الخلفاء والولاة . والثوري وحماة بن سلمة إمامي العراق — والأوزاعي إمام الشام . والليث بن سعد إمام مصر .

أما الرواة والتلاميذ والحفظة والنقلة الآخرون فقد أبلغهم القاضي عياض ألفاً وثلاثمائة ، وأبلغهم الخطيب البغدادي ألفاً إلا سبعة . . . منهم الخلفاء الستة : أبو جعفر والمهدي والهادي : والرشيد والأمين والمأمون . ومنهم أحفاد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم عيسى بن زيد والحسين بن زيد من حفدة علي . ومحمد ابن عبد الله من حفدة أبي بكر . وعمر بن محمد من حفدة عمر . ومنهم حفدة له أو لزملائه مثل عمر بن حماد بن أبي حنيفة . وعثمان بن محمد بن ربيعة الرأي

ومنهم رجال من آسيا ومن أوروبا ومن أفريقية . ومن مكة والمدينة ومن الكوفة وبغداد . ومن خراسان ومصر ، والقيروان والأندلس .

وكان طبيعياً أن نجد بين تلاميذه محمد بن إدريس الشافعي ، ومحمد بن الحسن الشيباني وهما إمامان يدوران في مدار لكل منهما - ولكنهما يستطيعان في أفق مالك نفسه .

وتلاميذ مالك يكشفون لنا حقيقة تاريخية : أن الرجال تنشر علم الأئمة أكثر مما تنشر الكتب . ولقد يكون لهم مثل ما للإمام من فضل في المذهب .

عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة :

وإذا ذاع في التاريخ أن أبا يوسف ومحمدا وأبا حنيفة أقران ، أوتعت الأولان بأنهما « الصاحبان » فإن لعبد الرحمن بن القاسم في مذهب مالك نفس المنزلة . وابن حزم الأندلسي يقول : إن كثيراً من المنقول عن أصحاب مالك هو رأي ابن القاسم . واستحسانه وقياسه . وابن رشد - الجدل - يقول في (المقدمات الممهدة) إن « المدونة » موضعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة . والمدونة قد صدرت عن إجابات لابن القاسم بآراء مالك .

ولد عبد الرحمن بالقسطاط - وجده ممن أعتقهم النبي من الأسرى . جاء إلى مصر مع عمرو ، وكان الفاتحون يجعلون لكل بطن منهم راية تشير إليهم فعد جده من أهل الراية . صحب عبد الرحمن مالكا عشرين سنة وانتفع به أصحاب مالك بعد موت الإمام . وأخذ أسد وسحنون عنه إجاباته على « المدونة » . وروايته عن مالك أرجح الروايات في المذهب . قال فيه النسائي : « ابن القاسم رجل صالح ثقة . سبحانه الله ما أحسن حديثه وأصححه عن مالك بن أنس . ولم يرو أحد الموطأ عن مالك أثبت من ابن القاسم وليس أحد من أصحاب مالك عندي مثله . قيل فأشهب ؟ قال ولا أشهب . ولا غيره . . وهو أعجب من العجب . والفضل والزهد وحسن الحديث يشهد له » .

ويحيى بن يحيى يقول فيه : كان ابن القاسم أعلمهم بعلم مالك . وآمنهم عليه .

توفى سنة ١٩١ ودفن بالقرافة الصغرى بالفسطاط .

* * *

ابن وهب :

سبق ابن القاسم فى التلقى على مالك . فهو قد ولد بمصر سنة ١٢٥ قبل ابن القاسم ورحل إلى مالك سنة ١٤٨ ولازمه وتودد عليه حتى مات مالك سنة ١٧٩ وكان مالك يكتب إليه « إلى عبد الله بن وهب فقيه مصر » أو إلى أبى محمد المفتى . ولم يكن يفعل ذلك لغيره . كان يسمى ديوان العلم . ينظر إليه مالك ويقول : « أى فتى لولا الإكثار » وفى تلميذه يقول مالك : « ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه » . أما ابن وهب فيقول فى ابن القاسم : « إن أردت هذا الشأن (يعنى فقه مالك) فعليك بابن القاسم فإنه انفرد به وشغلنا بغيره »^(١) مات سنة ١٩٧ .

* * *

أشهب بن عبد العزيز :

ولد سنة ١٤٠ وتوفى سنة ٢٠٤ عقب وفاة الشافعى . يروى عن مالك كتبه وسننه . وموطأه . وفيه يقول الشافعى : « ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه » وابن قيم الجوزية يراه أفقه أصحاب مالك على الإطلاق .

* * *

عبد الله بن عبد الحكم :

سمع مالكاً والليث وابن لهيعة وسفيان بن عيينة . وصحب الشافعى ، وأكرم وفادته إلى مصر ، وجعل ابنه محمداً يلازمه . وإليه أفضت رئاسة المذهب بعد

(١) ولابن وهب مصنف مشهور باسمه باسم جامع ابن وهب عثر عليه حديثاً فى مدينة أدفو بمصر ويعد من أقدم المخطوطات العربية فى العالم وهى نسخة مكتوبة على ورق البردى .

موت أشهب فبقي فيها حتى وفاته . سنة ٢١٤ . وحده مولى رافع مولى عثمان . ابن عفان . وبيته من أعلى بيوت العلم قدراً وذكرًا وتضحية في سبيل العلم بمصر . وقد رجع ابنه محمد إلى مذهب مالك بعد موت الشافعي . ومن بنيه عبد الرحمن أول مؤرخي الخطط بمصر ، وعبد الله وعبد الرحمن مدفونان إلى جوار الشافعي . ولعبد الله مؤلفات في مذهب مالك هي المختصر الكبير والأوسط والصغير . ويقال إن مسائل المختصر الكبير ثمانية عشر ألفاً وفي الأوسط أربعة آلاف وفي الصغير ألف ومائتان . وله روايته المشهورة في التاريخ عن مالك في سيرة عمر ابن عبد العزيز .

* * *

أصبغ بن الفرج :

رحل إلى المدينة لسمع مالكا فدخلها يوم مات فرجع إلى مصر يسمع ابن القاسم وأشهب وابن وهب واختص بابن وهب فصار كاتبه . ولما جاءت المنية أشهب قيل له من لنا بعدك ؟ قال عليكم : بأصبغ - فهو بهذا ملحق بشيوخه السابقين . وكان يعرف فقه مالك مسألة مسألة ، وكان أستاذاً للمزني وللربيع . قبل أن يقدم الشافعي إلى مصر . مات سنة ٢٢٥ . وعن العلماء بالفسطاط ذاع علم مالك في المشرق والمغرب .

* * *

عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة - الماجشون :

من بيت الماجشون موالى بنى تيم - تفقه عليه بالمدينة الأئمة مثل أحمد ابن المعتدل وابن حبيب . توفي سنة ٢١٢ .

* * *

أسد بن الفرات :

ولد في خيزان بديار بكر . سنة ١٤٣ وأصله من أبناء جند خراسان وانتقل إلى أفريقية وخرج إلى مالك سنة ١٧٣ فلما فرغ من مالك قال : زدني . قال : حسبك

ما للناس . أو حسبك يا مغربي . إن أحببت الرأي فعليك بالعراق . فارتحل إلى محمد بن الحسن بالعراق ولازمه . وكان محمد يخصه بمجلس وحده .

ثم لزم ابن القاسم بمصر وكان يقول فيه : أيها الناس إن كان مالك قد مات فهذا مالك . وكان قد أخذ أسئلة عن محمد بن الحسن فوجهها إلى ابن القاسم وما زال يسأل وابن القاسم يجيب حتى دون ستين باباً من العلم سماها (الأسدية) فاستنسخه أهل مصر إياها فرفض فشكوه ، وأيده القاضي . ثم أمكنهم منها برجاء خاص من القاضي فنسخوها .

١ وانتقل أسد إلى القيروان وبعث إليه ابن القاسم ليعيد النسخة التي نسخها فأبى وأسمعها الناس ومنهم (سحنون) . واحتال سحنون فنسخها ورجع بها إلى ابن القاسم سنة ١٨٨ فرجع ابن القاسم عن بعضها وبعث إلى أسد ليراجع مدونته على (مدونة سحنون) . فاستشار أسد أصحابه فمنعوه كيلا يقال إن الأصل هو كتاب سحنون ، وقالوا إن سحنونا تلميذك وأنت أدركت مالكا وأصحاب أبي حنيفة . وقيل لم يقبل المراجعة لأنه تلقى الأسدية مشافهة والمشافهة أدق من الكتاب . وأظهر أسد بالقيروان مذهب أبي حنيفة وعلا نجمه بالفضل والعلم والورع . واحترام الولاية له ؛ وجعله زيادة الله بن الأغلب قائداً للأسطول الذي فتح صقلية . فكان أول قاض جمعت له قيادة الأساطيل والقضاء . توفي في حصار سراقوسة سنة ٢١٣ . وقبره بصقلية من جزر إيطاليا واحد من قبور عظماء المسلمين في أوربة .

سحنون : عبد السلام بن سعيد (١٦٠ - ٢٤٠) :

سمى سحنونا باسم طائر حديد النظر . لحدة نظره ، وأصله من حمص . رحل إلى المشرق سنة ١٨٨ فسمع المصريين الأربعة ابن القاسم وابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم . وسمع بالمدينة معن بن عيسى ومطرف بن عبد الله والمغيرة . وسمع بمكة من سفيان بن عيينة . ومن العراق عبد الرحمن بن مهدي ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث . وحج مع ابن القاسم وابن وهب وأشهب فكان زميل

ابن وهب على راحلته . ثم قدم القيروان سنة ١٩١ فأظهر علم المدينة ورتب المدونة ومسائلها واحتج لبعض مسائلها بالآثار . من الموطأ الذي رواه عن ابن وهب . وذاعت المدونة بالمغرب وبالأندلس .

دعا ابن القاسم لسحنون حين دعا على أسد لرفضه تصحيح ما ورد في « الأسدية » قال : اللهم لا تنفع أحداً بابن الفرات ولا كتابه فهجره الناس وغملوا بمدونة سحنون .

سئل أشهب من قدم إليكم من المغرب ؟ قال سحنون قيل له ؟ فأسد ؟ قال سحنون والله أفقه من أسد بتسع وتسعين مرة .

ويؤثر عن سحنون قوله : ما أقبح العالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه فيقال هو عند الأمير أو الوزير أو القاضي فإن هذا وشبهه شيء من علماء بني إسرائيل . لأنهم يحدثنهم بما يحبون من الرخص مما ليس عليه العمل . وقوله : رد دائق مما حرّم الله تعالى أفضل من سبعين ألف حجة يتبعها مثلها عمرة مبرورة . وسبعين ألف فرس في سبيل الله وسبعين ألف بدنة للبيت وعتق سبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل .

قالوا : لأن رد الدائق رد مظلمة فهو واجب . وما عداه تطوع . والتطوع وإن كثّر ، لا يقوم مقام الواجب وإن قل .

ولى سحنون القضاء سنة ٢٣٤ بالقيروان . فلم يأخذ أجراً . وكان الناس عنده يكتبون أسماءهم في رقاع تجعل بين يديه ويدعوهم واحداً واحداً ، إلا أن يأتي مضطر أو ملهوف . وكان يضرب الحصوم - تعزيراً - إذا آذى بعضهم بعضاً بكلام .

على بن زياد « التونسي » :

سمع مالكا والثوري والليث بن سعد وأسدأ . قال فيه سحنون : لو كان لعلي بن زياد من الطلب ما للمصريين ما فاته أحد منهم . مات سنة ١٨٣ .

زياد بن عبد الرحمن :

الملقب بشبطون . سمع مالكا والليث وابن عيينة . وهو أول من أدخل الأندلس موطأ مالك . ثم تلاه يحيى بن يحيى . وأهل المدينة يسمون زيادا فقيه الأندلس مات سنة ١٩٣ .

عيسى بن دينار الأندلسي :

رحل فسمع ابن القاسم وانصرف إلى الأندلس فلم يتقدمه أحد في قرطبة وكانت له الرياسة وكان أفقه من كل نظرائه بما فيهم يحيى على جلاله وعلو شأنه . شيعه ابن القاسم عند انصرافه عنه ثلاثة فراسخ . وقال لمن راجعه : تلومني أن شيعت رجلاً لم يخلف بعده أروع منه ولا أفقه — توفي سنة ٢١٢ .

* * *

يحيى بن يحيى الليثي :

أصله من البربر . سمع زياد بن عبد الرحمن ورحل وهو ابن ثمان وعشرين إلى مالك سنة مات ، فسمع الموطأ منه إلا ثلاثة أبواب . ثم رحل إلى مكة ليسمع من ابن عيينة . ثم شد رحله إلى عبد الرحمن بن القاسم . وتفقه به . وعاد إلى الأندلس بعلم كثير . فأصبحت له الفتيا بعد موت عيسى بن دينار . وبهما انتشر فقه مالك في الأندلس وكان عمله في دين الله من مستوى علمه . لم يل وظيفة للسلطان . لكن الوظائف كانت تملأ بمشورته .

وكان يحيى يمثل السنة في الدولة . . وهو معلم من المعالم في تاريخ المذهب . تكاد تتلاقى في يحيى كل أسباب المذهب من فقه مالك ذاته وابن القاسم ، ومن الموطأ الذي هو العلم ، إلى الفقه الأكبر الذي هو العمل ، ومن الإحاطة بالسنن

إلى الاجتهاد بالمصلحة - ومن السمو في وجه السلطة إلى مسالمتها . وبهذا نشر مذهبه .

يقول ابن حزم الأندلسي (٤٥٦) عن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة فكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه . والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به . على أن يحيى لم يل القضاء قط ولا أجاب إليه وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم وداعياً إلى قبول رأيه . كانت هذه السلطة ليحيى في عهد الحكم بن هشام ، ومن قبل الحكم كان أبوه هشام بن عبد الرحمن الداخل يحمل الناس على اتباع مذهب مالك لما سمعه من ثنائه عليه

والحميدى في تاريخ الأندلس يوضح أثر سحنون في نشر المذهب في أفريقية والمغرب حيث يقول : «مذهبان انتشر أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبي حنيفة بالعراق لما ولي أبو يوسف قضاء القضاة بالعراق والمالكي بالأندلس . . . لما ولي القضاء سحنون بأفريقية . وهذا هو السبب في اشتهاار الموطأ في بلاد المغرب» .

والمذاهب الجديدة أفكار وليدة أو طرائق لم تطرق بعد ، فهي بحاجة إلى حماية السلطة والاستعانة بأدواتها - وعلى هذا استطاع مذهب ثالث هو المذهب الشافعى أن ينشر أجنحته على مصر والشام وفي المشرق يوم صار مذهب الدولة الأيوبية ، وفي عصر السلطان محمود بن سبكتكين ووزيره نظام الملك . ولقد نشرت الدولة الشيعية التشيع - بالقوة - في مصر فلما ذهبت ذهب معها .

* * *

تمسكت الأندلس بالمذهب تمسكها بعروة وثقى تجمعها بإمام المدينة . وهي لبعدها من المدينة كانت أحوج لعروة الولاء الفكرى التى تجمعها وإياها. «والاتباع» شعار الأمة الإسلامية . وهو أولى بدولة تنشأ في أقصى أطراف اليابسة إلى الغرب . وكانت الجفوة بين دولتى الإسلام في الغرب بالأندلس . وفي الشرق ببغداد . جفوة موروثه مذ ثل العباسيون عرش بنى أمية . ومنهم عبد الرحمن الداخل الذى

وكان أهل الأندلس يعملون بالواضحة . والعتبية وكتب ابن رشد على العتبية .
وكذلك كتب ابن الحاجب بمصر بعد زوال دولة الشيعة ما سمي بمختصر ابن
الحاجب فأسمى كالبرنامج للمذهب .
ويقولون الدواوين سبعة : الأربعة السابقة والمبسوط للقاضي إسماعيل
والمجموعة لابن عبدوس والمختلطة لابن القاسم وهي نفس المدونة بغير ترتيب
لكنهم إذا قالوا : الكتاب ، فهم يقصدون المدونة .

* * *

وكان طبيعياً والإمام عالم كامل أن تظهر وتزهو في آفاقه نجوم ذات أضواء
خاصة ، فنتج منها ثقافات عالمية لا تقتصر على الفقه وآية ذلك لنا اسمان يقرعان
الاسماع في الحضارة العالمية والعلمية .

ابن رشد (الجلد) (٥٢٠) ابن رشد الحفيد (٥٢٠ - ٥٩٥) :

علمان من أعلام المذهب - أما الجلد فهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن
محمد بن رشد . زعيم فقهاء قرطبة ، والأندلس ، كلها في عصره . قالوا كانت
الدراية أغلب عليه من الرواية . ومن ثمار هذه الشجرة ابنه أحمد ، وقد ولي
القضاء ، ثم ينح ولع حفيده وسميه محمد بن أحمد بن محمد بن رشد .
فلم ينشأ بالأندلس في عصره مثله كمالات وعلماء . ومن أحسن تأليفه في
الفقه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) لكن التاريخ العالمي يسلكه في سلك
الفلاسفة العالميين الذين نقلت عنهم أوربة فبلغت عصر النهضة وعليه تعلم
القديس توماس الأكويني منهاج اتفاق العقل مع العقيدة وذاعت كتبه
الفلسفية مترجمة في جامعات أوربا جميعها في العصور الوسطى .

ابن خلدون (٨٠٨)

درس ابن خلدون فقه مالك في الأزهر بالقاهرة . بعد أن طوف ببلاد
الإسلام . وعاد إلى مسقط رأسه في تونس . ثم نرح إلى مصر . والتاريخ العالمي
يذكر ابن خلدون باعتباره واضع أسس علم الاجتماع الحديث .

* * *

إمام الأئمة :

هؤلاء كبار تلاميذ مالك تشارك أضواءهم ضوء الشيخ في انتشاره لكنهم لا يرجحون في موازين مجده وانتشار أثره تلميذيه اللذين خالفاه في طريقته .

الإمام الشافعي :

والشافعي يقف على رأس هذه الطائفة من الفحول . أن كان إماماً للمسلمين مثل أستاذه . وكان أستاذاً لإمام ثالث للمسلمين هو أحمد بن حنبل . ولمالك عليهما فضل العلم الذي تعلماه ، والسبق الذي سبقه ، قدر ما يسبق أول قرن آخره أو قدر ما يسبق الآباء البنين والحفدة .

والشافعي بانتسابه لمالك كالأبن الذي يرزقه الشيخ في خواتيم عمره . ومذهب الشافعي بتمامه استمرار لمذهب مالك في الاحتجاج بالسنة ، ونصرتها بقواعده التي قعدها وعدم إطلاق العنان للرأى بغير قياس . أوضح حدوده . فصان السنن عن المجازفة ووسع دائرة الاحتجاج بها^(١) .

* * *

محمد بن الحسن :

ومن قبل أن يجلس الشافعي إلى مالك سنواته العشر جلس محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة^(٢) إلى مالك سنوات ثلاثاً . فزاد المعرفة بالسنن عند أصحاب الرأى ، حول أساطين المساجد في بغداد والكوفة وما تلاهما شرقاً في صميم آسيا وقدم إليهم رواية كاملة من موطأ مالك . حافلة بطراز جديد من دراسات الفقه المقارن بين المذاهب .

ولم يك أبو يوسف (١٨٣) أقل إقبالا واستفادة فلقد تلقى موطأ مالك عن نقله إليه . فكان مثل محمد سفيراً بين المنهجين . . . وما هما إلا منهج واحد .

(١) الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول للمؤلف (ص ٢٦٣ - ص ٢٢٠) .

(٢) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام للمؤلف (ص ١٠١ - ١٠٦) الطبعة الرابعة .

منهج الاتباع . في مذهب واحد . مذهب أهل السنة الذي يدور في آفاقه مالك وأبو حنيفة ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل .

من حق محمد بن الحسن ^(١) أن يملأ التاريخ هنية أمامه . ففي الأربعينات من القرن الثاني بدأ وضع الموطآت وجمع موطأ مالك . وفي حياة أبي حنيفة (١٥٠) دونت له كتب قليلة العدد محدودة الحجم . وحل أبو يوسف في حلقة أستاذه بعد زفر بن الهذيل سنة ١٥٨ ، واستقضاه المهدي سنة ١٦٦ ثم صار قاضي قضاة الرشيد حتى مات سنة ١٨٣ . والذي آل إلينا من كتاباته يسير . لكن محمد ابن الحسن جلس مجلساً في مسجد الكوفة وهو في العشرين ، أي بعد عامين من وفاة أبي حنيفة . وأنفق في تحصيل العلم ثلاثين ألف درهم ، نصفها على اللغة ونصفها على الفقه ، لتصبح خصيصته الكبرى هي استعمال اللغة العظيمة لكتابة الفقه الشامل فكان أول من دون فقه السنة تدويناً شاملاً متكاملًا ، وفصله أبواباً وفصولاً .

ولما انتقل إلى المدينة في حكم المهدي يدرس الموطأ كان في عنفوان اقتداره . ولما رجع إلى الكوفة وبغداد روى فيهما موطأ مالك وعلق عليه تعليقه العظيم من كل وجه فأضاف جديداً إلى علوم العراق . حتى إذا مات سنة ١٨٩ كانت بين أيدي المسلمين كتب العراق وخلاصة كتب المدينة تتضمن فقهاً ضافياً في المعاملات والعبادات وقوانين الحرب والسلام والسياسة الشرعية . وما إلى ذلك . وحسب محمد ذلك . ليرأى في التاريخ الفقهي العالمي ، مؤلفاً في كل علم ، ومعلقاً على كل مذهب .

(١) ولد محمد بواسط سنة ١٣٢ ونشأ بالكوفة حيث أبو حنيفة وطلب الحديث فسمع سماعاً كثيراً - وجلس إلى أبي حنيفة فغلب عليه الرأي وعرف به وتقدم فيه وقدم بغداد بعد موت صاحبه . واختلف إليه الناس وسمعوا منه الحديث والرأي . قال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : جلس محمد في مجلس بالكوفة وهو ابن عشرين سنة . وخرج إلى الرقة فولاه الرشيد قضاها ثم عزله فعاد إلى بغداد فلما خرج الرشيد إلى الري الحرجة الأولى خرج معه فمات بالري سنة ١٨٩ .

يقول إنه سمع لفظ أكثر من سبعمائة حديث على مالك وكان إذا حدث عن مالك امتلأ عليه منزله وكثر عليه الناس حتى يضيق عليه الموضع وإذا حدث عن غير مالك لم يجته إلا اليسير من الناس . فقال ما أعلم أحداً أسوأ ثناء على أصحابه منكم إنما تأتون متكارهين .

وتحديث محمد في بغداد يضع أمامنا صورة لإقبال مدرسة الرأي على السنن .

لكن التاريخ كان يدخر له في أواخر حياته يدا أخرى هي كسابقتها يد كبرى ، على العلم : تلك هي تكوين الرجال — وأي رجال ! لقد صنع الكثير بإعداد الشافعي وأسد بن القرات . ليصنعا صنيعهما بعد .

لقد آلت إلى محمد خصيصة أستاذه أبي حنيفة . في تكوين الرجال وتعهدهم . والرجال يبنون الرجال من جديد . وينشئون المذاهب . ويحملون الشعلة وهاجته من جيل إلى جيل فلا تنطفئ أبدا . لتبقى كلمة الإسلام هي العليا .

* * *

أنجى محمد الشافعي بشهادته له — ورأسه بين النطع والسيف — في مهمة الخروج على الرشيد سنة ١٨٤ . فحمل حمل بعير من كتب العراقيين وكتب محمد ، إلى مكة حيث كوّن لنفسه حلقة . وكم كان عظيما تقدير الشافعي لإمام الفقه والبلاغة العربية لبلاغة محمد بن الحسن وفقهه ومناظرته .

ومن مكة بعث الشافعي إلى عبد الرحمن بن مهدي شيخ المحدثين في بغداد (بالرسالة) التي وضعها في الأصول ، فكانت فتحاً جديداً في العلم . وأعد كتبه التي أعلنها في بغداد بين سنتي ١٩٥ ، ١٩٧ ثم أعاد الكتابة في القساطر بين سنة ١٩٩ ، ٢٠٤ فاجتمع منها (كتاب الأم) . والمجموع في كتاب الأم — بتفصيله لكل فروع الفقه وتبويبه ومجالاته لعلم المذهبيين السابقين عليه ، مذهب أبي حنيفة . ومذهب مالك بن أنس ، آية على الصلة بين السابقين واللاحقين . والذي صنعه الشافعي إذ أفاد من كتب محمد ، صنعه المزني تلميذ الشافعي ليكون علماً من أعلام المذهب . ولما قالوا للطحاوي إمام الحنفية الكبير (٣٢١) لماذا خالفت خالك (المزني) قال : « لأنني كنت أرى خالي يداوم النظر في كتب أبي حنيفة » .

وأسكن محمد أسدا في داره ، وخصه بتدريس العلم بالليل له إذ يخلو من عمله أو حلقة العامة ، فإذا أخذت أسدا سنة من النعاس رش الماء على وجهه . فلما استوى أسد نقل المذهب الحنفي إلى أفريقية فأسمى مذهبها في دولة الأغالبة . ولكن أثر محمد في أسد كان أخلد في مذهب مالك ! فالأسئلة التي تعلمها

على محمد ببغداد وأجابه ابن القاسم عنها بمصر على مذهب مالك - طراز من الفقه المالكي الأصيل المفصل من إمام أصحاب مالك الأولين . هيأت له طريقة العراقيين المستطردة للفروض والفروع أن يتعدى حدود الحلقة إلى العصور كافة يلاقى ما يستجد من حوادث ويحكمها . ولم يك أسد ليقدّر على تقديمها لمالك في حياته مذ صده مالك عن الاسترسال في السؤال . فكان من تقدير العزيز الحكيم أن قدمها بعد ممات الإمام إلى أعظم أئمة المذهب بعد وفاة الإمام - نعى عبدالرحمن بن القاسم - لتصبح الأسدية «نواة للمدونة» على ماسلف القول . وهي تحوى فقه المالكية في نحو ستة وثلاثين ألف مسألة ما تزال حتى اليوم مثلاً يحتذى في الفقه العالمى ، دقة حكم ، وعمق فقه ، وحسن تناول ، وشمول نظر ، ووفاء بحاجات العصر . وكأنما وضعت للفقه المتطور في كل عصر ومصر . . . ولا يشوه جمالها إلا مختصراتها .

هكذا تجرى آثار محمد بن الحسن . كالماء تحت جذور « المدونة » التى خدمت حضارة الإسلام جريان الجداول التى ترفد البحر العظيم من فقه الشافعى . ومن قبل ذلك كانت كتب محمد هى البحر العظيم نفسه الذى حوى فقه أبى حنيفة كله ، وما تزال « المدونة » و « الأم » وكتب محمد ، بعد اثني عشر قرناً ، مثلاً عالياً على وضوح الفكر الإسلامى التشريعى واتساعه لكل ما يحدث للناس من أفضية .

لقد اختتمت الأعوام الثلاثون الأخيرة من القرن الثانى بالقسم الفقهيّة التى أدركتها ، جهاد قرن بدأ يجاهد لتدوين السنن والآثار فدوّن الموطآت فى الأربعينات وما تلاها ، وانتهى إلى تدوين الفقه الإسلامى جُلّه فى المذاهب الثلاثة مذاهب مالك وأبى حنيفة والشافعى .

إمامة المدينة :

كانت المدينة بذاتها وبروحها ، جزءاً من ذات مالك وفقهه . فامترج الإمام ومدينته فصاراً كلاً واحداً ، يؤخذ بجمعه لا بأجزائه ، وصار إمام « دار الهجرة » لواء ترفعه كالألوية التي ترفعها في معترك المجد في أي مجال . والمدينة ذاتها إمام . ولو لم يك مالك موجوداً لأوجدته المدينة شعاراً علي علمها ، تقيم حوله مجداً علمياً لها ، في مقابلة الموجات العارمة القادمة من بعيد ، من العراق أو الكوفة ، حيث مدرسة أبي حنيفة . أو من قريب ، من مكة ، حيث نشأ الشافعي . أو من القسطنطينية أو بغداد حيث قامت مدرستا الشافعي وابن حنبل .

كانت المدينة بذاتها عاملاً لانتشار المذهب المالكي لسببين هما خروج المذهب على أيدي تلاميذ مالك ومجيء الناس إليها من كل بقاع العالم . ولما تعاقبت على الشيخ السنون تعاقب عليه التلاميذ . فازدادوا عدداً . وازدادت الأمصار بمنهجه علماً . واقترن طول العمر وكثرة العلم بعظمة المكان ذاته : مسجد الرسول وجوار قبره ، ومغذاه ومراحه ، وأبنائه وأبناء الصحابة . والآثار والأخبار ، والذكر العطر . بلدة طيبة وعلم كبير . تقع على سابلة الحاج والمسلمون يجيئون خفافاً وثقالاً . وحدانا وأرسالا . إذ يحجون فيزورون قبر الرسول ، تلتقي فيها وتفترق شعوب الشرق والغرب . والإقبال عليها يتبع الإقبال على الدين بأداء الفريضة .

والمذهب المالكي ممثل أصيل لفقه الفقهاء السبعة وعمل أهل المدينة به ، وفقه الدين علموهم من الصحابة . فهو امتداد طبيعي عضوي ، فكري وتاريخي ، لأيام الرسالة . ولذلك اقترن بفكرة اتباع السنة ألصق اقتران ، في الأذهان . . فأقبل المسلمون عليه استمسكاً بعامل الأمان . حتى لا يتورطوا في مستحدثات الأمور وبدائعها . ومثل مالك بطول عمره القرن الثاني ، جله ، في المدينة متبعاً للأمر الأول ومتابعاً للقرن الأول الذي بدأ بالرسول وانتهى بخلافة خامس الراشدين عمر ابن عبد العزيز .

كان مالك يتكلم بسنة الرسول ، ويتأسى بما صنعه عمر الثاني وبما انحدر إليه من اجتهاد عمر الأول ، واجتهاد الصديق والصحابة والتابعين ، على امتداد مائة عام بتمامها . اجتهاداً ثبت على التطبيق مع اختلاف الأجيال التي طبقت . وتجلى فيه معنى الإيمان بالرسالة وكماها .

والناس يستفتونه في الحلقة ، أو من بعيد ، بالبريد . أو بالرحلة أو بالرسول تحمل الأسئلة . فأصبح قريباً من القلوب ، وهو بعيد . وأمسى علماً على السنة . وجرى على الألسنة في كل العصور والأصقاع « لا يفتى ومالك في المدينة » .

وكلما تكاثرت على المسلمين المحن عبر القرون ، كان أخذهم بالأمر الأول عاصماً لهم ووسيلة لنهضتهم . فالاتباع منجاة للأمة مما يكرهها . وحافز لها . والإمام الذي يدافع عن الاتباع ويجعله عنوان مذهبه هو الذي تبايعه الأفتدة . ومن عارضه عد صاحب بدعة — ذلك قول أحمد بن حنبل : « إذا وجدت الرجل يبغض مالكا فاعلم أنه مبتدع » وهكذا اقترن حب مالك بالابتعاد عن البدعة واقرن مالك بالسنة فصار شعاراً عليها وعلى المدينة عند الناس والأئمة .

وتابعت الأجيال جميعاً نظرية الاتباع ، واستجابت النظرية لحاجاتها على هدى السنة والأصول العامة للدين ، وعمل الصحابة والتابعين . فذلك هو ما نسميه نحن « روح المدينة » بتعبير عصري ، ويكنى أن يحمل الرأي طابع « روح المدينة » ليسوغ في كل حال . « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » . وهي سلام للمسلمين تسود بجلال السنة وسمو السيرة .

ومالت الأفتدة إلى المذهب لما فيه من يسر ومرونة في موضوعه وشكله . أو فحواه وطريقته . وتوخيه المصلحة ودفع المشقة . فهذان هما لباب الدين مقصداً ومنهجاً . ومنهما يفوح شذا السنة الأرج . وما يتراءاه البشر فيها من يسر وسماحة تفضي إلى التقدم الحضارى ، سواء عمل بها فقه حجازى أو عراقى أو عالمى في أيامنا الحالية .

ويقدم التطور الحضارى الأدلة في آسيا وأفريقية وأوربة من اقتدار المذهب على التمكين للتقدم الإنسانى في القارات المتباينة والمدنيات المختلفة .

* * *

كان الليث بن سعد (٩٣ - ١٧٥) في مصر يملأ الأرض علماً بالسنة وبالفقه طوال حياة مالك، ومع تلاميذ الليث عاش الفقهاء الفحول الذين تعلموا على مالك: ابن القاسم وابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم. والمدرسة المصرية لمالك هي التي نشرت علم مالك في أقطار الأرض على ما سلف من بيان وإن كان لغيرهم فضل معهم.

ونقل المحدث الكبير عبد الرحمن بن مهدي وعبد الله بن مسلمة القعنبي تلميذ مالك المذهب إلى العراق ثم تابعهما ابن المفضل ويعقوب بن شيبه وآل حماد ابن زيد إذ تولوا القضاء ببغداد ولكن المذهب فقد قوته في بغداد بعد سنة ٤٥٠ فلم يعد له إمام. وما زال عليه أهل قطر والبحرين. وإلى خراسان نقل المذهب يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري تلميذ مالك (١٤٢ - ٢٢٦) وكانوا يسمونه الشكاك لكثرة شكه في الحديث. قال عنه إسحق ابن راهويه: «مات يحيى بن يحيى وهو إمام لأهل الدنيا» ونقله كذلك عبد الله ابن المبارك وقتيبة بن سعيد وانتشر المذهب بقزوين - روسيا - وما وراءها من بلاد الجبل. وكان آخر من درس فيه بنيسابور أبو إسحق القطان. وأدخل المذهب بفارس من أئمة المذهب أبو عبد الله البركاني ثم غلب عليها المذهب الظاهري ثم المذهب الشيعي.

وفي أفريقية استقر المذهب بعد أن غلب على مذهب أبي حنيفة. وبقى أهل الأندلس يعملون بمذهب الأوزاعي حتى دخلها مذهب مالك في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٧٢ - ١٨٠).

أدخله شبطون (زياد بن عبد الرحمن) وأمسى الناس هنالك منذ القرن الثاني يقولون: «لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك». فإن ظهوروا على شافعي أو حنفي هناك نفوه. ولما حكم أفريقية المعز بن باديس سنة ٤٠٧ حمل

أهل المغرب على الأخذ بالمذهب. وفي دولة بني تاشفين بالمغرب الأقصى والأندلس كان على بن يوسف بن تاشفين ثاني أمراءهم (٥٠٠ - ٥٣٥) لا يؤتى أحداً ولاية إلا إذا كان له علم بمذهب مالك. ولا يقطع أمراً إلا بمشاورة العلماء ويكلف ولايته أن يستشهدوا في كل أمر أربعة فقهاء . فنفقت في زمنه كتب المذهب المالكي ونبت ما سواها . وبهذا غلب المذهب على شمال أفريقية (الجزائر . تونس . ليبيا . المغرب) .

لكن مصر بقيت بالنسبة للمذهب وكأنها هي «المدينة» الثانية ففيها الجهابذة من خلفاء الإمام بل سبق أن نقله إليها من منتصف القرن عثمان بن الحكم الجزامي وعبد الرحمن بن خالد بن يزيد، وكان فقيهاً روى عن الليث بن سعد، قبل أن ينقله إليها كبار خلفاء مالك في أواخر القرن ويعلموه للآخرين . ولم يستطع المذهب الشافعي على قوته بمصر أن يظهر على المذهب المالكي فهو ما يزال غالباً في صعيد مصر وفي السودان . وكان بين المذهبيين تنافس ومع ذلك ناصرت الدولة المذهب الشافعي ولم تقاوم مذهب مالك بل أنشأت له المدارس . وإنما قاومت المذهبيين دولة الشيعة . وفي عهدها سنة ٣٨١ جلد الشيعة رجلاً وجدوا معه موطأ مالك !

* * *

أجمعت المدينة على مالك . فتفرد فيها كالنجم نصف قرن من حياتها وحياته . وذلك إجماع لا يتم إلا لأسباب . فالمدينة لا تباع إلا الفرد العلم . من كثرة ما نتج فيها من الأئمة فلا ينفق في سوقها إلا الحقائق المسلمة . وهي مقر النقدة ، ومولد الحفاظ ، ومجال المجتهدين المجادلين ، وملقى الأجنحة الإسلامية من شرق وغرب ، ترفرف وتحوم وتنضم في الحرم ، على أمل الإسلام . فإذا خلصت الحقائق في هذه البقعة المباركة كانت حقائق عالمية ثبتت على الامتحان . والزعامة أو الإمامة التي تصدر هذا المكان . وليدة الاختبار العام ، يتأكد ويتجدد في كل عام . فلا يكون رضى للمدينة إلا قمة القمم . وطوبى لمن قدر أن يستقر هنالك نصف قرن كامل .

ولم يكن جدال أبي حنيفة لمالك . وأبو حنيفة إمام العراق ، أو جدال الليث ابن سعد والليث إمام مصر . وأمثال جدالهما له إلا سعيًا من العلماء للإفادة من علمه ، ومعايرة الآراء الوافدة من بعيد بآرائه . وهو إقرار بما للمدينة من الصدارة وإمامها الذي توزن الآراء عنده فيصح الصحاح ويُلفظ الزيوف وتنبذ الأحاديث الشاذة — ولما بايعته عواصم الإسلام ، بايعته من أجل العلم الذي يعلمه ، والحياة الشخصية التي حييها . فالفقه العظيم لا يرفع الفقيه العظيم إلى مستوى الإمامة إلا بالعمل العظيم في الدين ، بالجهد والبذل اللذين يفرضان الإمامة .

ولما تابعت الأمة الشافعي تابعت في إعظام أستاذه . ففي كل تحية أدتها له الأمة قدر مشترك بين الشافعي وشيخه الذي نشأه . لا ينقص الشافعي درجة وإن زاد في فضل مالك . فالشافعي بذاته تحية القدر لمالك . ولما تلمذ أحمد ابن حنبل للشافعي ، كانت تحية أخرى من مستوى الأولى لتجعل مالكا شيخ المدرسة ، وأي مدرسة !

* * *

وتزاحفت الأيام ، وتزايدت الآلام ، فترك الإمام الخروج إلى المسجد لما به من سلس البول . دون أن يتحدث عن ذلك مخافة أن يظن به عدم الرضا بأمر الله . وانقطعت زيارته الخاصة ، وعيادته للمرضى ، والمشى في الجناز ، وصلاة الجمعة ، مدة خمسة وعشرين عاماً وهو يقول : « ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره » فلما سئل في ذلك بعد قال : « لولا أنني في آخر يوم ما أخبرتكم بسلس بولي ... كرهت أن آتي مسجد رسول الله بغير وضوء . وكرهت أن أذكر علي فأشكو ربي » .

وفي ربيع الأول سنة ١٧٩ مرض مالك مرضاً دام اثنين وعشرين يوماً . وفي العشية التي قبض فيها دخل عليه تلاميذه . فقالوا : كيف تجدك ؟ قال : لا أدري ما أقول لكم . إلا أنكم ستعاينون غداً من عفو الله ما لم يكن في حساب . وبقوا . فلم يبرحوا داره حتى أغمضوه رحمه الله ، بعد إذ تشهد ، ثم قال : لله الأمر من قبل ومن بعد . فكان آخر كلامه .

وكفن مالك في ثياب بيض بوصية منه واشترك في غسله ابنه يحيى وصلى عليه

في موضع الجنائز محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وإلى المدينة للرشيد عند الوفاة . وكان الوالي أحد من حماوا نعشه ، وقبره بالمدينة معروف .

قال ابن مالك لما دفنا مالكا دخلنا منزله فأخرجنا كتبه فإذا فيها سبع صناديق من حديث ابن شهاب - ظهورها وبطونها ملاءى - فجعل الناس يقرءون ويدعون ويقولون : رحمك الله يا أبا عبد الله قد جالسناك فما رأيناك ذاكراً لنا بشيء مما قرأناه .

وكانت لحظة من اللحظات في تاريخ المدينة لخص فيها يعقوب بن عتيق تاريخ اجتماعها وفرقتها على الرجال . فقال : « ما اجتمع على أحد بالمدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم إلا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ومات مالك وما يعلم أحد من أهل المدينة إلا أجمع عليه » .

* * *

وتناقلت صحائف الدهر آيات التكريم الذي أحظى به المسلمون إمام دار الهجرة لمكانه من حديث الرسول الكريم وسنته وصحبه .

أما أئمة العراق فمنهم عبد الرحمن بن مهدي يقول : « مابق على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك » ويقول : لا أقدم عليه في صحة الحديث أحداً ، وما رأيت أعقل منه ، ومنهم يحيى بن معين يقول : « مالك أمير المؤمنين في الحديث » ومنهم الحمادان : حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة يقول أولهما : رحم الله مالكا ما خلف على الأرض مثله . ويقول لرجل جاءه في مسألة اختلف فيها الناس : « يا أخى إن أردت السلامة لدينك فسل عالم المدينة واصغ إلى قوله فإنه حجة بين الناس » . ويقول ثانيهما : « لو قيل لي اختر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إماماً يأخذون عنه دينهم لرأيت مالكا موضعاً وأهلاً ورأيت ذلك صلاحاً للأمة » والأوزاعي يسميه « عالم العلماء »

وأما محدث مكة : سفيان بن عيينة شيخ الشافعي قبل مالك فيقول إذ مات : رحم الله مالكا ما كان أشد انتقاده للرجال وكان لا يبلغ من الأحاديث إلا ما كان

صحيحاً — ولا يحدث إلا عن ثقات الناس . ويقول ما ترك مالك على الأرض مثله بل إنه ليراه مصداق حديث للرسول ، فيقول : « لا سعيد بن المسيب ولا زيد ابن علي هو المقصود بحديث » يوشك أن تضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » .

أما إمام مصر : الليث بن سعد فهو القائل قبل أن يموت في حياة مالك : « ما على وجه الأرض أحب إليّ من مالك » ويدعو الله بدعائه المستجاب « اللهم زد من عمري في عمره » .

وأما إماما المسلمين الشافعي وابن حنبل فيقومان علمه ودينه قيمته التي يقدرها المسلمون .

قال الشافعي : « مالك أستاذي وعنه أخذت العلم . وما أحد أمّن عليّ من مالك وجعلت مالكا حجة بيني وبين الله تعالى » .
ولما سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه من أثبت أصحاب الزهري ؟ قال أحمد : « مالك أثبت في كل شيء » .

وأبو حنيفة يقول لليث بن سعد : « ما أسرع ما رأيت منه بجواب صادق ونقد تام » . .

إنه عند أئمة المسلمين الآخرين مثال الصدق والثبوت في كل شيء وإنه لحجة بين الأئمة أنفسهم وبين الله سبحانه ، فأعظم بها حجة وأكرم بها مكانة ، عند الله والناس أجمعين .

فهرست المسائل

(١)

(ث)

الثورة على عثمان ٣٤ وما بعدها
ثورة عمر بن عبد العزيز ١٣٣ وما بعدها

(ج)

جمع القرآن ١٨
جوار ٢٢٧

(ح)

الحاجيات ٢٠٢
حد السرقة ٢٠٦
حد القذف ١٢
حدود ٢٠١
حد الخمر ١٦٧ - ٢٠٧
حديث - ١٨٣ وما بعدها
حروب الردة ١٤
حفظ الدماء ٢٢١

(خ)

خبر الآحاد ١٨٠
خروج محمد بن عبد الله بن الحسن ٢٣٦
حصائص التشريع الإسلامي ١٦٦ وما بعدها
- ٢١٧
خلافة عمر بن عبد العزيز ١٣٣
الخوارج ١٠٩
خيار المجلس ٢٢٨
خيار الشرط ٢٢٨

الاتباع ٢٧ وما بعدها
اجتهاد الصحابة ١٦٩ - ٢٠١ وما بعدها
اجتهاد عمر ٢١ وما بعدها
إمام المدينة ٢٣٣ وما بعدها
الاجتهاد ١٧ وما بعدها
اجتهاد أبي بكر ١٧ وما بعدها
الاستدلال المرسل راجع (المصلحة المرسل)
٢٣٠ - ٢٠٠
الأصول الكلية ٢٠٣ وما بعدها
إمام الأئمة ٢٧٥
إمام المسلمين ٢٧٥ وما بعدها

(ب)

بيت ابن حزم الأنصاري ١٨٤ وما بعدها
بنى تيم ٥١
بيع المعاطاة ٢٢٧

(ت)

التخرج من الرواية ١٨١ وما بعدها
التحسينيات ٢٠٢
التخرج من التفسير ١٦٩
التدرج في التشريع ١٦٦
تدوين الحديث ١٦٩ وما بعدها
التشريع المدني والمكي ١٢ وما بعدها
تغليب المصلحة العامة ٢١٤ - ٢٢٠
تأويل التكاليف ٢٠٠
التسير - دفع المشقة ١٠٠ - ١٠٨ - ١١٦

صحيح البخارى ١٨٨
صحيح مسلم ١٨٨
صلح الحديبية ١٥
صوم ١٢

(ض)

ضرب الكعبة ٤٥ - ٤٦
الضرورات ٢٠٢

(ع)

العرف ٢٢٤
علم أهل المدينة ١٨١ وما بعدها
عمل أهل المدينة ١٦٥ وما بعدها

(غ)

الغرر ٢٣٠
الغناء في الحجاز ١٤٥ وما بعدها

(ف)

فتح الأندلس ٤٧
الفتنة أشد من القتل ٢٤٥
فتوى ابن أبي دؤاد : كفارة اليمين ٢٥٧
فتوى مالك : كفارة اليمين ٢٥٧
فتوى يحيى بن يحيى : كفارة الإفطار ٢٥٧
الفقهاء السبعة ٦٢ وما بعدها

(ق)

القياس ٢٠٥ وما بعدها
القياس على الاستثناء ٢١٠

(د)

دفع أشد الضررين ٢١٥
دولة بني أمية ٤١
دولة بني العباس ١٤٣
دولة بني مروان ٤٥

(ر)

رواة الموطأ ٢٦٤

(ز)

زواج المنعة - ١٦١
- الزوجة ترضع ٢٢٦ - ٢٢٧

(س)

سد الذريعة ٢٢١
السنة : ١٧٠ وما بعدها
المتواتر
المرسل ١٩٢
المشهور ١٩٢
المنقطع ١٩٢
السلطان ٢٣٣ وما بعدها
سوء استعمال الحق ٢٢٣

(ش)

شهادة الصبيان ٢٢١
شهادة الوالد لولده ٢١١
الشيعة ١١٠

(ص)

الصحابة ومكانتهم ١٧٠ وما بعدها

المدونة ٢٧٣

المذهب بآسيا ٢٨٢

المدينة : فضل المدينة ٩ وما بعدها

المذهب بأفريقية ٢٧٠ وما بعدها

المذهب بالأندلس ٢٧٠ وما بعدها

المذهب بمصر ٢٨٢

المرجئة ١١٠

مسند بن حنبل ١٨٨

مصنف عثمان ٣٢ وما بعدها

المصلحة ٢٠٢ وما بعدها

المصلحة المرسلّة - ٢٠٠ إلى ٢٣٠

المضارة ٢٢٧

المعتزلة ١١٠

موطأ محمد ١٩٥

موطأ يحيى ١٩٢

(و)

وقعة الحرّة ٤٤

(ك)

كتاب الرسول إلى عمرو بن حزم ١٨٨

كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى -

الأشعرى ٢٠٤

كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر

ابن حزم ٦٢

كفارة اليمين ٢٥٧

كماليات ٢٠٢

(م)

مالك وبنى أمية ٢٤٨

مالك والسلطة ٢٣٥

مالك والشافعي ٢٧٥ وما بعدها

مالك والعلويين ٢٥١

مالك ومحمد بن الحسن ٢٧٥ وما بعدها

المجموع لزيد بن علي ١١٠ - ١٨٦

مدرسة المدينة - ١٢٣ وما بعدها

فهرست الأعلام

(١)

- أبويوسف ٨٥ - ٢٣١ - ٢٤٧ - ٢٦١
 أبوهريرة ٦٦ - ١٧١
 أبوطلحة (زيد بن سهل بن الأسود) ٢١٥
 أبوويرة الكلبي ٢٠٦
 أبو موسى الأشعري ١٨٢ - ٢٠٤
 أبو غسان محمد بن المطرف ٢٦٣
 الأحنف بن قيس ٦٨
 أسامة بن زيد ١٨
 أسد بن الفرات ١١٦ - ٢٦٦ وما بعدها
 أسماء بنت عميس ١٤٩ - ١٨٤
 إسماعيل الفزاري ٨٤
 إبراهيم بن سعد ١٥٨
 إبراهيم بن الوليد ١٤٣
 إبراهيم النخعي ١٩٣
 ابن تيمية ٢٣٢
 ابن حزم الأندلسي ١٩٣ - ٢٧١
 ابن حنبل ١١٤ - ٢٧٢ - ٢٨٥
 ابن خلدون ٢٧٤
 ابن سعد ١٩٧
 ابن سيرين ٥٣ - ١٨٣
 ابن شهاب الزهري ٥٦ - ١٤٢ - ١٧٢
 ٢١١ - ٢٠٦
 ابن عبدوس ٢٧٤
 ابن كثير ١٢٧
 ابن المفضل ٢٦٧
 أبو بكر الصديق ٩ - ١٧ وما بعدها
 أبو بكر بن حزم ١٠٢ - ١٣٦ - ١٤٠ -
 ١٧٢ وما بعدها
- أبان بن عثمان ١٣٠ - ١٤٩ - ١٨٦
 إبراهيم بن عبد الله الحسن ٢٣٦ - ٢٣٧
 إبراهيم النبي ١٦٨ - ٢٢٢
 ابن أبي ليلى ٢٩٨
 ابن الأشعث ٤٦
 ابن جريج ١٥٢
 ابن الحاجب ٢٧٤
 ابن حبان ٢٢٧
 ابن حبيب ٢٧٣
 ابن رشد الجلد ٢٧٤
 ابن رشد الحفيد ٢٢٨ - ٢٧٤
 ابن أبي زيد ٢٧٣
 ابن عبد البر ١٩٣
 ابن العربي ٢١٢
 ابن قتيبة ٢٣٩
 ابن طيبة ٦١
 ابن هرمز ٢٣٦
 أبو بكر بن المنكدر ٥٤
 أبو بكر الأبهري ٢٧٣
 أبو بردة بن أبي موسى ٤٢
 أبو الحسن الدارقطني ٧٢
 أبو الدرداء ١١٨
 أبو رافع مولى النبي ١٨٤
 أبو سلمة بن عبد الرحمن ١٤٦ - ١٧٢
 أبو سهيل عم مالك ٥١ - ٢٤٧
 أبو جعفر المنصور ١٣٩ - ١٥١ - ١٩٧
 - ٢٣٥ - ٢٤٩ وما بعدها

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ٦٣ -

١٤٦ - ١٥٥ - ١٧٢

أبو حازم ٨٢

أبو حمزة الخارجي ٥٢ - ١٤٣ - ١١٠

أبو حنيفة ١١٢ - ١٩٩ - ٢٣٣ - ٢٤٢

أبو رجاء البصري ١٩

أبو الزناد (عبد الله بن ذكوان) ٤٥ -

١٠١ - ١٨٥

أبو مسعود الأنصاري ٦٤

أبو سعيد الخدري ١٦٨ - ١٧١

أبو طالب ١٠ - ١٤٨

أبو يوسف ٨٥ - ٨٦ - ٨٧

أبو عبيدة بن الجراح ١٠ - ٢٧ -

أبو كبير الهلالي ٦٨

أبو محمد عبد الوهاب : القاضي ٢٧٣

أبي بن كعب ٦٧ - ١٧١

أحمد حفيد مالك ٩٩

الأرقم ٢٤٣

أسماء بنت أبي بكر ١٢٩

إسماعيل بن أويس ٩٠ - ١٥٧ - ١٩٦

إسماعيل : القاضي ٢٧٤

أشهب بن عبد العزيز ٩٣ - ١٠٥ - ٢٢٨

٢٦٦

أم سلمة أم المؤمنين ١٣ - ٤٣ - ٦٩ -

١٢٨

أم فروة بنت القاسم ٥٨ -

أنس بن مالك ٨٢ - ١٣١ - ١٧١ -

١٨٤

إصبع بن الفرغ ٢٦٣ - ٢٦٦

أم عاصم بنت عاصم بن عمر - ١٣٠ -

أم كلثوم زوج عمر ٢٢

الأمين : محمد ٢٥٦

الأوزاعي ١٨٣ - ١٨٦ - ١٩٨ - ٢٣٥

(ب)

البخاري ٩٥ - ١٨٨

بشر بن عمر ٨٨

بلال ١٧٧

بشر الحافي ٨٠ - ١١٥

بقية بن الوليد ٧٢

(ث)

ثعلب (أبو العباس) ٢٠٥

(ج)

جابر بن حيان ٥٨

جابر بن عبد الله ٦٦ - ١٧١ - ١٨٤

جعفر بن أبي طالب ١٤٨

جعفر بن سليمان ١٩٧ - ٢٣٨

الجويني (إمام الحرمين) ٢١٠ - ٢١٢

جابر بن الأسود ٦٣

جبلة بن الأيهم ٢٣

جرير بن عبد الحميد ١٨٦

جعفر الصادق ٥٨ - ٨٦ - ٢٥٢

جعفر الغرياني ٧٢

جميلة ١٤٨ - ١٥٠

(ح)

الحجاج بن يوسف ١٢٥ - ١٢٨ - ١٣٣

حذيفة بن اليمان ١٨٢

الحسن بن زياد ١٤٤

الحسين بن علي ٤٤

حفصة بنت عبد الرحمن ٦٩

حماد بن سلمة ٢٦٤ - ٢٨٤

حبيب - كاتب مالك ٨٢

حذيفة ٣٥

الحسن البصري ١٣٩ - ١٩٣

حفصة (أم المؤمنين) ١٤ - ١٨٩

حماد بن زيد ٩٢ - ٢٨١ - ٢٨٤
حماد بن سلمة ٩٢
حنظلة الراهب ٤٤

(خ)

خبيب بن عبد الله ١٣٢
خارجة بن زيد ٦٤ - ١٥٥ - ١٧٢
خيرة أم الحسن البصري ٧٠
خالد بن الوليد ١٩ وما بعدها - ٢٠٦
خوات بن جبير ١٥٤

(د)

المراردي ١٨٢

(ر)

الربيع بن يونس ٢٦٠
ربيعة بن أبي عبد الرحمن ٥٢ - ١٧٢ -
٢١١
رومة : بئر رومة ٤٣
الرشيد ٨٥ - ١٥٩ - ١٩٨ - ٢٥٦
وما بعدها

(ز)

الزبير ١٠ - ٢٧
زيد بن ثابت ٦٥ - ١٧١ - ٢٣٠
زيد بن علي زين العابدين ١٨٦ - ٢٥٢
زيد بن أسلم ٦١ - ١٠١
زيد بن حارثة ١٧
زينب بنت أبي سلمة ٦٩
زياد بن أبي زياد ١٣٧

(س)

سالم بن عبد الله ٥٥ - ٦٤ - ١٣٤ -
١٧٢

سحنون ٢٦٨ وما بعدها
سعد بن عبادة الأنصاري ١٨٤
سعيد بن المسيب ٤٥ - ١١٤ - ١٣٢ -
١٥٥

سعيد بن زيد ٣٢
سلفستر الثاني - البابا - ٢٧٢
سفيان بن عيينة ٢٨٤
سلمان الفارسي ١٣ - ٨٢ - ٩١
سليمان بن علي ٢٤٤
سند بن عنان المصري ٢٧٣
السيوطي ٢٣٢

سعد بن أبي وقاص ١١٢ - ٢٣
سعيد بن أبي عروبة ٨٦
السفاح : عبد الله بن محمد ٢٣٤
سفيان الثوري ١١٧ - ١٨٣ - ٢٤٣
سليمان بن يسار ١٣٩ - ١٥٥ - ١٧٢
سليمان بن عبد الملك ١٤٠
سمرة بن جندب ١٨٤
سوار بن عبد الله ٥٣
سكينة بنت الحسين ١٤٦ - ١٥٥

(ش)

الشاطبي ٢١٤ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢٥
شراحيل (بن سعد) ١٨٦
الشريف الأندلسي ٢٧٢
الشعبي ١١٣ - ٣٧
الشافعي ٨٥ - ١١٧ - ٢١٢ - ٢٧٥
شريح ٢٠٥ - ٢٢٥
شعبة بن الحجاج ٢٣٧
شيبه بن نصاح ٦٩

عبد الله بن عمر ٢٧ - ٦٥ - ١٧٨ - ١٨٥
١٩٩ - ٢٠٧

(ص)

عبد الله بن عمرو ١٧١ - ١٨٥
عبد الله بن مسعود ٣٦ - ١٨٢ - ١٩٣ - ٢٠٨
عبد الله بن المبارك ١٥٢

صالح بن كيسان ٥٧

عبد الله بن نافع الزبيدي ٩٨
عبد الله بن عبد الحكم ١٩٨ - ٢٦٦
عكرمة ١٥٣

(ض)

عبد الوهاب : القاضي ٢٧٣

الضحاك بن قيس ١٤٠

عبد الملك بن صالح ٢٥٨

(ط)

عبد الملك بن مروان ٤٥

عتاب بن أسيد ٣٧

عدى بن حاتم الطائي ٤٠

عطاء بن رباح ١٥٢

عمر بن أبي سلمة ٦٩

عمر بن الخطاب ٩ - ١٠ - ٢٠ وما بعدها

١٠٢ - ٢٠٢ وما بعدها

عمر بن عبد العزيز ١٣٠ وما بعدها - ١٥٥
٤٧

(ع)

عمر بن محمد من أحفاد عمر ٢٦٤

عمرو بن حزم ١٨٣ - ١٨٨

عقبة بن أبي معيط ٦٧

العالية بنت شريك ٥٠

عائشة بنت طلحة ١٢٨

عبد الرحمن بن زياد المعافري ٢٤٣

عبد الرحمن بن القاسم ٢٨ - ٥٨ - ٢٦٣ -
٢٦٥ وما بعدها

عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام

٨٧ - ٢٤٧ - ٢٧٢

عبد الرحمن بن عوف ٣٢ وما بعدها .

عبد العزيز بن أبي حازم ٩٧

عاصم بن قتادة ١٨٦

عائشة أم المؤمنين ٢٧ - ٦٧ وما بعدها

١٥١ - ١٧٨

عائشة بنت عثمان زوج مروان بن الحكم ٤٤

عبد الرحمن بن أبي الزناد ١٨٤

عبد الرحمن بن عثمان التيمي ٥١

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ٢٦٧

عبد الرحمن بن مهدي ١٠٦ - ١٨٣

عبد المطلب ١٠

عبد الله بن عباس ٢٤١

عبد الله بن حنظلة ٤٤

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ٦٣

عبد الله بن عتبة بن مسعود ٢٠٩

- عبد الله بن أبي بكر بن حزم ١٧٤
عبد الله بن الحسن ١٤٤ — ٢٣٥ — ٢٣٦
عبد الله بن الزبير ١٠٣ — ١٤٩ — ١٣٢
عبد الله بن علي ٢٣٤ — ٢٤٤
عبد الله الماجنون ٩٧
عبد الله بن مسلمة القعنبي ٩٨ — ٢٨١
عبد الله بن وهب ٩٧ — ٩٨ — ٢٠٤ — ٢٦٣ — ٢٦٦
عبد الملك بن عبد العزيز ٢٦٦
عبد العزيز بن مروان ١٣٠ — ١٨٥
عثمان بن عفان ٣٢ وما بعدها ١٢٨ — ٢٥٣
عبد الله بن جعفر ١٢٧ — ٤٨ — ١٤٩
عروة بن الزبير ٦٤ — ١٤٦ — ١٧٢ — ١٨٩
عروة بن أذينة ١٥٥
علي بن أبي طالب ١٠ — ٣٣ — ٢٠٠ — ٢٠١ — ٢١٩
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ٦٤ — ١٣٠ — ١٥٥
عبيد الله بن عمر ١٥٣
عثمان بن عيسى ٩٧
عمار بن ياسر ٣٦ — ٨٣ — ١٤٦ — ١٨٥ — ١٨٨ — ١٨٩
عمران بن حصين ١٦٨
عمرة بنت عبد الرحمن ٦٩ — ١٠٢ — ١٨٨
عمرو بن العاص ٢٧
عمرو بن عبيد ١٠٦ — ٢٤٤
العلاء بن عبد الرحمن ١٨٦
علقمة بن ألى علقمة ٥٤
علي بن الحسين : زين العابدين ١٢٧ — ١٨٦
عيسى بن موسى ٢٣٨ وما بعدها
- علي بن زياد ٢٦٩
عياش — ابن ١٣٧
(غ)
غياث بن إبراهيم ١٨٤
الغزالي ١١٦ — ١٧١
(ف)
فضالة بن عبيد ٢٧٢
فريضة ٧٢
الفضل بن غياض ٢٥٩
فاطمة بنت مالك ٩٨
(ق)
القاسم بن محمد بن أبي بكر ٥٣ — ١٣٢
١٥٥ — ١٧٢ — ١٩٨
قيصة بن ذؤيب ٦٥ — ١٧٢
قايتباي ١١٨
القرافي ٢٢٤ — ٢١٠
(ك)
كثير بن مرة الحضرمي ١٨٦
(ل)
الليث بن سعد ٨٨ — ١١٩ — ٢٦٣ — ٢٦٤

(م)

مالك بن نويرة

محمد بن أبي بكر بن حزم ١٧٤

محمد بن المنكدر ٥٤ - ١٣٧ - ١٧٢

محمد بن الحسن ١٩٥ - ٢٧٥ - وما بعدها

محمد بن المواز ٢٧٣

محمد بن عبد الله من أحفاد أبي بكر ٢٦٤

مرجانة والدة علقمة بن أبي علقمة ٦٩

مروان بن محمد ١٤٣

معاذ بن جبل ٢٠٥

المغيرة بن عبد الرحمن ٩٧ - ٢٦١

المغيرة بن شعبة ٤٢

المنفى بن حارثة ٧٠

محمد بن أبي ذئب ١٨٦ - ٢٢٩ - ٢٣٩

محمد بن عبد الله بن الحسن ١٥٣ - ٢٣٦

٢٤٧

محمد بن عمرو بن حزم ١٠٢ - ١٨٨

محمد بن مالك ٩٨

مروان بن الحكم ٣٨ - ٤٣

مسروق بن الأجدع ١١٨

ميمون بن مهران ١٣١ - ١٣٩

المأمون ١٦١ - ٢٥٦

المعتمد بن سليمان ١٦٢

معاوية ٤٠ وما بعدها ٨٩

معن بن عيسى ٨١ - ٩٧

مصعب الزبيري ١٥١

معمر بن راشد ١٨٦

المهدي الخليفة ١٩٧ - ٢٥٣ وما بعدها

موسى بن نصير ٢٧٢

(ن)

نابليون ٢٧

نافع مولى عمر ٥٥ وما بعدها

نصير (أبو موسى) ٤٢

نوح بن مریم ٢٦٤

نافع بن نعيم ١٩٨

نصر بن حجاج ٢٦

نيكلسون ٢٥٩

(و)

الواقدي ١٥٨ - ١٩٧

وكيع بن الجراح ٢٦٤

الوليد بن عقبة ٦٧

ولهوزن ٤٦

الوليد بن عبد الملك ٤٦ - ١٣٣

الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٤٢ - ١٨٥

(هـ)

هشام بن إسماعيل ١٣١ - ١٤٢

هشام بن عبد الملك ١٤٢ - ٢٣٤

هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام

٢٤٧ - ٢٨١

هشام بن عروة ٢٦٤

هشام بن القاري ٨١

(ي)

يحيى بن سعيد الأنصاري ١٤٣ - ٢١١

يحيى بن يحيى التميمي ٩٨

يحيى بن يزيد النوفلي ١١٦

يزيد بن هبيرة ٢٣٥ - ٢٤٤

يزيد بن معاوية ٤٤ - ١٢٧ - ١٥٠

يحيى بن معين ١٩٢ - ١٩٥

يحيى بن مالك ٩٩

يحيى بن يحيى الليثي ٢٧٠ وما بعدها

يزدجرد ٦٤ - ١٤٦

يزيد بن عبد الملك ١٤٠ - ٢٤٥

يعيش بن هشام بن الحابور ٢٦٢

المراجع

- ١ - تزيين المسالك بمناقب الإمام مالك : السيوطي
- ٢ - مناقب مالك : مسعود الزواوي
- ٣ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية : اللكنوي طبعة الخانجي ١٣٢٤
- ٤ - الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء : ابن عبد البر
- ٥ - الديباج المذهب : ابن فرحون
- ٦ - وفيات الأعيان : ابن خلكان
- ٧ - مالك : الشيخ محمد أبو زهرة
- ٨ - مالك بن أنس : المرحوم الشيخ أمين الخولي ... أعلام العرب
- ٩ - مالك بن أنس ترجمة محررة : المرحوم الشيخ أمين الخولي
- ١٠ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة : القاضي عياض (مخطوط دار الكتب المصرية ٢٢٩٣)
- ١١ - الموطأ : محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية
- ١٢ - الموطأ : رواية محمد بن الحسن طبعة المجلس الأعلى
- ١٣ - الموافقات في أصول الشريعة : الشاطبي أبو إسحق (إبراهيم بن موسى)
- ١٤ - تاريخ التشريع : الشيخ محمد الحضري
- ١٥ - الفقه على المذاهب الأربعة : وزارة الأوقاف
- ١٦ - عمر والتشريع : الشيخ محمد أنيس عبادة
- ١٧ - أبو هريرة : محمد عجاج الخطيب
- ١٨ - الأئمة الأربعة : دكتور أحمد الشرباصي
- ١٩ - أصول الفقه : الشيخ محمد الحضري
- ٢٠ - أصول الفقه : الشيخ زكي الدين شعبان
- ٢١ - المقدمات الممهدة : ابن رشد
- ٢٢ - المدخل للفقه : الشيخ محمد مصطفى شلبي
- ٢٣ - الفقه الإسلامي بين الواقعية والمثالية : الشيخ محمد مصطفى شلبي (مجلة كلية الحقوق بالإسكندرية)

- ٢٤ — نظرية المصلحة في الفقه الإسلامى : مخطوط بمكتبة كلية الشريعة والقانون
(الأزهر سبتمبر ١٩٦٦) رسالة دكتور حسين
حامد حسان بإشراف العميد المرحوم الشيخ
طه الدينارى
- ٢٥ — الغرر في الفقه الإسلامى : دكتور الضريع
- ٢٦ — التعزيز : دكتور عبد العزيز عامر
- ٢٧ — اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى : الإمام أبي يوسف مطبعة الوفاء ١٣٥٨
- ٢٨ — مصادر الحق والفقه الإسلامى : دكتور عبد الرزاق السهرورى
- ٢٩ — تاريخ التشريع الإسلامى : الأساتذة السبكى . السائس . البربرى
- ٣٠ — الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع
الأصول : عبد الحلیم الجندى
- ٣١ — أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في
الإسلام : عبد الحلیم الجندى
- ٣٢ — المعارف لابن قتيبة : دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠
- ٣٣ — الإمامة والسياسة : لابن قتيبة
- ٣٤ — المدونة الكبرى (الجزء الأول)
- ٣٥ — تاريخ الدولة العربية : يوليوس فلهوزن ترجمة أبي ريدة
- ٣٦ — تاريخ الفقه الإسلامى : على حسن عبد القادر
- ٣٧ — الخراج لأبي يوسف : المطبعة السلفية
- ٣٨ — عمدة التفسير للحافظ ابن كثير : اختصار أحمد محمد شاكر
- ٣٩ — عصر المأمون : دكتور أحمد فريد رفاعى
- ٤٠ — تهذيب الأسماء واللغات : أبي زكريا محي الدين شرف النوى
- ٤١ — حياة محمد : محمد حسين هيكل
- ٤٢ — الصديق أبو بكر : محمد حسين هشكل
- ٤٣ — الفاروق عمر : محمد حسين هيكل
- ٤٤ — عبقرية الصديق : عباس العقاد
- ٤٥ — معاوية : إبراهيم الإييارى
- ٤٦ — فجر الإسلام : أحمد أمين

- ٤٧ - ضحى الإسلام : أحمد أمين
- ٤٨ - عمر بن عبد العزيز : عبد العزيز سيد الأهل
- ٤٩ - عمر بن عبد العزيز : رواية عبد الله بن عبد الحكم
- ٥٠ - الفتنة الكبرى : دكتور طه حسين
- ٥١ - الفتنة الكبرى (على وبنوه) : دكتور طه حسين
- ٥٢ - عبقرية عمر : عباس العقاد
- ٥٣ - مختار الأغاني : المؤسسة العامة للتأليف
- ٥٤ - أدب السياسة في العصر الأموي : دكتور الحوفي
- ٥٥ - الوليد بن عبد الملك : دكتورة سيدة إسماعيل كاشف
- ٥٦ - تاريخ الموصل : أبي زكريا يزيد بن محمد بن القاسم الأزدي
- ٥٧ - عبقرية خالد : عباس العقاد
- ٥٨ - ذو النورين عثمان : عباس العقاد
- ٥٩ - تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي
- ٦٠ - من أخلاق العلماء : الشيخ محمد سليمان

الفهرس

الصفحة

تقديم

٥

الباب الأول

المدينة دار الهجرة

٩	الفصل الأول : يثرب أو المدينة المنورة
١٧	الصديق يجتهد
٢١	عمر يجتهد
٣٢	الفصل الثاني : من المدينة إلى دمشق
٤١	بنو أمية

الباب الثاني

تلميذ المدينة

٥٠	الفصل الأول : التلميذ
٦٢	الفصل الثاني : مدسة المدينة

الباب الثالث

عالم المدينة

٧٦	الفصل الأول : الأستاذ
٩٢	أولاً : التلاميذ في الحلقة : الزملاء والخلفاء
٩٦	ثانياً : التلاميذ في الحلقة : جيران الرسول
٩٨	ثالثاً : التلاميذ في الأسرة
١٠٠	الفصل الثاني : من تراث المدينة

الباب الرابع مجتمع المدينة

الصفحة	
١٢٤	الفصل الأول : مجتمع المدينة
١٣٠	عمر بن عبد العزيز والمدينة
١٣٣	عمر الثاني يجتهد
١٤٣	بنو العباس
١٤٥	الفصل الثاني : الشعر والغناء بالحجاز
١٥٥	مالك والغناء

الباب الخامس روح المدينة

١٦٦	الفصل الأول : عمل أهل المدينة
١٨١	الفصل الثاني : العلم عند أهل المدينة
١٨٧	الموطأ
١٩٢	الموطأ منهجه
١٩٧	مع الخلفاء
٢٠٠	الفصل الثالث : العمل بالمصلحة

الباب السادس إمام المدينة والسلطان

٢٣٤	الفصل الأول : طاعة الإمام
٢٤٥	الفتنة أشد من القتل

للمؤلف

- ١ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح طبعة دار المعارف
- ٢ - الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول طبعة دار المعارف
- ٣ - مالك بن أنس إمام دار الهجرة طبعة دار المعارف
- ٤ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعة دار المعارف
- ٥ - الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج طبعة دار المعارف
السلفى
- ٦ - الإمام محمد عبده طبعة دار المعارف
- ٧ - الإمام جعفر الصادق طبعة دار المعارف
- ٨ - الشريعة الإسلامية طبعة دار المعارف
- ٩ - نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
الفقه الإسلامى
- ١٠ - أئمة الفقه الإسلامى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- ١١ - نجوم المحاماة فى مصر وأوربا طبعة دار الاتحاد العربى
- ١٢ - مجموعة مذكرات قضائية (جزأين) طبعة هيئة قضايا الدولة بمصر
- ١٣ - توحيد الأمة العربية طبعة وزارة الثقافة - مصر
- ١٤ - تطوير التشريعات طبعة وزارة الثقافة - مصر
- ١٥ - من أجل مصر (البطل أحمد عصمت) المطبعة التجارية - مصر
- ١٦ - القرآن والمنهج العلمى المعاصر طبعة دار المعارف
- ١٧ - فى السيرة النبوية طبعة دار المعارف
- ١٨ - نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
الإسلامى

١٩٩٣ / ١٠٧٢٨	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-02-4305-1	الترقيم الدولي

١ / ٩٣ / ١١٥
 طبع بمطابع دار المعارف (ج . د . ع .

صورة عصرية يرسمها رجل قانون يتابع من ريع قرن تقديم الأئمة في أضواء العصر — «أب حنيفة»، «الشافعي»، «مالك» — بألوان ناصعة رصينة تبرز ملامح شخصياتهم ونظرياتهم من السباحة والحرية والمشاركة الفعالة في الاندفاع الحضاري للعالم في حدود مقاصد الإسلام.

ويظهر «مجتمع المدينة» في الصورة كأنه الوجه الخلقى لها.. من مقدم النبي الكريم إلى جهاد أب بكر وعمر وعثمان وعلي للتمكين للدين والدولة، إلى اجتهادهم الذي تابعه مالك للتمكين للسنة. وقد وسعت حياته ثلاثة عشر خليفة، منهم عمر بن عبد العزيز، أستاذ الروحي، والمنصور، والمهدي، والرشيد، الذين رفع في وجوههم أعلام الحرية الفكرية والدفاع عن «المدينة»، حيث الثورات والفنون، والغناء الذي ازدهر في «مجتمع المدينة» وصار لوناً من ألوان الصورة.